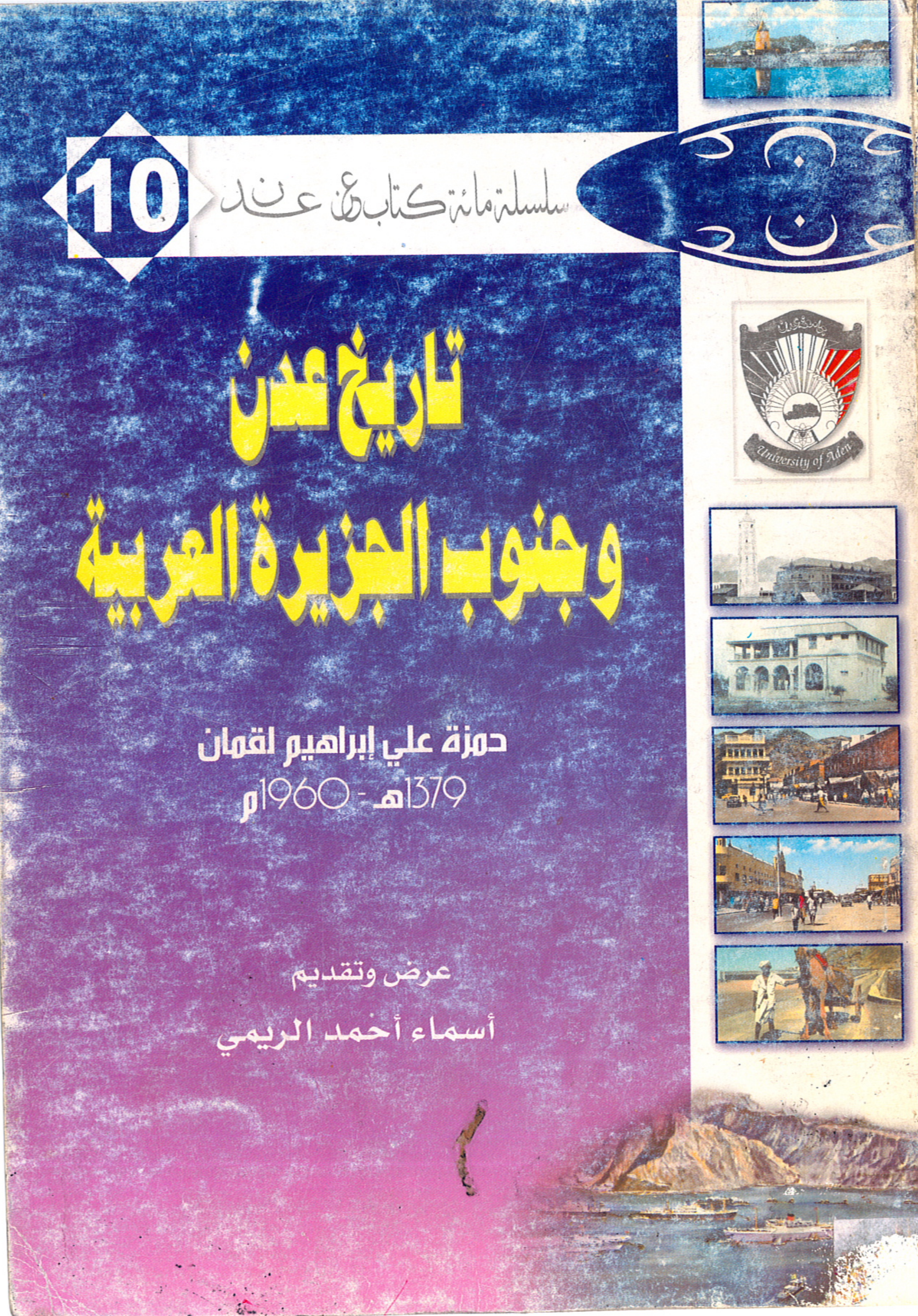

10
سلسلة مائة كتاب عن عدن
تاريخ عدن
وجنوب الجزيرة العربية
حمزة علي إبراهيم لقمان
1379هـ - 1960م
عرض وتقديم
أسماء أحمد الريمي
University of Aden

تـــاريـــخ

عدن وجنوب الجزيرة العربية

بقلم

حمزة علي إبراهيم لقمان

1379هـ – 1960م



عرض وتقديم

أستاذ مشارك د. أسماء ريمي

دار جامعة عدن للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إصدارات جامعة عدن

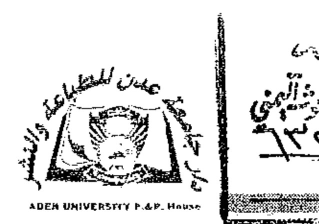
WWW. Adenuniversity.edu.ye
E-mail: adenuniversity@y.net.ye

رقم الايداع في المكتبة الوطنية – عدن 645 لعام 2008م.

دار جامعة عدن للطباعة والنشر. الطبعة الأولى 2008.

National Library Aden, No. 645/2008

Aden University Printing and Publishing House, 1st Edition, 2008.



الجمهورية اليمنية . عدن . مدينة الشعب . ص . ب . 11016 ☎ 360087 – 360135
فاكس: 360701 (2 967+) Fax (+9672) 360701 E-mail: unipress@y.net.ye
R. O. YEMEN. ADEN. MADINAT AL – SHAAB P. O. BOX 11016 ☎ 360087-360135

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

كتاب تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية للمؤلف حمزة علي لقمان يقع في 335 صفحة. طبع هذا الكتاب في مطبعة دار مصر للطباعة عام 1379هـ – 1960م. وتعد هذه الطبعة الأولى للكتاب. وأول ما يلفت النظر هي المقدمة المختصرة التي ابتدأ بها مؤلف هذا الكتاب والتي نحن بحاجة إليها الآن ودعوني أقدم نصاً من هذه المقدمة المختصرة حيث يقول المؤلف الذي أراه في تقديري منوراً ومبشراً ليس في خمسينيات ولا ستينيات القرن العشرين وإنما الآن في هذه اللحظة مع باكورة العقد الأول من القرن الواحد والعشرين. يقول المؤلف إن سبب تأليفه الكتاب "هو افتقار أبناء هذه النواحي (أي عدن ودولة جنوب الجزيرة) إلى معرفة تاريخ الأرض التي يعيشون فيها والأجداد الذين ينتمون إليهم".

وفي هذا يتراءى البعد الجغرافي والتاريخي لدى مؤلف هذا الكتاب وربطه بين الجغرافيا والتاريخ لهذه المنطقة، وهذا ما حفزني في اختيار هذا العمل والتعريف به.

من لافتات المؤلف أي الكتاب أنه يمكن الباحث المعاصر من دراسة تاريخ عدن خاصة عبر حقبتي السبئيين والحميريين، وهذا في اعتقادي ما لم يطرقه باحث معاصر قبله، وهذا مما دفعني كسبب لاختياري هذا الكتاب على أن هناك وازعاً آخر يتعلق بالتركيب الديمغرافي لسكان عدن قديماً وحديثاً، وهو أول من طرق هذا الموضوع وفيه مجال لأي باحث مستجد يدرس عن عدن وجنوب الجزيرة العربية.

ميزة أخرى للكتاب تجلت بين صفحات 253 إلى 328 وعبرها يتناول المؤلف الموقع الفلكي لعدن وجبالها وما إلى ذلك من أحوال الجغرافيا.

كما يتناول صهاريجها وأن الرحالة العرب لم يذكروا شيئاً وافياً عنها ويصل إلى مساجد عدن التي كما حددها بأكثر من 13 مسجداً وخاصة "المنارة" وهذا أيضاً يصب في تناول الباحثين المستجدين سواء في قديم عدن أم وسيطها الإسلامي أم حديثها ومعاصرها.

لفت نظري أيضاً إحاطة الكتاب في أواخر صفحاته باهتمامه بالأسطورة التاريخية أو ما تناوله الأخباريون من قصة قابيل وهابيل وقصة راما وسيتا الهندية كما ذكرها ابن المجاور في تاريخ المستبصر، وأن قعر عدن يحرك الناس إلى المحشر.

وآية هذه الإخباريات إشارته إلى القرآن الكريم في قوله تعالى: "وبئر معطلة وقصر مشيد" وتفسير ذلك كما ورد لدى المسلمين والمسيحيين أن البئر تقع فوق جبل صيرة وأيضاً البحث عن اسم صيرة مما يميز هذا المؤلف خروجه على من اهتم بعدن في حيزها الديمغرافي أو تركيبها السكاني بمعنى حزمة الاختلاط التي عاشتها عدن في الخمسينيات والستينيات كما أشرت من قبل من صومال وهنود وغيرهم من الأجناس الأخرى التي حاولت بريطانيا أن تجعل منهم التركيبة السكانية لعدن كما رآها حكام مستعمرة عدن آنذاك وهذا في رأيي يشير إلى أمرين اثنين:

أولاً: أن هذا المؤلف اليمني وهو يحفظ تاريخ عدن تليدها وطارفها أرى فيه عاشقاً جماً لليمن ولعدن ناهيك عن أن هذه الأسرة ارتبطت بصياغة الرأي في مجلاتها "كفتاة الجزيرة" و"القلم العدني" و"عدن كرنيكل" (Chronicle).

ثانياً: أن هذا الكتاب وهو من سلسلة كتاباته التي تعمل جامعة عدن على إعادة طباعتها وتوثيقها وأرشفتها، يمثل جزءاً من سلسلة منتظمة تابعها عاشق آخر لعدن وهو أستاذنا الجليل عبد الله محيرز.

يحق القول إن الاثنين قد عشقا عدن وكأنهما يوجهان من اختص بدراسة عدن ويضع خارطة الطريق لدراستها. ويتجلى هذا العمل - وأقصد تاريخ عدن تأليف حمزة لقمان - أنه لا يأتي من الاهتمام التاريخي كما يراه القارئ فحسب وإنما ينبع من رؤية نسميها بحاضرنا استراتيجية. وبمرادفة هذا الكتاب بكتاباته الأخرى سنجد أن هذه الاستراتيجية واضحة المعالم وأن أفقها أفق يمني واضح مع العشق لليمن.

إن خلاصة ما أريد قوله إن مبعث اهتمامي بهذا الكتاب والتعريف به يأتي من أنه يمثل برنامجاً استراتيجياً لطلاب الدراسات العليا سواء في نظام الماجستير أو نظام الدكتوراه. ولعل مصادر الكتاب أول شهادة على ذلك وقد سماها بالمراجع وبينما أراها أنا مصادر. انظر ص 326 – ص330.

الكتاب يسلك في تأليفه الطريقة الكلاسيكية في تأليف كتب التاريخ العربي بشكل عام، ويمتاز بأنه جمع الشريط الساحلي الجنوبي إلى حدود عمان وتوزع ليدرس العرب في جنوب الجزيرة العربية بدءا بمحاولة الرومان في احتلال هذه المنطقة ووصولاً إلى قيام الدولة القاسمية في اليمن، ثم انتهاءً باحتلال بريطانيا لعدن حتى عقد المعاهدات بين بريطانيا ودويلات الجنوب.

إنه كتاب لا يقدر بثمن .. ويستحق إعادة طباعته. تغمد الله مؤلفه بواسع الرحمة والمغفرة وله ألف إعزاز وتقدير على تخليده لنا هذا السفر.

وأوصي أنا كأستاذة في جامعة عدن ومتعلقة بالتاريخ - بالآتي:

أولاً: يستحق الكتاب إعادة طباعته وتوزيعه على مراكز العلم التاريخي في الداخل والخارج.

ثانياً: إن الكتاب يعد قيمة مخطوطية – إلى حد ما – وهذا ما أشرت إليه في فحوى تقديمي لهذا الكتاب.

ثالثاً: أوصي بأن تعمل جامعة عدن على عمل ندوة خاصة لا تتعلق بآل لقمان وإنما بما خلفه حمزة علي لقمان من كتب أو مقالات وما تلاها.

تغمد الله مؤلف هذا الكتاب بواسع الرحمة والمغفرة وله ألف إعزاز وتقدير على تخليده لنا هذا السفر.

أستاذ مشارك د. أسماء أحمد ريمي
قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة عدن



حمزة علي لقمان

مؤلف كتاب تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

أما بعد:

فإنني أضع بين يديك أيها القارئ الكريم كتابي هذا الذي سميته "تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية" بعد أن صرفت في إعداده لك عدة سنوات من عمري في البحث والدراسة والتحليل والتفكير.

إن تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية هو جزء من تاريخ اليمن التي تألفت في العصور الماضية من رقعة من الأرض شملت اليمن بحدودها السياسية الحاضرة ودول الجنوب وعدن وحضرموت ومسقط وعمان.

وهذا الكتاب يبحث في تاريخ هذه الرقعة كلها، إلا أنني خصصت القسم الأكبر منه لعدن ودول جنوب الجزيرة لسبب وجيه، هو افتقار أبناء هذه النواحي إلى معرفة تاريخ الأرض التي يعيشون فيها والأجداد الذين ينتمون إليهم، فلقد وجدت الكثيرين ملمين بتاريخ أوربا والإمبراطورية البريطانية والهند والفراعنة والإغريق والرومان، ولا يكادون يعرفون شيئاً عن معين وسبأ وحمير وقتبان وحضرموت والدول الإسلامية التي ظهرت في هذا الجنوب، ووجدت الكثيرين يعرفون عن بابر وأكبر وأوليفر كرومويل وسر فرانسيس دريك وهانيبال والقياصرة والأباطرة، ويكادون يجهلون كل شيء عن بني معن وبني الصليحي والملكة أروى وزريع والهادي إلى الحق وعامر بن عبدالوهاب والأمير مرجان وغيرهم من الذين صنعوا لنا تاريخاً كله مجد وفخار.

لقد آليت على نفسي أن أسجل تاريخ هذا الجنوب العزيز، وهأنذا أفي بالوعد فأقدمه لك هدية يا بن الجنوب.

جمادي الثانية 1379هـ

ديسمبر 1959م

حمزة علي لقمان

العــــرب في جنوب الجزيرة العربية

العرب البائدة:

ذكر المؤرخون أن قبائل عاد كانت أول الأمم التي سكنت اليمن وحضرموت وبقية مناطق جنوب الجزيرة العربية. ومن قائل: إن شداد بن عاد حين مر بلحج في طريقه إلى حضرموت أمر بحفر نفق في جبل التعكر حتى يتمكن من الدخول إلى وادي عدن، وتم حفر النفق في سبعين عاماً، وجعل شداد وادي عدن سجنا ينفي إليه أعداءه.

وفي القرآن الكريم: أن شداد بن عاد بنى مدينة إرم ذات العماد وصرف على عمارتها أكواماً من الذهب والفضة والأحجار الكريمة. ويذكر المؤرخ العدني بامخرمة أن إرم كانت تقع بين خليج عدن ولحج وماوية. ويعتقد الناس اليوم أن قرية العماد الصغيرة التي تقع على بعد يسير من مدينة الشيخ عثمان إنما هي جزء من البقعة التي بنيت عليها إرم. وفي بلاد العواذل التي تبعد عن عدن حوالي مئة ميل نجد قرية "امعادية" التي بنيت فوف أطلال مدينة قديمة تحمل نفس الاسم. وتشير تلك الأطلال والخرائب إلى أن مدينة عظيمة كانت تقع هناك في يوم من الأيام. والاسم الصحيح لها هو "العادية" إلا أن "ال" التعريف تنطق "أم" بين قبائل الجنوب. ومن المعتقد أن تلك المدينة بناها السبأيون أو الحميريون. إلا أننا من اسمها نميل إلى الترجيح بأن عاد هي التي بنتها.

وحين أرسل الله ريحا صرصرا عاتية هدمت إرم وقضت على قوم عاد، أنقذ الله فريقاً منهم بزعامة لقمان آمنوا بنبي الله هود فسكنوا جنوب الجزيرة العربية وأسسوا دولة عاد الثانية.

وتعتبر قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت أقدم من سكن جنوب الجزيرة العربية.

وينقسم العرب إلى فريقين هما: (العدنانيون) أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكانوا بدوا رحلا يقطنون الجزء الشمالي من الجزيرة العربية: و(القحطانيون) أولاد سام بن نوح عليهما السلام، وكانوا متحضرين ومستقرين في مواطنهم في الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية.

وكانت أكثر الشعوب السامية تمدنا البابليون الذين يرجع تاريخهم إلى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح.

الأذواء في اليمن:

كانت اليمن في ماضيها البعيد وحدة تتكون من مجموعات من الإقطاعيات تسمى المحافد، يحكمها أمراء يطلق عليهم الأذواء أو الذوين. والمحفد هو القصر أو الحصن وأميرها يسمى "ذو" وتقابلها في وقتنا الحاضر لفظة "صاحب" و"مالك"، مثلاً حين نقول "ذو غمدان" فمعناها "صاحب غمدان" أو"مالك غمدان".

واستطاع بعض أولئك الأذواء أن يبسطوا نفوذهم على محافد أخرى وكونوا لأنفسهم ممالك في داخل اليمن. وإذا كانت مملكة هذا الأمير تقع في ناحية تسيطر على طرق التجارة تمكن من مد سلطته على نواح أخرى وأعلن نفسه ملكا عليها وكون دولة.

والدول التي حكمت اليمن هي: الدولة المعينية، والدولة السبأية، والدولة الحميرية.

الدولة المعينية:

يظهر من آثار الدولة المعينية، أو دولة معين، أنها وجدت في حوالي سنة 1500 قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام. وبلغ عدد ملوكها ستة وعشرين، وامتد ملكها إلى الخليج الفارسي وإلى البحر الأبيض المتوسط، وعاصمتها الأولى "معين" ثم جعلوا عاصمتها "قرنا". وقد اكتشفت أنقاض معين في بلاد الجوف الجنوبي في شرق صنعاء.

وأول ما نعرفه عن قبائل معين أن أصلهم من قبائل عمالقة العراق بدو الأراميين الذين وجدوا قبل دولة حمورابي البابلية بعدة مئات من السنين. ولما كانوا قد جاوروا البابليين فقد اقتبسوا مدينتهم وتحضروا واستقروا في حياتهم ونبذوا حياة البداوة والترحل. ولما هاجروا إلى اليمن وأسسوا دولتهم فيها أدخلوا حياة الحضارة فيها وسجلوا لغتهم بالكتابة بالحروف الأبجدية الفينيقية. وازدهرت التجارة في أيامهم وصدروا المر والطيب واستوردوا تجارة الهند لتحويلها إلى مصر والشام وغيرهما. واستمر حكمهم حتى القرن الثامن قبل الميلاد حين تغلب عليهم السبأيون.

الدولة السباية:

يرجع السبأيون في نسبهم إلى عبد شمس الملقب "سبأ" بن يشجب بن يعرب ابن قحطان.

كان يعرب هو الذي أسس اللغة العربية وفصلها عن العبرانية القديمة، وحكم اليمن وحضرموت ومسقط وعمان والحجاز ثم خلفه ابنه يشجب الذي خلفه ابنه عبد شمس. ولما كان الغموض يحيط بتاريخ تلك العصور فليس من السهل التحقق من العهود التي حكمت فيها تلك الدول؛ فبينما نذكر أن السبأيين خلفوا المعينيين في حوالي سنة 750 قبل المسيح، نستدل من القرآن الكريم أن بلقيس ملكة سبأ عاشت في أيام سليمان الحكيم. ومن الكتب الإسرائيلية نفهم أن سليمان ولد في سنة 1050 قبل المسيح. ومعنى ذلك أن السبأيين كانوا موجودين فعلاً في ذلك العصر وأن دولتهم ربما عاصرت دولة المعينيين.

ويلغ عدد ملوك السبأيين حوالي سبعة وعشرين، وتقدر المدة التي حكموا فيها بأكثر من سبعمئة سنة، وكانت عاصمتهم الأولى "صرواح" ثم حولوها إلى "مأرب" لما اتسعت دولتهم.

واشتهرت دولة السبأيين بالحضارة والقوة والبأس، وازدهرت التجارة مع الهند والحبشة ومصر والشام والعراق وعاش السبأيون حياة رفاهية ونعمة.

وبالقرب من مأرب بنوا سد مأرب الشهير وبواسطته أمكنهم أن يحولوا مساحة ثلاث مائة ميل من الأرض الصحراوية الجرداء إلى جنة وارفة الظلال كما ذكرها القرآن الكريم: ((لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور)).

يعتقد أن عبد شمس سبأ هو الذي نشر عبادة الشمس والكواكب الست الأخرى وهي: القمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وهرشل. وكانوا يسمون الشمس "بعل" ويمثلون القمر بالثور ويرسمون قرنيه بشكل الهلال ويضعون في الوسط نجمة الزهرة. وكانت الديانة السبأية تشبه الديانات الوثنية للدول المجاورة لسبأ حيث كانوا يعبدون عدداً من الآلهة أعظمها شأناً الشمس والقمر والكواكب الأخرى. وكثيرون منهم كانوا يؤمنون بإله واحد مسيطر على شئون الكون؛ كما آمنوا بخلود الروح وبالجزاء والعقاب يوم القيامة، وآمن آخرون بتناسخ الأرواح.

وقد عاش في عصر السبأيين النبي أشعيا الذي أشار إليهم بقوله "سبأ بن قوش" أو "شيبا بن قحطان".

وعاش في عهدهم النبي حزقيال الذي ذكرهم في الإصحاح السابع عشر، من العهد القديم بقوله:

"العرب وكل رؤساء قيدار، هم تجار يدك بالخرفان والكباش والأعتدة، في هذه كانوا تجارك.

تجار شبأ ورعمة هم تجارك بأفخر كل أنواع الطيب .. وبكل حجر كريم أقاموا أسواقك. حران وقانا وعدن تجار شبا وكلمد تجارك".

وبدأت عظمة السبأيين في التقلص حين أخذت التجارة تنتقل إلى المناطق القريبة من البحر والتي كان يسكنها أذواء من أولاد حمير بن عبد شمس. واستمر السبأيون في الضعف حتى انتهت دولتهم بقيام دولة حمير.

الدولة الحميرية:

بدأ الحميريون حكمهم حوالي سنة 115 قبل ميلاد السيد المسيح. وكانت عاصمتهم ريدان (ظفار). وتنقسم دولتهم إلى طورين، الأول ويبدأ من السنة التي خلفوا فيها السبأيين وينتهي في سنة 275 بعد ميلاد المسيح، وهنا يبدأ الطور الثاني حينما استولى بنوحمير على حضرموت. وفي الطور الأول كان لقبهم ملوك سبأ وريدان وفي الثاني سبأ وريدان وحضرموت، وفي هذا الطور الأخير سمي ملوكهم بالتبابعة .. ويستمر الطور الثاني حتى سنة 525 ميلادية حين كان يحكم اليمن زرعة ذو نواس.

وليس هناك بيان صحيح يذكر لنا عدد ملوك بني حمير ولكن يقال إنه يتراوح بين 26 و30 و40، وأشهر هؤلاء الملوك:

1- الحارث الراشي.	2- أبرهة ذو المنار.
3- أفريقس بن أبرهة.	4- العبد ذو الأذغار.
5- شرحبيل.	6- هدهاد.
7- بلقيس.	8- ياسر النعم.
9- شمر يرعش.	10- تبع الأقرن.

11- أبو مالك.
12- ذو حبشان.
13- أسعد أبو كرب.
14- حسان بن تبع أسعد.
15- تبع بن حسان.
16- عمرو ذو الأعواد.
17- أبرهة بن الصباح.
18- عبد كلال
19- مرثد بن عبد كلال.
20- حسان بن عمرو ذو الكفن.
21- لختيعة طنوف ذو الشناتر.
22- زرعة ذو نواس.
23- ذو جدن.

وكان العصر الحميري عصر فتوحات وغزوات ومدنية ضخمة ضاهت مدنيات مصر وفارس وأشور وفينيقيا. فقد عمروا المدن وأقاموا السدود وحفروا الصهاريج. ذكر الهمداني أن بني حمير بنوا سد لحج وسد شبام ولا يستبعد أنهم هم الذين شيدوا صهاريج عدن الشهيرة.

وضرب الحميريون نقودا نقشوا عليها صور ملوكهم التي يظهر منها إنهم كانوا يرسلون شعر الرأس ويحلقون الذقن والشوارب. وفي تلك النقود حفروا أسماء ملوكهم بالحرف المسند الحميري وحفروا صور البومة والصقر ورأس الثور والهلال والنجمة.

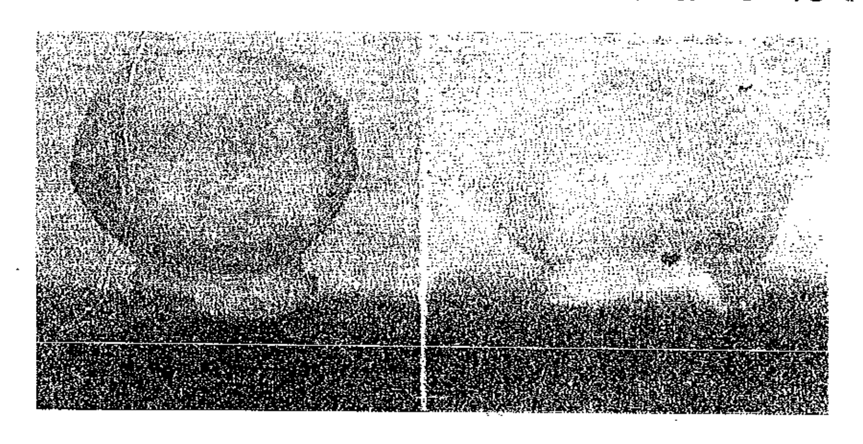


تماثيل حميرية (بإذن من المتحف العدني)



تمثال حميري (بإذن من المتحف العدني)

أما أسباب انهيار دولتهم فسنأتي على ذلك تفصيلاً في حديثنا عن علاقة اليمن بالدول الرومانية.



صورة فتاة من الرخام وجدت في جبل تقوب في بيحان (بإذن من المتحف العدني)

قتبان وحضرموت:

إلى جانب الدول الثلاث المعينية والسبأية والحميرية قامت دولتان عظيمتا الشأن هما:

"**دولة قتبان**، وعاصمتها تمنا. وكانت تحتل المنطقة التي نجد فيها اليوم بيحان وما جاورها، وهي لا تبعد إلاّ قليلاً عن مأرب عاصمة السبأيين. وكان للقتبانيين مدنية زاهرة فعبدوا الطرق وعمروا القصور والهياكل وأنشأوا السدود. وفي المتحف العدني نجد عدداً من الآثار القتبانية التي وجدت في نقوب ومن بينها رخامة منحوتة بفن دقيق بديع لرأس فتاة رائعة الجمال ذات شعر مجعد مفروق من الوسط وهي في حوالي العشرين من العمر، ويعتقد أنها تنتمي إلى أحدى العائلات النبيلة في قتبان.

"**دولة حضرموت**" سكان حضرموت من العرب العارية أولاد قحطان. وكانت في حضرموت مجموعة محافد يحكمها "أذواء" كما كان الحال في اليمن. وأشهر المحافد الشحر وشبام وهينن وعندل ودمون، وكانت لهم حضارة واسعة واشتهروا بصناعة الحلي والأثاث والعطور والبخور وأقاموا السدود وشيدوا القصور واعتنوا بالزراعة عناية فائقة.

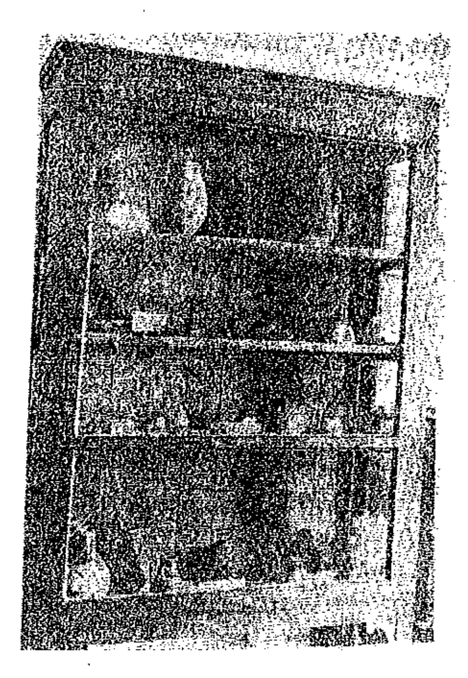
وقد دلت الآثار على أن ملوك حضرموت عاصروا ملوك قتبان وملوك سبأ. وتألبت حضرموت وسبأ على قتبان فقضتا عليها بإحراق عاصمتهم تمنا فعفت آثارها وذهب ريحها.

وفي سنة 275 ميلادية تمكن الحميريون من إخضاع حضرموت واحتلالها، ومن ثم تسمى ملوك الحميريين بملوك حمير التبابعة وكانوا يطلقون على أنفسهم لقب ملوك سبأ وريدان وحضرموت.

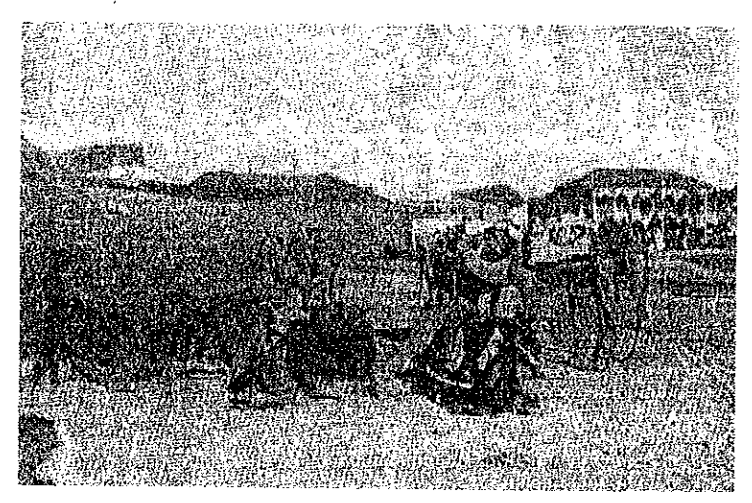
مَدَنيّة عدن:

في خلال حكم السبأيين والحميريين ازدهرت الحياة في عدن وكانت ميناء تجارياً عظيم الأهمية لاستيراد البضائع من الهند وفارس وغيرهما ثم تصريفها إلى الحبشة ومصر والشام وفينيقيا.

وأهم الطرق التجارية البرية كانت طريق صنعاء – مأرب – عدن، وطريق شبوة – عدن، وكانت العطور والبخور والأطياب والبهارات وغيرها تصل على ظهور الجمال إلى عدن إما للاستهلاك المحلي أو للتصدير إلى الخارج.



أدوات مصنوعة من الطين المحروق والزجاج والحجارة والفخار
يرجع تاريخها إلى القرن الثاني الميلادي وجدت في مدينة الشيخ عثمان
(بإذن من المتحف العدني)



بعض الجمال بالقرب من طريق صيرة

والآثار القديمة التي ما زالت موجودة تدل على ما كانت تتمتع به عدن من عظمة ومجد ومدنية زاهرة وحياة رخية. وقد وجدت نقود في كثير من نواحي عدن وبعضها وجدت على عمق عشرين قدماً في وسط عدن، كما اكتشفت في تل الفراشين (طارشين) لوحات رخامية مكتوبة بالخط الحميري المسند. وتعتبر صهاريج عدن مثلاً رائعاً للفن المعماري في تلك العصور.

ذكر الكابتن بليفير في كتابه "تاريخ اليمن أو العربية السعيدة" أن كل نقطة دفاعية وكل قمة جبل في عدن تتوجها بقايا قلعة يعود تاريخها إلى أيام بني حمير. وتمتد طريق قديمة من أسفل جبل العز (جبل شمسان) إلى أعلى قمة فيه تشبه إلى حد كبير الطرق الحربية الرومانية الجبلية. ونقط الدفاع على الشواطئ العدنية تثبت مقدار ما كانت عليه تلك الأعمال الإنشائية من قوة.

اللغة العربية:

كانت اللغة التي يتكلمها المعينيون عامية غير مكتوبة في أول أمرهم ثم اقتبسوا الحروف الأبجدية الفينيقية ثم تطورت هذه الحروف وصارت إلى الحرف الذي نقله السبأيون والأحباش.

واللغة العربية فرع من السامية، وقد تكلم بها قحطان بعد أن استقاها من قبائل العرب القديمة.

وتعتبر جرهم إحدى القبائل العربية البائدة التي كانت تسكن اليمن. ونزح قسم من جرهم إلى الحجاز حيث تعلم منهم لغتهم إسماعيل بن إبراهيم وقومه من العرب المستعربة واقتبسوها.

واللغة العربية فرعان، فرع الحميرية وهي لغة العرب الأصلية وفرع العدنانية الحجازية، ويختلف الفرعان عن بعضهما البعض في النحو والصرف والاشتقاق. وقد جاء حين تمكن فيه الحميريون من فرض أنفسهم وسياستهم وتجارتهم على العدنانيين الحجازيين فاندمج الفريقان وتقارب الفرعان في الألفاظ وفي اللهجة. ثم لما بدأت دولة بني حمير في الضعف برزت لغة العدنانيين الحجازيين المعروفة بلغة قريش. وبانقراض دولة بني حمير اندثرت لغتهم وانتشرت لغة الحجازيين في اليمن نفسها.

أما الكتابة الحميرية فقد كانت بالخط المسند الحميري، وهو منفصل الحروف كما هو موضح فيما يلي:

ا
ب
ت
ث
ج
ح
خ
د
ذ
ر
ز
س
ش
ص
ض
ط
ظ
ع
غ
ف
ق
ك
ل
م
ن
و
ه
ي

وفيما يلي أسماء الأيام والأشهر عند بني حمير كما وجدناها في كتاب تاريخ اليمن للواسعي:

شبار	السبت
أول	الأحد
أهون	الاثنين
جبار	الثلاثاء
دبار	الأربعاء
مونس	الخميس
عروبة	الجمعة
ناجر	صفر
خوان	ربيع أول
بصان	ربيع ثاني
حنتم	جمادى الأولى
رباه	جمادى الثانية
عادل	شعبان
نافق	رمضان
وغل	شوال
هواع	ذو القعدة
برك	ذو الحجة
أصم	رجب
موتمر	محرم

الإمبراطورية الرومانيـــة وجنوب الجزيرة العربية

الغزو الروماني:

اجتذبت أهمية عدن التجارية وعلاقاتها مع الهند ومصر أنظار الرومان الذين كانوا في أوج مجدهم وقوتهم. وكانت رغبة القيصر الروماني أغسطس أن يوسع رقعة ممتلكاته بعد استيلائه على مصر في سنة ثلاثين قبل ميلاد المسيح. وعزم القيصر على غزو الحبشة وبلاد العرب السعيدة فجهز جيشا أسند قيادته إلى "أليوس جالوس" الذي قسم الجيش إلى فريقين، واحد بقيادة "بترونيوس" والثاني بقيادته.

ومن ميناء "كليوباتريس" المجاور للسويس أبحر أليوس جالوس بثمانين سفينة حربية ومئة وثلاثين زورق نقل وجيش يتألف من عشرة آلاف روماني وخمسة عشر ألفا من الجنود المرتزقة.

وانتشر خبر الغزو الروماني في البلاد العربية، وفي عاصمة مملكة العرب النبطيين طلب رئيس الوزراء المسمى ساليوس من ملكه أن يسمح له الخروج بخمسمائة جندي ليضلل الرومانيين في تقدمهم تحت ستار الانضمام إليهم. والتقى ساليوس بجيش أليوس جالوس وقادهم إلى إحدى المدن الموبوءة فأصيب كل فرد في الجيش بتورم في لثته وفخذيه وساقيه. وهذا الوباء ينتج عن تناول اللحم المملوح كما ينتج عن الافتقار إلى الفواكه والخضروات. وتذكر بعض المصادر أن ذلك كان وباء الجدري. واضطر أليوس جالوس إلى التوقف خلال فصلي الصيف والشتاء حتى تم شفاء رجاله ثم سار إلى بلاد الثموديين التي تقع في شمال الحجاز والتي كان الحارث ملكا عليها.

وتأخر تقدم الجيش الروماني مدة من الزمن بفضل تضليل ساليوس ثم سار نحو نجران واحتلها. وبعد ستة أيام من خروجه من نجران وصل إلى شط نهير حيث التقت به جماعات عديدة من العرب فهزمهم بعد أن كبدهم خسائر فادحة.

ثم عبر الرومانيون التهائم واستولوا على عدد من موانئ البحر الأحمر وعدن. إلاّ أن الرومانيين لم يبقوا طويلاً في هذه البلاد، فقد عاد أليوس جالوس إلى بلاده بعد سنتين من خروجه منها وكان قد فقد الجزء الأكبر من جيشه بسبب المرض والجوع والعطش.

وكان يحكم اليمن أثناء الغزو الروماني الملك العبد ذو الاذعار الحميري.

وعرف الرومانيون، وخصوصاً التجار منهم، عدن فأخذوا يفدون إليها ويوطدون أقدامهم فيها وفي بقية موانئ البحر الأحمر.

القيصر كلوديوس:

لما تولى عرش الإمبراطورية الرومانية القيصر كلوديوس أراد أن يحول تجارة الهند إلى الموانئ المصرية رأسا بدلا من مرورها بعدن، ولم تكن أمامه سوى طريقة واحدة لذلك وهي تخريب ميناء عدن.

كان كلوديوس واثقاً من نجاحه في مشروعه لأن البحار اليوناني هيبالوس كان، قبيل عهد كلوديوس، قد اكتشف الطريق البحرية المباشرة من الموانئ الهندية إلى الموانئ المصرية. وأرسل كلوديوس حملة عسكرية تمكنت من تخريب عدن والهبوط بمستوى مينائها العظيم إلى مستوى ضئيل الشأن.

وليس لدينا تاريخ مؤكد يبين لنا السنة التي وقع فيها تخريب عدن إلاّ أن البحار اليوناني المجهول الاسم الذي طاف البحر الأحمر وألف كتابه "ذي بريبلس أوف ذي أريتريان سي" ذكر بأن تلك الحادثة وقعت قبل قيامه بزيارته لعدن بوقت قصير. ولكننا لا نجد تاريخاً مؤكداً يبين لنا متى قام ذلك البحار برحلته. ويضيف البحار بأنه في أثناء زيارته لعدن كان ملكها هو "شاريبايل" كما سماه وربما أن هذا الاسم تحريف لاسم الملك الحميري "شرحبيل" بن العبد ذي الأذغار، وعليه فيمكننا أن نخمن بأن تخريب عدن وزيارة البحار اليوناني لها كانا لاحقين لعهد ذي الأذغار الذي كان يحكم اليمن وقت الغزو الروماني لها بقيادة آليوس جالوس في سنة 30 قبل الميلاد.

وذكر دين فنسنت الذي ترجم كتاب البحار اليوناني بأنه يرى بأن زيارة البحار لعدن وقعت حوالي سنة 64 بعد الميلاد في السنة العاشرة من حكم القيصر الروماني نيرون.

وفي وصفه لعدن قال البحار اليوناني بأن السبأيين في ذلك العصر احتكروا تجارة الهند وأنهم كانوا وسطاء بين تجار الهند وتجار مصر.

ويقول المؤرخ لترون بأن زيارة البحار اليوناني لعدن وقعت في أيام القيصر الروماني سبتيموس أو ابنه سفيروس بين سنة 198 وسنة 210 بعد الميلاد.

القيصر قسطنطين:

في سنة 342 ميلادية أرسل القيصر قسطنطين بعثة برئاسة القس الهندي ثيوفيلس أندس كان الغرض منها التحالف مع بني حمير ضد الفرس وأيضا لتبشير اليمنيين بالدين المسيحي. وبعث القيصر إلى الملك الحميري مرثد بن عبد كلال هدايا ثمينة من بينها مئتا حصان.

واستمر مرثد بن عبد كلال في الحكم من سنة 330 حتى سنة 350 ميلادية. وعرف بتسامحه وبعدم تدخله في الشئون الدينية لرعاياه إذ سمح لهم بحرية العبادة.

وبنى ثيوفيلس أندس عدة كنائس في اليمن ونجران وعدن وغيرها من المدن اليمنية لأجل الرعايا الرومانيين الذين يفدون إلى هذه البلاد ولأجل اليمنيين الذين اعتنقوا الدين المسيحي.

وفي عهد قسطنطين استعادت عدن مجدها وعادت مدينة بحرية زاهرة يسكنها تجار الهند ومصر وأوربا. وكانت ميناؤها تستقبل السفن الكبيرة والصغيرة المحملة بأنواع البضائع من الهند لتشحن إلى الموانئ المصرية. وسمى الرومان عدن "رومانم أمبوريم" — أي "المستودع الروماني". وسماها بتولم "أرابياس أمبوريم" — أي "المستودع العربي".

وكانت الديانة اليهودية قد تغلغلت في اليمن واعتنقها كثيرون وصارت اليمن تضم الوثنية واليهودية والمسيحية.

الملك الحميري ذو الشناتر:

في سنة 460 ميلادية مات الملك حسان ذو الكفن فاستولى على مقاليد الأمور "لختيعة طنوف" الملقب "ذو الشناتر" لأنه كان يلبس أقراطا في أذنيه. ولم يكن لختيعة ينتمي إلى العائلات الملكية أو النبيلة ومع ذلك فقد قضى جزءا كبيراً من سنوات حكمه يسلك مسلكا حببه إلى الناس إلا أنه انقلب بعد ذلك وساء سلوكه، إذ ساورته الظنون بأن نبلاء بني حمير يتآمرون ضده فأباد من استطاع إبادتهم وتفرق الباقون مختفين عن الأنظار. وكان من بينهم شاب وسيم مسترسل الشعر اسمه زرعة ويلقب بذي نواس. ولفظة نواس حميرية معناها "الشعر المسترسل أو الطائر". وقبض العسكر على زرعة وأدخلوه إلى القصر وكان قد أخفى في مكان من جسمه خنجراً صغيرا. وحين رأى لختيعة

وثب عليه وانتزع الخنجر وأغمده في عنقه عدة مرات حتى سقط لختيعة على الأرض قتيلاً. وحين علم الناس بمقتله أقاموا الأفراح وأعلنوا زرعة ملكاً عليهم.

زرعة ذو نواس وأصحاب الأخدود:

تبوأ زرعة ذو نواس عرش اليمن في سنة 490 ميلادية واعتنق الديانة اليهودية بعد زيارة قام بها ليثرب وسمى نفسه يوسف وتعصب لدينه الجديد إلى حد القسوة والجنون الشرس فقد أمر رعاياه بأن يتركوا الوثنية والمسيحية ويستبدلوا بهما اليهودية وقتل كل من رفض الخضوع لذلك الأمر.

كانت قبيلة أبي طالب النجرانية متمسكة بالمسيحية وفشل زرعة في تحويلهم رغم التهديد والوعيد فسار إليهم بجيش كبير للقضاء عليهم، وبعد أن طال حصارهم دون جدوى أرسل إليهم يعدهم بالعفو إن هم سمحوا له بالدخول إلى نجران ففتحوا له ولجيشه أبواب مدنهم.

ولم يكد يدخلها حتى أمر جنوده بنهبها وحرقها ثم خير الأهالي بين اليهودية أو الموت، فاختاروا الموت. وعندئذ أمر بحفر أخاديد كان جنوده يقذفون بالنجرانيين فيها ويحرقونهم أحياء. وكان بين الضحايا زعيم النجرانيين المسيحيين الذي سماه مؤرخو العرب عبد الله بن ثامر وسماه مؤرخو المسيحيين "أريطاس – الحارث – بن كالب" وقد أدرج رجال الكنائس المسيحية اسمه في سجل القديسين المسيحيين.

وفي سورة البروج من القرآن الكريم ذكر الله تعالى قصة هذه الواقعة ليذكر المسلمين الأوائل بالشدائد التي لقيها النجرانيون في سبيل إيمانهم حتى يثبتوا هم على إيمانهم أمام قريش:-

"قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود".

الاحتلال الحبشي لليمن

القيصر جستين الأول:

ذكر مؤرخو اليونان وسوريا أن القيصر جستين الأول أرسل بعثة برئاسة القس إبراهيم بن يفراسيوس إلى المنذر ملك الحيرة بالعراق ينصحه بان يسعى للخلاص من الاستعمار الفارسي والتحالف معه ضدهم .. وعلى مقربة من مقر المنذر علم القس بوصول رسول من ملك اليمن الحميري زرعة ذي نواس ليشرح للمنذر ما أوقعه بالمسيحيين النجرانيين ويشير عليه بأن يفعل بمسيحيي الحيرة ما فعله هو بأهالي نجران.

وأسرع القس بالكتابة إلى جستين الأول موضحاً ما عمله ذو نواس ومطالباً القيصر بأن يثأر لإخوانهم في الدين لينقذوا المسيحية في اليمن.

ويذكر مؤرخو العرب أن "دوس ذا ثعلبان" النجراني تمكن من الهرب والسفر إلى القسطنطينية حيث قابل القيصر ووصف له حوادث إبادة المسيحيين في نجران، فأظهر القيصر عطفه على النجرانيين إلا أن المسافة البعيدة والأحوال السياسية في بلدانه منعته من التجهيز إلى اليمن،لكنه كتب رسالة إلى نجاشي الحبشة المسيحي "كالب" يطلب منه إرسال جيش ضخم إلى اليمن لحماية المسيحيين من سطوة ذي نواس وجبروته.

الغزو الحبشي:

أمر نجاشي الحبشة ببناء سبع مئة سفينة صغيرة، وبعث إليه القيصر جستين الأول بعدد من السفن الكبيرة من الموانئ المصرية .. وحمل هذا الأسطول ستين ألف مقاتل حبشي بجميع معداتهم ودوابهم برئاسة القائد "إرياط".

ولما علم ذو نواس بالحملة الحبشية أمر جميع الأذواء والأقيال الذي يحكمون مناطقهم مستقلين بأن يؤازروه ويبعثوا إليه بالنجدات لصد الغزاة الأحباش، ولكن أولئك الحكام رفضوا الانصياع لأوامره وأكدوا له أنهم سوف يرابطون في مدنهم للدفاع عنها. وكان ذلك التفكك والتخاذل وبالاً على اليمن.

وهبط الجيش الحبشي في السواحل اليمنية فوقعت بين الفريقين عدة معارك عنيفة انتهت بهزيمة ذي نواس وتشتيت جيشه. وبلغ به اليأس حداً جعله يقذف بنفسه إلى البحر وهو راكب حصانه، فمات غرقاً في سنة 525 ميلادية.

وتم للأحباش الاستيلاء على اليمن وعدن ووضعوا حدا لدولة بني حمير التي حكمت حوالي ألف سنة.

وكان الاستعمار الحبشي من أسوأ ما عرف تاريخ اليمن من حكم حتى ذلك الحين. تقول بعض المصادر التاريخية إن نجاشي الحبشة كالب أمر قائده إرياط بأن يخرب ثلث اليمن ويقتل ثلث الرجال ويرسل بثلث النساء سبايا إلى الحبشة ففعل إرياط ما أشار به عليه ملكه.

بين إرياط وأبرهة الأشرم:

وفي خلال حكمه الذي استمر من سنة 525م حتى سنة 537م أساء إرياط معاملة ضباط جيشه فجعلهم يتآمرون عليه .. وكان بين المتآمرين "أبرهة" الذي كان عبداً رقيقاً لتاجرٍ روماني ثم انضم إلى الجيش الحبشي وترقى حتى صار قائداً. ولما كان مشهورا بالشجاعة والعزم وسعة الحيلة فقد نصبه المتآمرون رئيساً عليهم .. وعلم إرياط بالتآمر عليه فسار نحو مقر المتآمرين مع من بقي مخلصا من رجال الجيش .. وحين تقابل الفريقان اقترح أبرهة أن يتبارز القائدان فقبل إرياط.

ووقعت المبارزة وتمكن إرياط من ضرب خصمه بالسيف في وجهه فقطع جزءاً من أنفه. ولهذا سماه الناس "أبرهة الأشرم".

وتهيأ إرياط لقتل خصمه لكن عبد أبرهة طعنه من الخلف فسقط إرياط قتيلا.

وانفرد أبرهة بالحكم ونصب نفسه قائداً عاماً ومندوباً عن ملكه نجاشي الحبشة.

ولم يغير أبرهة نظام الحكم بل اتبع سياسة إرياط في الضغط والتشديد على أهل اليمن. وكان من بين عمله أنه سبى السيدة ريحانة ـ زوجة أبي مرة سيف ابن ذي يزن ـ فولدت له ابناً سماه "مسروق" وبنتاً سماها "بسباسة" وكان لأبرهة من زوجة حبشية ولدان هما "أمود" و"يكسوم".

وفي عهد أبرهة انتعشت المسيحية في اليمن، وأرسلت كنيسة الإسكندرية بالقس جريجنتيوس إلى اليمن فسكن ظفار وشرع القوانين وتسامح مع اليهود ودعا الوثنيين إلى مناقشته في الشئون الدينية.

كنسية صنعاء والكعبة :

بنى أبرهة كنيسة في صنعاء كانت تحفة فنية رائعة، ووضع أمام المذبح جوهرة كانت تضيء الكنيسة في الليالي المظلمة.

وكان أبرهة يتمزق غيظاً وحنقاً كلما رأى عرب الجاهلية يجعلون من الكعبة قبلتهم المقدسة ويحجون إلى مكة لزيارتها وعبادة أصنامها، فأراد أن يصرف العرب عنها ويوجههم نحو كنيسة صنعاء، كما أنه أراد بذلك أن يحول تجارة مكة الزاهرة إلى اليمن، لكنه لم ينجح في صرف العرب عن كعبتهم بالرغم من استعماله الترغيب والترهيب.

وأرسل أبرهة إلى نجد والحجاز لدعوة العرب إلى زيارة كنيسة صنعاء، وكتب إلى نجاشي الحبشة يذكر له عزمه على إجبار العرب على ترك دينهم والتخلي عن الكعبة والتحول إلى المسيحية وإلى كنيسة صنعاء .. وانتشر الخبر في كل مكان في البلاد العربية. وغضب العرب وعلى الأخص القرشيون في مكة.

أصحاب الفيل :

ثارت ثائرة أبرهة من تصميم العرب وأقسم بأن يخرب مكة ويهدم الكعبة، فجمع أربعين ألف مقاتل قادهم بنفسه راكباً فيلاً أبيض ضخماً تصحبه ثلاثة عشر فيلاً أخرى لإرهاب العرب بها.

واكتسح الأحباش التهائم وفتكوا بأهلها لما رفضوا أن ينصرفوا عن دينهم ويعتنقوا المسيحية.

ولما وصل الجيش الزاحف إلى مشارف الطائف نهب جميع المواشي ومن بينها مئتا رأس من الإبل لعبد المطلب بن هاشم زعيم قريش وسادن الكعبة .. وطلب عبد المطلب مقابلة أبرهة فاستقبله بترحاب ظناً منه أنه ما أراد مقابلته إلا ليقدم له فروض الطاعة وليسلم له مكة، ولكنه دهش حين طلب منه أن يعيد إليه الإبل، فقال له أبرهة: "لماذا تتقدم بهذا الرجاء الضئيل الشأن ولا تطلب مني عدم التعرض للكعبة؟".

فأجابه عبد المطلب "إنني أنا رب الإبل ليس لها من يحميها غيري، أما الكعبة فلها رب يحميها".

وأمر أبرهة بإعادة الإبل إلى صاحبها، ثم أعد الجيش للهجوم على مكة، فالتجأ القرشيون وبقية أهل مكة إلى الجبال المحيطة بمكة وحصونها.

ولما اقترب الجيش الحبشي من أبواب مكة تقدم أبرهة على فيله الأبيض وأشار باقتحام الأبواب.

يقول مؤرخو المسلمين: إن الفيل وبقية الأفيال رفضت أن تتقدم، فغضب أبرهة وأمر الجنود بتحطيم الأبواب، وعندئذ أظلمت السماء وانتشرت في الجو أسراب عديدة من الطيور الأبابيل تحمل كل واحدة منها ثلاث حصوات في حجم حبة العدس وواحدة في المنقار، وحلقت الطيور فوق الأحباش وقذفتهم بالحصى فكانت تسقط على الجنود بقوة وعنف محطمة ملابس الجنود وخوذاتهم الحديدية ومنكلة بهم تنكيلا، فتساقط ألوف منهم صرعى وقذفتهم رمال الصحراء. ونجا أبرهة وعدد ضئيل من رجاله عادوا إلى صنعاء وقد حطمت الهزيمة أعصابهم:

((ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول)).

وسمى العرب تلك السنة "عام الفيل" وفيها ولد رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول المؤرخون المسيحيون إن الجيش الحبشي لم يحطمه إلا وباء الجدري، وقال آخرون إنهم ماتوا من قلة الطعام. وقال بعضهم إن العرب انتظروا في الجبال والحصون الواقعة في الطريق إلى مكة فلما اقترب الأحباش أسقطوا عليهم الحجارة الضخمة وأبادوهم. وأقر آخرون بأن الطيور قذفت على الأحباش حصوات صغيرة تحمل جراثيم الجدري، أو ذرات من الطاقة الشمسية كانت تفتت الأحباش تفتيتاً. ومات أبرهة بعد عودته إلى صنعاء بقليل.

أبناء أبرهة الأشرم:

ذكرنا أن أبرهة الأشرم كان له ثلاثة أبناء ذكور، هم: "أمودا" الذي مات في حياة والده، و"يكسوم"، ومسروق" .. فلما مات أبرهة خلفه "يكسوم الذي سماه مؤرخو اليونان "سرديوس" ووصفوه بأنه كان حاكماً عادلاً صالحاً. وقال عنه مؤرخو العرب: إنه كان قاسياً ظالماً وإن حكمه تميز بقتل الرجال وسبي النساء واستعباد الأطفال مما حدا بكثير من اليمنيين إلى الهجرة إلى الحجاز والالتجاء إلى قريش الذين كانوا قد اكتسبوا شهرة واسعة ونفوذاً عظيماً بعد معركة الفيل.

ومات يكسوم في سنة 572م فخلفه أخوه مسروق الذي كان أعتى وأقسى وأكثر تعسفاً من أبيه وأخيه .. وفي أيامه بدأ اليمنيون ينتفضون ويحسون بوطأة الاستعمار الحبشي والإهانات المتكررة التي لحقت بهم. وكان مسروق آخر ملوك الأحباش في اليمن.

سيف بن ذي يزن:

كانت تلك السنوات الطويلة المليئة بالشدائد حافزة لنبلاء بني حمير وكبار رجالهم إلى التكتل والتآمر على تلك الأوضاع الشاذة التي جعلت من اليمن سجناً كبيراً، فأجمعوا على اختيار أحد أقطابهم البارزين وهو أبو مرة سيف بن ذي يزن الحميري، وجمعوا له الأموال وهيأوا سبيل الخروج من اليمن ليتصل بأية دولة ترغب في نصرتهم.

وصل سيف بن ذي يزن إلى القسطنطينية وشرح للقيصر جستين ما حل باليمن وبمواطنيه من ضغط وقتل واستعباد، وطلب منه إمداده بجيش يسير به إلى اليمن ليخلص بلاده من الأحباش.

فقال له قيصر: "إن دينك اليهودية أما ديني ودين الأحباش فالمسيحية، ولذلك فلا يمكنني أن أساعدكم على الإضرار بإخوتي في الدين".

ورحل سيف بن ذي يزن إلى الحيرة والعراق وقابل ملكها النعمان بن المنذر الذي عطف عليه وعرض أن يرافقه إلى ملك الفرس كسرى أنو شروان.

الاحتلال الفارسي لليمن

في بلاط كسرى أنو شروان:

في سنة 574م وصل سيف بن ذي يزن يصحبه النعمان بن المنذر ملك الحيرة إلى بلاط كسرى أنو شروان ملك فارس .. وشرح سيف للملك الفارسي الأحوال في بلاده وطلب منه أن يمده بجيش ينهي به الاستعمار الحبشي لليمن.

ولم يقابل كسرى ذلك الطلب باهتمام، فقد رأى أن المسافة بين بلاده واليمن طويلة بعيدة وان لا فائدة سوف تعود على الفرس من تلك المغامرة.

وأراد كسرى أن يخفف وطأة الرفض على سيف بن ذي يزن فقدم له عدة هدايا نفيسة من بينها ستة آلاف درهم من الفضة .. وحين علم كسرى بأن سيف قد وزع الهدايا على حاشية القصر استدعاه وطلب منه تفسيراً عن عمله، فأجابه سيف حزيناً: "إن معادن الذهب والفضة في اليمن كثيرة وكل جبل يحتوي على كميات ضخمة من هذين المعدنين، وما جئت إلى هنا طالباً مالاً بل ناشداً معونة وعدلاً".

الجيش الفارسي:

بعد أيام وافق كسرى على تجهيز جيش من نزلاء السجون يبلغون ثلاثة آلاف وست مئة من عتاه المجرمين. وأسند كسرى قيادة الجيش إلى وهراز الديلمي الذي كان أحد المسجونين إلاّ أنه كان يمتاز عليهم بكرم المنبت وسلامة التفكير والتعليم والإقدام.

وقال كسرى لوهراز: "إنني أبعث بكم إلى اليمن للاستيلاء عليها من الأحباش فإن نجحتم في مهمتكم فستضمون مملكة إلى ممتلكاتي وإن عجزتم فستلاقون مصيركم العادل كمذنبين".

الجيش الفارسي في عدن:

رحل الجيش الفارسي في ثمان سفن لم تصل منها إلاّ ست. وكان لنبأ قدوم الفرس وسيف بن ذي يزن إلى عدن رنة فرح عمت كل أنحاء اليمن.

وطاف سيف بالمناطق المجاورة لعدن فاجتمع له عشرون ألف مقاتل ضمهم إلى جيش وهراز.

ولما وصلت الأنباء إلى "مسروق" بن أبرهة، جمع مائة وعشرين ألف مقاتل تقدم بهم لمقابلة الجيش الزاحف.

ووقعت بين الفريقين مناوشات قتل فيها "يودار" ابن وهراز فحزن عليه وأقسم على الانتقام له.

ولما تقابل الجيشان وبدأ الاشتباك طلب وهراز من رجاله أن يدلوه على مسروق، فلما أشاروا إليه رآه لابساً التاج تتلألأ جوهرة ضخمة فوق جبهته، ورآه راكباً فيلاً كبيراً، ثم رآه يهبط منه ليمتطي جملاً ثم حصاناً ثم بغلاً.

وقال وهراز لأصحابه: "إن هذا دليل على أفول نجمه، سأسدد سهمي نحوه فإن رأيتم المحيطين به صامدين فاعلموا أنني لم أصبه، وإن رأيتموهم قد تفرقوا فاعلموا أنني قد أرديته قتيلاً، وعليكم عندئذ أن تشددوا الهجوم على جنوده.

وأصاب السهم جوهرة مسروق واخترق الجبهة واستقر في رأسه فهوى مسروق من عليائه يتخبط بدمائه. واختلط الحابل بالنابل وفقد قواد الأحباش سيطرتهم على جنودهم، فشدد الفرس وبنو حمير هجومهم فكانت مذبحة قتل فيها عشرات الألوف من الأحباش.

ومن ثم انفتحت الطريق أمام الفاتحين، ودخل وهراز صنعاء في أبهة عظيمة. وكان ذلك في سنة 575م.

وكتب وهراز إلى كسرى أنو شروان يبشره بالفتح وبالقضاء على الأحباش، فرد عليه كسرى طالباً منه أن يسلم مقاليد الأمور لبني حمير ويعود هو إلى بلاده. وترك وهراز قوة من الجنود الفرس في اليمن ورحل عائداً إلى فارس.

معدي كرب:

ذكر بعض المؤرخين أن الشخص الذي رافق وهراز لم يكن سيف بن ذي يزن بل كان معدي كرب لأن سيف مات في فارس قبل رحيل الجيش فخلفه في الإمارة معدي كرب.

لكن المؤرخ أبو الفداء ذكر أن سيف بن ذي يزن لم يمت في فارس بل كان هو الذي رافق الحملة الفارسية. ويؤكد المسعودي أن معدي كرب هو الذي خلف سيف.

وذاب الأحباش وتشتت شملهم ولم يبق منهم غير قليل فقد دأب أمراء بني حمير على القضاء عليهم واستعبادهم، لكن معدي كرب غيّر سياسته فجأة

وأخذ يستميلهم إليه ويحيط نفسه بحاشية وحرس منهم يرافقونه كلما خرج من القصر. وفي ذات يوم كان معدي كرب في ضواحي صنعاء فانقضوا عليه وقتلوه ثم فروا إلى الجبال .. وأسرع أحد قوادهم القدامى بالقبض على أزمة الأمور. وفي غمرة الدهشة التي أصابت الناس سيطر القائد الحبشي على كثير من نواحي اليمن، فوقعت البلاد في فوضى عنيفة جعلت النهب والقتل من الأمور اليومية العادية. واستمرت الأحوال مضطربة بين الحكام الفرس والأحباش، ولم يحاول اليمنيون التدخل بين الفريقين نظراً لطول خبرتهم بأساليب الاستعمار.

كسرى برويز:

توفي كسرى أنو شروان في سنة 579م وخلفه في الحكم كسرى برويز. وفي سنة 595م أرسل كسرى برويز أربعة آلاف جندي بقيادة وهراز الديلمي فتمكن من السيطرة الكاملة على البلاد اليمنية وإعادتها إلى حظيرة المملكة الفارسية.

الإسلام في جنوب الجزيرة العربية

يبدأ تاريخ الإسلام من أول يوم هاجر فيه رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وهو اليوم الموافق لتاريخ 16 يوليو سنة 622 ميلادية.

الأبناء في اليمن:

كان الفرس قد سحقوا الأحباش سحقاً في جنوب الجزيرة العربية، ولما كان أغلب الجنود الفرس قد قطعوا الأمل في العودة إلى بلادهم فارس فقد اندمجوا في الحياة اليمنية. وذكر المؤرخ بن اسحق أن أولئك الجنود الفرس تزوجوا يمنيات ومنهم ظهر الجنس المختلط من الفرس والعرب والذي عرف باسم "الأبناء" الذين حكموا اليمن فيما بعد. ومن المهم أن نذكر أن آثار الأبناء ما زالت باقية إلى يومنا هذا في اليمن، ففي وادي السر الذي يقع على بعد خمسة وعشرين ميلاً شرقي صنعاء توجد مجموعة من الفرس تسمى "الأبناء" وأكبرها تسمى "الفرس".

وبعد وفاة وهراز ودفنه في صنعاء تولى الحكم قواد من الفرس و"أبناء" كان آخرهم "باذان".

الدعوة الإسلامية:

لما بعث رسول الله وفوده إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام غضب كسرى برويز وأرسل إلى باذان يأمر بأن يأتيه برأس "ذلك الأعرابي" كما وصفه. لكن باذان أعلن إيمانه بالدعوة الإسلامية فأقره الرسول في الحكم واستمر باذان يحكم حتى وفاته في سنة 632 ميلادية. وعندئذ أمر الرسول بأن يكون ابنه حاكماً لأجزاء من اليمن وقسم بقية اليمن وحضرموت بين أربعة من الأنصار، هم:

أبان بن سعيد بن العاص : صنعاء وأعمالها.
معاذ بن جبل : الجند وأعمالها.
زياد بن لبيد الأنصاري : حضرموت وأعمالها.
المهاجر ابن أمية المخزومي : كندة وأعمالها.

ولما توفى رسول الله اختلت الأمور في اليمن وحضرموت وبقية أنحاء جنوب الجزيرة العربية وكثر فيها المرتدون والمانعون أداء الزكاة، فبعث إليهم الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجيوش قادها المهاجر بن أمية وعكرمة بن أبي جهل أعادتهم إلى حظيرة الإسلام.

وفي طريق عودته إلى مكة مر عكرمة بعدن التي كانت وكراً للمتآمرين الذين كانوا يحرضون بني حمير على الثورة على الإسلام وإعلان العصيان على الخليفة. ولما علم المتآمرون بقدومه فروا من البلاد فانضوت عدن تحت لواء الإسلام.

وفي أيام الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما انتشر العدل والأمان في ربوع جنوب الجزيرة العربية واشترك عدد كبير من أهل اليمن وحضرموت في حرب الروم وحرب الفرس وكانت لهم مواقف مشهودة في المواقع الحربية وأيضاً في فتح مصر.

وبدأ التصدع في صفوف المسلمين بعد وفاة الثلاثة الخلفاء بقيام معاوية بن أبي سفيان بمنازعة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. واشترك اليمنيون والحضارم مع الإمام علي وأيدوه.

وفي عهد الإمام علي كان عامله على صنعاء عبيد الله بن عباس. ولما اشتد النزاع بين الإمام علي ومعاوية غادر عبيد الله اليمن ليشترك مع جيش الإمام واستخلف على اليمن عمر بن أراكة الثقفي فأرسل معاوية جيشاً بقيادة يسر ابن أرطأة تمكن من احتلالها وقتل عمر.

ولما علم الإمام علي بما حدث أرسل جيشاً بقيادة حارثة بن قدامة السعدي فاستولى على البلاد وهرب يسر بن أرطأة.

ويقول مصدر تاريخي: إن الإمام علي قدم إلى اليمن وزار عدداً من مدنها ليعلم الناس الدين.

وتروي حكاية بأن الإمام علي قدم إلى عدن، ولكن هذه الحكاية لا يؤيدها مصدر تاريخي موثوق به.

دولة بني أمية :

بعد وفاة الإمام علي وقيام معاوية بن أبي سفيان بدأ حكم بني أمية الذين استمر عهدهم من سنة 40 إلى سنة 132هـ (659/749) وكان آخر ملوكهم

مروان بن محمد، وفي عهده ثار حاكم حضرموت عبد الله بن يحيى الكندي واستولى على حضرموت واليمن وأزاح الحكم الأموي منهما.

ومن ملوك بني أمية: عمر بن عبد العزيز الذي اشتهر بالعدل والإحسان وهو الذي بنى المسجد الجامع الكبير في مدينة عدن الذي ما زالت منارته قائمة إلى اليوم تجاه ميدان كرة القدم.

وفي أيام بني أمية: زار عدن الشاعر المشهور عمر بن أبي ربيعه. فقد جاء في الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أن الحارث بن أبي ربيعة كان ينهى أخاه عمر عن قول الشعر فيأبى أن يقبل منه فأعطاه ألف دينار على ألا يقول شعراً، فأخذ المال وخرج إلى أخواله بلحج وأبين مخافة أن يهيجه مقامه بمكة على قول الشعر، فطرب يوماً فقال:

هيهات من أمة الوهاب منزلنا	إذا حللنا بسيف البحر من عدن
واحتل أهلك "أجياداً" وليس لنا	إلا التذكر أو حظ من الحزن
لو أنها أبصرت بالجزع عبرته	من أن يغرد قمري على فنن
إذا رأت غير ما ظنت بصاحبها	وأيقنت أن لحجاً ليس من وطني
ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها	وموقفي وكلانا ثم ذو شجن
وقولها للثريا وهي باكية	والدمع منها على الخدين ذو سنن
بالله قولي له في غير معتبة	ماذا أردت بطول المكث في اليمن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها	فما أخذت بترك الحج من ثمن

وفي أيام الأمويين قدم إلى عدن أبان بن عفان بن الحكم بن عثمان بن عفان رضي الله عنهم وبنى مسجده المعروف والقائم إلى يومنا هذا في شارع أبان. وقد توفي بالمدينة المنورة سنة 105هـ بعد أن خلف ولدين، هما الحكم وكثير. وكان الحكم قاضياً في عدن قال عنه البهاء الجندي إنه كان فقيهاً مشهوراً من فقهاء التابعين. وخلف الحكم ابنه إبراهيم الذي اشتهر باسم العدني. وقد برع إبراهيم في العلوم الشرعية إلى حد أن الإمام أحمد بن حنبل قدم إلى عدن ليأخذ عنه العلم.

دولة بني العباس:

بانتهاء الحكم الأموي في سنة 132هـ (749م) بدأ الحكم العباسي برئاسة أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس المشهور بالسفاح. وقد ولى السفاح عمه داود بن علي عاملاً على الحجاز واليمن وجعل صنعاء مركزاً له. ولما توفاه الله عين محمد بن يزيد الحارثي وعين أخاه نائباً في عدن.

ولما مات السفاح تولى الحكم أخوه المنصور الذي عين معن بن زائدة الشيباني عاملاً على اليمن وأخاه عاملاً على حضرموت.

وكان عامل حضرموت شريراً سفاكاً للدماء فلم يمهله الحضارمة بل قتلوه في تريم. وحينئذ أقبل معن على حضرموت بجيش وغزاها وقتل ألوفاً من أهلها يقال إنهم بلغوا خمسة عشر ألف نفس، وهو الذي أجبر الناس على لبس السواد، شعار بني العباس. ولما عاد معن إلى اليمن أبقى ابنه زائدة عاملاً على حضرموت.

وفي عهد المأمون بن هارون الرشيد اختلت أحوال جنوب الجزيرة العربية وانتشرت فيها الاضطرابات وعمت الفوضى، فأرسل المأمون بالأمير محمد بن عبدالله بن زياد على رأس جيش ليعيد الأمور إلى نصابها، فتمكن ابن زياد من السيطرة على البلاد بعد حروب عنيفة واحتل التهائم اليمنية في سنة 203 (818م)، ولكن الأمور بقيت غير مستقرة وخاصة في أجزاء من التهائم وفي عدن ولحج وأبين الشحر وحضرموت التي انفصلت عن بقية اليمن واستقل بها بنو أبي العلاء.

وفي سنة 206 هـ (821م) أرسل المأمون جيشاً مكوناً من ألف فارس بقيادة جعفر مولى ابن زياد، فاستطاع أن يخضع المناطق الممتنعة من جنوب الجزيرة العربية.

دولة بني زياد

بنو أبي العلاء:

اختلت أحوال اليمن وعمت الفوضى وانتشرت الاضطرابات فيها، فأرسل الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد بالأمير محمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن زياد على رأس جيش إلى اليمن ليعيد الأمور إلى نصابها، فتمكن ابن زياد من السيطرة على البلاد اليمنية بعد حروب عنيفة، واحتل التهائم اليمنية في سنة 203هـ الموافقة 818م.

لكن الأمور بقيت غير مستقرة تماماً وخاصة في أجزاء من التهائم وفي عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت التي انفصلت عن بقية اليمن واستقل بها بنو أبي العلاء.

وفي سنة 206 هـ (821م) بعث المأمون بجيش من ألف فارس بقيادة جعفر، مولى ابن زياد، فتمكن من إخضاع المناطق الممتنعة، وصارت اليمن تابعة لبني العباس ونوابهم بني زياد.

بنو زياد:

قويت شوكة الأمير محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن زياد وصار الملك الفعلي، إلا أنه استمر على ولائه لبني العباس. واختط ابن زياد مدينة زبيد وجعلها عاصمة لملكه.

واستمر خلفاؤه من بعده إبراهيم بن محمد وزياد بن إبراهيم ثم أخوه أبو الجيش إسحاق على ولائهم لبني العباس.

وفي أواخر أيام أبي الجيش إسحاق، وكان قد بلغ الثمانين من العمر، استقل الحكام بالمناطق التي تحت سيطرتهم، ومن أولئك ملك صنعاء أسعد بن يعفور الحميري والإمام الهادي يحيى بن الحسين الرسي في صعدة.

وفي سنة 391 هـ (1000م) توفي أبو الجيش إسحاق وخلفه ابنه الصغير عبد الله الذي تولت كفالته أخته هند بنت أبي الجيش إسحاق، وتولى رعايته رشيد الذي كان عبداً لأبيهما. ولما توفي رشيد تولى الرعاية الحسين بن سلامة الذي كان عبداً لرشيد.

الحسين بن سلامة:

كان الحسين بن سلامة وفياً لبني زياد، وكان عفيفاً ذكياً حازماً، حاز من الثقافة والشجاعة والكرم وحسن التدبير ما جعله يسيطر على شئون الحكم.

جمع الحسين بن سلامة الجموع ورتب الأمور ترتيباً حكيماً، ثم أعلنها حرباً لا هوادة فيها على الملوك والحكام الذين استقلوا بالمناطق الخاضعة لهم وجعلوا من اليمن عدة أجزاء متناثرة لا رابط بينهما .. وبالقضاء عليهم استطاع الحسين ابن سلامة أن يعيد توحيد اليمن.

واشتهر الحسين بن سلامة بالعدل والرحمة والعطف على الرعايا، وكان على ما يقال، مقتدياً في تصرفاته بثامن الخلفاء عمر بن عبد العزيز الأموي.

وبنى الحسين بن سلامة الجوامع ذات المنابر العالية، وحفر الآبار في طول البلاد وعرضها، وجدد المسجد الجامع الذي بناه في عدن عمر بن عبد العزيز.

وفي سنة 408 هـ (1017م) توفي الحسين بن سلامة بعد حكم دام ثلاثين عاماً.

نفيس ونجاح:

انتقل الأمر إلى طفل آخر من بني زياد اسمه عبد الله ـ ويقال إبراهيم ـ وكفلته عمته، ورعاه مرجان الذي كان عبداً للحسين بن سلامة. وكان لمرجان عبدان حبشيان فحلان هما نفيس ونجاح. وكان نفيس يتولى التدبير بالحضرة ـ وهي الوظيفة التي يقابلها منصب رئيس الديوان في الدولة ـ أما نجاح فكان إداريا وسياسيا وعسكريا اشتهر بالعدل والصلاح كما عرف نفيس بالقسوة والصلابة.

انقراض دولة بني زياد:

تنافس نفيس ونجاح على الحكم، وكان سيدهما مرجان يميل إلى نفيس. وعلم نفيس أن سيده الصبي وعمته يميلان إلى نجاح ويكاتبانه سرا، فشكا نفيس إلى مرجان الذي قبض عليهما وسلمهما لنفيس الذي أمر بتقييدهما، ثم بنى عليهما جدارا وهما واقفان يناشدانه الله حتى ختمه عليهما فدفنهما حيين.

وبوفاة الصبي وعمته انقرضت دولة بني زياد بعد أن بقيت في الحكم مئتين وثلاث سنين.

واستبد نفيس بالأمر. ولما علم نجاح بالنتيجة الرهيبة التي انتهى إليها آخر ملوك بني زياد وعمته واستيلاء نفيس على الدولة، تملكه الغضب وجهز جيشاً من تهامة تقدم به نحو مقر نفيس.

وجرت بين الفريقين معارك متعددة انتهت بقتل نفيس عند أبواب مدينة زبيد مع خمسة آلاف مقاتل من رجاله .. وفتح نجاح زبيد في ذي القعدة سنة 412هـ (1021م).

ذكر المؤرخ نجم الدين عمارة الحكمي أن نجاح بعد انتصاره استفسر من مرجان عن مصير الصبي وعمته، فأشار مرجان إلى الجدار وقال "هما هناك". فأخرج نجاح جثتيهما وصلى عليهما وبنى لهما مشهداً.

دولة بني معن:

في معترك الحوادث استقلت عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت في سنة 410 هـ (1019م) تحت حكم بني معن.

ويذكر ابن خلدون أن بني معن أسسوا دولتهم في عدن منذ أيام الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد، وأنهم من بني معن بن زائدة الشيباني. ولكن نجم الدين عمارة ينفي ذلك النسب.

اليمن وعدن بين دولة بني نجاح ودولة بني الصليحي

دولة العبيد:

تملك نجاح التهائم اليمنية وقهر أهل الجبال فاستتب له الأمر في سنة 412هـ (1021م)، وبذلك بدأت دولة العبيد في اليمن. فقد كان رشيد عبداً لأبي الجيش إسحاق بن إبراهيم بن زياد، وكان الحسين بن سلامة عبداً لرشيد، وكان مرجان عبداً للحسين بن سلامة، وكان نفيس ونجاح عبدين لمرجان.

وكان لنجاح أربعة أبناء صار اثنان منهما ملكين، ثم ورث الحكم أبناء أحدهما حتى سنة 554هـ (1158م).

علي بن محمد الصليحي:

كان القاضي محمد بن الصليحي سني المذهب، وكان عالماً مبرزاً متفوقاً وله ابن اسمه علي.

وكان عامر بن عبد الله الزواحي من علماء المذهب الشيعي الإسماعيلي الفاطمي المعروف بالمذهب الباطني، وهو المذهب الذي اعتنقه الخلفاء الفاطميون في مصر. وكان عامر معجباً بعلي بن القاضي محمد بن علي الصليحي لنبوغه وذكائه، فعزم على أن يدخره للدعوة الفاطمية رغم أنه كان سني المذهب كوالده.

وازداد عامر تقرباً من الأب وابنه حتى تمكن من استمالة الشاب واستطاع أن يغرس فيه محبة الدعوة الفاطمية. ومن مكتبة عامر ومؤلفاته استقى علي بن محمد بن علي الصليحي أصول المذهب حتى صار عالماً متفقهاً فيه ومستبصراً في علم التأويل.

وفي سنة 429 هـ (1037م) بدأ علي بن محمد الصليحي يجهر بالدعوة الفاطمية في حراز وتزوج ابنة عمه السيدة أسماء بنت شهاب التي اشتهرت بالجمال والعلم والأدب والعقل والكرم، وولدت له ابنه المكرم أحمد الذي تزوج السيدة الحرة الملكة أروى بنت أحمد الصليحي، التي اشتهرت ببلقيس الصغرى.

بين نجاح والصليحي:

كان نجاح يخشى الصليحي وازدياد سلطته، فدأب على ملاطفته ومجاملته بينما كان الصليحي يعمل سرا على القضاء على نجاح ودولته.

وفي عام 452هـ (1059م) مات نجاح، وقيل إن الجارية الحسناء التي أهداها إليه الصليحي دست له السم في طعامه.

وبعد مقتل نجاح هرب أبناؤه إلى جزيرة "دهلك" الواقعة تجاه الساحل الصومالي في البحر الأحمر.

الصليحي وخلفاء الفاطميين في القاهرة:

في تلك السنة (452هـ) كتب علي بن محمد بن الصليحي إلى المستنصر بالله معد بن الطاهر العبيدي الفاطمي بالقاهرة يطلب منه الإذن له بنشر الدعوة الفاطمية الإسماعيلية باليمن، فلما جاءه الإذن نشط الصليحي وجمع حوله الأنصار من حراز وهمدان وفتح الحصون والتهائم. ولم تنته سنة 455هـ (1062م) حتى كان قد بسط سلطانه على كل أنحاء اليمن ووحدها.

وفي نفس السنة جعل عاصمتها صنعاء وأخذ معه الملوك والحكام الذين أزال ملكهم وعين غيرهم في المناطق التي كانوا يحكمونها.

بنو معن في عدن:

كان الصليحي قد زار عدن في سنة 440هـ (1084م) ولم يتعرض لملوكها بني معن بل أقرهم بعد أن وعدوا بالولاء لبني الصليحي. ولما أخذ الصليحي الملوك معه إلى صنعاء أبقى بني معن في عدن، فاستمروا ملوكاً عليها وعلى لحج وأبين والشحر وحضرموت.

عودة بني نجاح:

استمر بنو نجاح لاجئين في جزيرة "دهلك"، وعكف أبو الطامي جياش بن نجاح على العلم حتى برع فيه. أما أخوه سعيد الأحول بن نجاح فقد تنكر ورحل إلى زبيد واختفى في بيت "ملاعب الخولاني" الذي كان نصيراً مخلصاً لبني نجاح، وبقي سعيد الأحول يفكر ويدبر ويضع الخطط ويكاتب أنصار بني

نجاح... وبعد حين كتب إلى أخيه جياش يأمره بالقدوم إلى زبيد ويبشره بالقضاء على بني الصليحي.

ولما أقبل جياش خرج الشقيقان مع سبعين من أنصارهما لا يحملون سوى مسامير مركبة في الجريد. وانتشر خبر ظهور سعيد الأحول بن نجاح في جميع أنحاء اليمن.

مقتل الصليحي:

أما الداعي علي بن محمد بن علي الصليحي فقد عزم على أداء فريضة الحج في سنة 473 هـ (1080م) تصحبه زوجته السيدة أسماء بنت شهاب والملوك الذين انتزع ملكهم. وكان يرافقهم علي بن معن ملك عدن.

وبينما الجميع في الدهيم لم يشعروا إلا وقد هاجمتهم أنصار بني نجاح وألوف من العبيد الذين انقلبوا على بني الصليحي ووجدوا في قيام بني نجاح تحرير الهم من العبودية. ووقعت معركة عنيفة قتل فيها الداعي المعظم علي بن محمد بن علي الصليحي وأخوه عبد الله، فقطع سعيد الأحول رأسيهما وعلقهما في الهودج الذي كانت تجلس فيه السيدة أسماء التي أخذها سعيد الأحول أسيرة وأسكنها في (دار مشحار) في زبيد، وعلق الرأسين في طاقة الدار.

ثم أمر سعيد الأحول بقتل مئة وسبعين من كبراء بني الصليحي والملوك الذين رافقوهم، واستثنى ثلاثة كان من بينهم علي بن معن الذي عاد إلى عدن وأعلن استقلالها عن بني الصليحي.

المكرم أحمد:

وصلت أنباء مذبحة الدهيم إلى المكرم أحمد بن علي الصليحي وهو في صنعاء، فحزن لمقتل والده وأسر أمه، وحاول أن يخلصها من الأسر.

قال نجم الدين عمارة إن السيدة أسماء بنت شهاب، بعد سنة من الأسر، كتبت رسالة أخفتها في رغيف واحتالت في إيصاله إلى متسول ضعيف أوصله إلى ولدها المكرم في شوال سنة 475هـ (1082م)، ولما قرأ المكرم الرسالة جمع الناس وأوقفهم عليها، فضجوا بالبكاء وثارت الحفائظ.

وسار المكرم من صنعاء في ثلاثة آلاف فارس حالفهم وحرضهم واستنصرهم.
وكان فصيحاً خطيباً شجاعاً مشهوراً بالثبات والإقدام، ولم يكن في زمانه من يشبهه في قذف الرمح وضرب السيف.

وكان يطوف القرى والمدن ويخطب في الناس قائلاً لهم (من كان يرغب في الحياة فلا يكون معنا).

وعلم سعيد الأحول باستعداد المكرم، فجمع عشرين ألف مقاتل من أخلاط العبيد والأحباش السود البشرة.

والتحم الجيشان في عدة معارك عند أبواب زبيد، فانكسر سعيد الأحول بعد أن فقد ألوفاً من رجاله، وفر مع أهله إلى جزيرة دهلك.

وخرجت السيدة أسماء بنت شهاب من دار شحار سافرة الوجه، وتلك عادتها في أيام زوجها لسمو قدرها.

وأنزل المكرم رأسي والده وعمه وبنى لهما مشهداً في زبيد.

وحينما رأت السيدة أسماء بنت شهاب أباها وأخاها مع ابنها المكرم، وهبت لأحدهما خزانة عدن، ووهبت للآخر حصني كوكبان وخولان.

عودة سعيد الأحول وحيلة الملكة أروى:

في سنة 479 هـ (1086م) عاد سعيد الأحول بن نجاح إلى زبيد وانتزعها من بني الصليحي.

وكانت السيدة الحرة الملكة أروى بنت أحمد الصليحي زوجة المكرم أحمد، تدبر وسيلة للانتقام من قاتل عمها الداعي علي بن محمد الصليحي، وآسر عمتها السيدة أسماء بنت شهاب.

وفي سنة 481هـ (1088م) دعت سلطان حصن الشعر أبو عبد الله الحسين التبعي إلى ذي جبلة، وطلبت منه أن يكتب لسعيد الأحول ويقول له "إن المكرم قد أصابه الفالج وعكف على اللذات، ولم يبق أمره إلا بيد زوجته، وأنت اليوم أقوى ملوك اليمن، فإن رأيت أن تهجم على ذي جبلة من تهامة ونحن من الجبال فتستريح منه وترجع إليكم البلاد بأسرها فافعل، فدولتكم أحب إلى المسلمين من هؤلاء الخوارج".

لما اطلع سعيد الأحول على الرسالة استخفه الفرح، وخرج من زبيد في ثلاثين ألف مقاتل. وكان مسيره في يوم حدده له سلطان حصن الشعر.

وكتبت الملكة أروى إلى عمها أسعد بن شهاب وعمران بن الفضل أن يجهزا من صنعاء ثلاثة آلاف فارس ويسيرا بهم إلى زبيد، ثم يتبعا تحركات سعيد الأحول وجيشه من الخلف.

ولما وصل سعيد الأحول إلى أسفل حصن الشعر وقع فريسة لجيشين، أحدهما قابله في المقدمة والآخر من الخلف. ووقعت معركة حامية قتل فيها سعيد الأحول مع جميع رجاله. ويقال إن ألفين فقط نجوا من القتل في تلك المعركة الرهيبة.

وكما فعل سعيد الأحول برأس الداعي علي بن محمد الصليحي فعلت الملكة أروى برأس سعيد الأحول، فقد أمرت بقطع رأسه وتعليقه على طاقة زوجته "أم المعارك" التي وضعت أسيرة في دار شحار.

وأمام ذلك المشهد قالت الملكة أروى وكأنها تخاطب أسماء: "ليت لك عيناً يا مولاتنا حتى تنظري رأس الأحول تحت طاقة زوجته". ذلك لأن السيدة أسماء بنت شهاب توفيت قبل هذه المعركة بسنتين.

نهاية بني معن في عدن:

قال المؤرخ اليمني علي بن الحسن الخزرجي إن الداعي علي بن محمد الصليحي لما استولى على اليمن وافتتح عدن، كان فيها يومئذ "بنو معن" الذين تغلبوا عليها وعلى لحج وأبين والشحر وحضرموت، فأبقاها الصليحي تحت بني معن وجعلهم نوابه عليها. فلما تزوج المكرم أحمد بن علي الصليحي بالحرة السيدة بنت أحمد الصليحي في سنة 461هـ (1068م)، جعل الصليحي صداقها عدن وما ناهجها من البلاد، فكان بنو معن يرفعون خراج عدن إلى الحرة السيدة في أيام الداعي علي بن محمد الصليحي، فلما قتل تغلب بنو معن على ما تحت يدهم، فقصدهم المكرم إلى عدن وأخرجهم منها وولاها العباس ومسعود ابني المكرم الجشمي اليامي الهمداني في سنة 476هـ (1084م).

وكان العباس ومسعود من أقطاب المذهب الإسماعيلي الفاطمي، وقد ساهما في قيام الدولة المستنصرية مع الداعي علي بن محمد الصليحي ثم مع ولده المكرم يوم نزوله زبيد لإنقاذ أمه من أسر سعيد الأحول.

باب عدن وباب حقات:

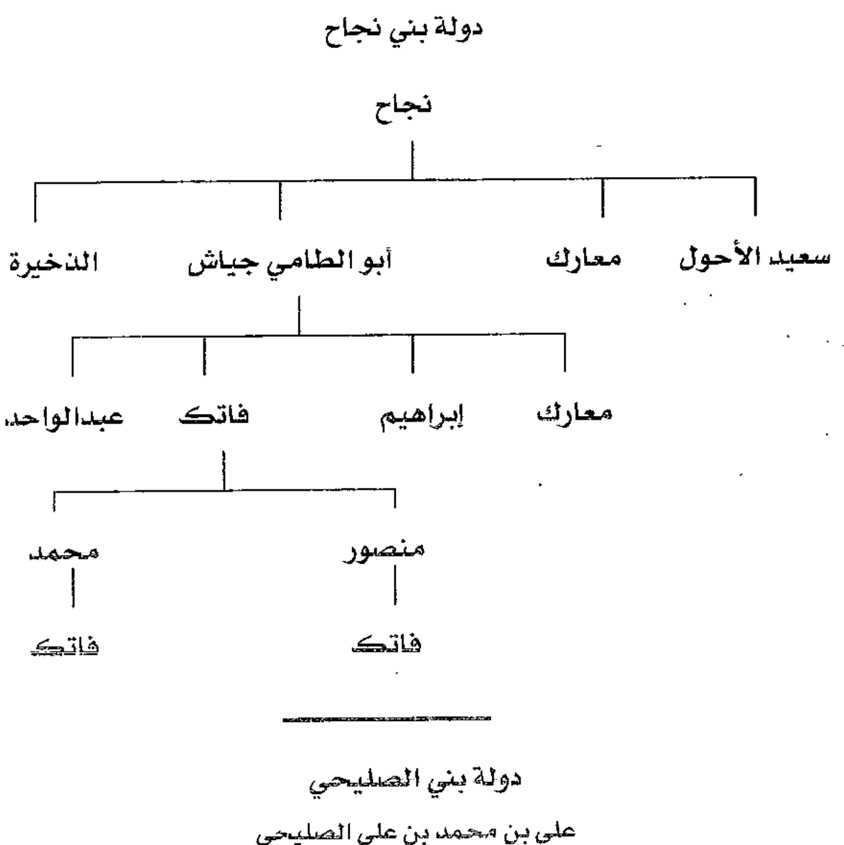
جعل المكرم أحمد بن علي الصليحي مسئولية حصن التعكر (جبل حديد) وباب البر - أو باب عدن - وما يدخل منه للعباس، ومسئولية حصن الخضراء (جبل البنديرة) وباب البحر - أو باب حقات - وما يدخل منه للمسعود، واستحلفهما للحرة السيدة زوجته، فلم يزل مدخول عدن يحمل إلى السيدة كل سنة مئة ألف دينار وقد يزيد وقد ينقص، إلى أن توفي العباس فخلفه ابنه زريع على حصن التعكر وباب البر، وبقي عمه المسعود على حصن الخضراء وباب البحر وإدارة المدينة. وكل منهما يحمل إلى السيدة ما يجمعه كل سنة.

في سنة 480 هـ (1087م) استولى زريع على الدولة - في ناحية الصلو باليمن - وضمها إلى مسئولياته في عدن.

ولما تجهزت السيدة الحرة لمقاتلة سعيد الأحول كتبت لزريع بن العباس وعمه المسعود طالبة منهما تأييدها في الحرب، فسارا إلى زبيد واشتركا في القتال وقتلا عند باب زبيد.

وفي سنة 484 هـ (1091م) توفي الداعي المكرم أحمد بن محمد بن علي بن محمد الصليحي.

دولة بني نجاح



دولة بني الصليحي

علي بن محمد بن علي الصليحي

المكرم أحمد

وعند وفاته تولت زوجته السيدة الحرة

الملكة أروى بنت أحمد. وقبل وفاتها

أسندت الحكم إلى المنصور أبو حمير

سبأ الذي خلفه ابنه علي

دولة بني زريع في عدن

انفصال عدن عن اليمن:

بعد وصول الأنباء بمقتل زريع بن العباس وعمه المسعود في زبيد انتقل أمر عدن إلى أبي السعود بن زريع بن العباس وأبي الغارات بن المسعود اللذين أعلنا انفصال عدن وتوابعها عن دولة بني الصليحي.

وغضبت السيدة الحرة الملكة أروى من انفصال عدن وامتناع أميريها عن إرسال مدخول عدن السنوي إليها، فأرسلت بقائد جيشها المفضل بن أبي البركات في جيش كثيف إلى عدن. ووقعت بين الفريقين عدة معارك انتهت بالصلح على إرسال نصف المدخول إلى السيدة أروى.

وبعد وفاة المفضل توقف أبو السعود وأبو الغارات بن المسعود عن إرسال نصف المدخول، فجهزت جيشاً بقيادة أسعد بن أبي الفتوح إلى عدن. وبعد عدة اشتباكات متعددة تم الاتفاق على إرسال ربع المدخول .. ثم امتنعا عن إرسال أي مبلغ من المال.

النزاع بين أبناء العم:

وبعد وفاة أبي السعود بن زريع وأبي الغارات بن المسعود، تولى الحكم ابناهما سبأ بن أبي السعود ومحمد بن أبي الغارات بن المسعود. ولما توفي محمد خلفه أخوه علي.

كان علي بن أبي الغارات يحكم حصن الخضراء وباب البحر، بينما كان سبأ يحكم حصن التعكر وباب عدن والدملوة وسامع ومطران وذبحان وأجزاء من المعافر والجند وبعض الجبال في تلك النواحي.

ويظهر أن علي بن أبي الغارات أحس بالغبن من ذلك التقسيم الذي يعطي سبأ نصيباً أوفر في الحكم والمساحة والمدخول. وكان هذا الإحساس بداية الانشقاق في العائلة الواحدة.

كان أبو القاسم بن الحرزي نائب علي بن أبي الغارات مختصاً بنصف عدن. والشيخ أحمد بن عتاب الهذلي نائب سبأ مختصاً بالنصف الآخر. وبسط أبو القاسم على مدخول الهذلي، وامتدت أيدي وكلاء علي بن أبي الغارات إلى ظلم الناس وعاثوا في البلد وأفسدوا وأطلقوا الأقوال بمذمة سبأ وقالوا في ذلك ما

يوجب الغيظ والحفيظة. وكان سبأ في تلك الأثناء يجمع المال والغلات سراً. ويظهر أن سبأ كان يتغاضى عمداً عن أفعال علي بن أبي الغارات ووكلائه حتى يشعر الناس بثقل وطأتهم وضرورة الخلاص منهم.

الاستعداد للقتال في لحج:

لما وجد سبأ أن الوقت حان ليضرب ضربته، أمر بتعيين الشيخ بلال بن جرير المحمدي نائباً له على عدن، وأمره أن يهيج القوم ويحرك للقتال .. وجمع بلال المقاتلين من همدان وخولان وعنس وحمير ومذحج، وهبط غيرهم من الجبال للانضمام إليهم. ونزل سبأ إلى قرية مسورة في لحج اسمها "بني أبه". ونزل علي بن أبي الغارات وعمه منيع بن مسعود في قرية محصنة اسمها "الرعارع".

بني أبه والرعارع:

وصف البهاء الجندي قرية بني أبه قال:

"ومن لحج ثم من قرية "بنا أبه العليا .. فسميت "منيبه"ـ بفتح الميم وسكون النون وفتح الياء المثناة من تحت وفتح الباء الموحدة مع تشديدها ثم هاء ساكنة - وسميت بالاسم الأول لأن أول من بناها رجل يقال له "أبه" - بفتح الهمزة وفتح الباء الموحدة مع تشديد وسكون الهاء ـ وقد سميت "بنا أبه العليا" بسبب وجود قرية أخرى إلى جانبها تحمل نفس الاسم، ولذلك سميت الأولى "بنا أبه العليا" والأخرى "بنا أبه السفلى".

أما عن الرعارع فقد قال:

"إن لعلي بن أبي الغارات في لحج مدينة "الزعازع" - واستعمل الزاي بدل الراء.

وفي كتاب هدية الزمن للأمير أحمد فضل العبدلي ذكر المدينة باسم "الرعارع" وهذا يؤيد أن الاسم الصحيح هو "الرعاع" وليس "الزعازع". وصفها الهمداني فقال: "الرعارع من أشهر قرى لحج".

أما الأهدل فيقول في كتابه "تحفة الزمن في أعيان أهل اليمن": إن الرعارع براء ثم عين ثم راء أخرى مكسورة ثم عين أخرى، إحدى قرى مخلاف لحج.

المعركة الحاسمة في لحج:

وتقابل الجيشان في وادي لحج ودارت بينهما عدة مناوشات ومعارك وصفها محمد بن سبأ في حديث له مع المؤرخ نجم الدين عمارة، قال:

"كنت في طلائع والدي الداعي سبأ فظهر لنا علي بن أبي الغارات وعمه منيع بن مسعود، ولم تحمل الخيل أفرس من الاثنين ولا أشجع، فانهزمنا فأدركنا منيع بن مسعود فقال لي: "يا صبي قل لأبيك يثبت فلا بد عشية من تقبيل الجشميات" - والجشميات هن النساء من نسل العباس والمسعود ابني المكرم الجشمي اليامي الهمداني - فلما أخبرت والدي بذلك ركب بنفسه وقال لمن حضر معه من بني عمه آل الذيب: "إن العرب المستأجرة لا تقدر على حر الطعان، ولا يمسك الثور إلا بمقوده، فاصطلوها بأنفسكم وإلا فهي الهزيمة والعار"، فالتقى القوم فحمل منا فارس على منيع بن مسعود فطعنه طعنة شرم بها شفته العليا وأرنبة أنفه، وكثر الطعن والضرب والجلاد بالسيوف وعقر الخيل، والعرب المستأجرة محشودة تتفرج، ثم حملت همدان ففرقت بين الناس فتحاجز القوم لأن وادي لحج أقبل دافعا بالسيل فوقفوا على عدوتي الوادي يتحدثون، فقال الداعي سبأ أو غيره لمنيع بن مسعود: "كيف رأيت تقبيل الجشميات يا أبا المدافع في هذه العشية؟" فقال منيع: "وجدته كما قال المتنبي والطعن عند محبيهن كالقبل". فلم يزل الناس يستحسنون هذا القول لأن الشاهد وافق الحال".

ويستمر محمد سبأ قائلاً:

"أقامت فتنة الرعارع سنتين، وكان علي بن أبي الغارات في أول الأمر ينفق المال جزافاً والداعي سبأ يمسك عن الإنفاق، فكاد الناس أن يميلوا علينا. فلما تضعضت حال ابن أبي الغارات بذل الداعي ما لم يخطر بالبال أن يبذله على هذه الحرب. فقد صرف ثلاث مئة ألف دينار ثم أفلس، واقترض من تجار عدن مثل الشريف أبي الحسن محمد بن أبي العمري - من ولد عمر بن الخطاب - والشيخ أبي الحسن علي بن محمد وابن أعين وظافر بن فراج وغيرهم .. وبعد وفاة الداعي سبأ بعدن بعد فتحه الرعارع بسبعة أشهر بقي من المال القرض ثلاثون ألف دينار قضاه عنه ولده الأعز علي بن سبأ".

زبيد تجهيز جيشاً :

في أثناء القتال في وادي لحج كانت زبيد والتهائم اليمنية تعيش في جو من الدسائس والمؤامرات تحت ملك صغير السن ضئيل الشأن هو الملك فاتك بن منصور بن فاتك بن جياش بن نجاح. فقد كان فاتك لعبة في أيدي عبيده الفحول أمثال من الله الفاتكي وإقبال وسرور القائد. وكان وزيره هو مفلح الفاتكي. وكان الخلاف مستحكماً بين مفلح وهؤلاء العبيد الذين حاولوا الاستئثار بالسلطة والقضاء على مفلح الفاتكي. ودبر سرور القائد مؤامرة لإخراج مفلح من زبيد فأمر بتجهيزه إلى عدن لمحاربة سبأ بن أبي السعود بن زريع وعلي بن أبي الغارات بن مسعود. وخرج مفلح على رأس جيش يريد عدن، لكنه لم يكد يبتعد مسافة يوم عن زبيد حتى وصلته الأنباء بقيام محمد بن فاتك بن جياش بن نجاح بثورة ضد الملك الصغير والملكة أم فاتك. فاضطر مفلح إلى العودة إلى زبيد وفشلت مؤامرة الحملة العسكرية على عدن.

الاستيلاء على عدن :

في سنة 532هـ (1138م) دخل الشيخ بلال بن جرير المحمدي عدن فاتحاً واحتل حصن الخضراء، حيث كانت تعيش الحرة بهجة أم علي بن أبي الغارات. ووجد الشيخ بلال في الحصن الذي كانت تسكنه الحرة بهجة ذخائر وأموالاً وحلياً كثيرة.

ذكر الخزرجي أن الشيخ بلال أنزل الحرة بهجة إلى مدينة عدن فلبثت فيها حتى توفيت. والمسجد الذي يعرف بمسجد الحرة على قرب من جامع عدن أظنه ينسب إليها.

وأرسل الشيخ بلال رسولاً إلى الداعي سبأ يبشره بالفتح، وفي نفس الوقت أرسل الداعي سبأ رسولاً إلى الشيخ باستيلائه على الرعارع والتقى المبشران في الطريق.

انفراد بني زريع بالحكم :

بعد استيلاء الداعي سبأ على الرعارع التجأ علي بن أبي الغارات وعمه منيع ابن مسعود إلى حصني منيف والجبلة في جهة صهيب. وبقيا هناك إلى سنة 545هـ (1150م) عندما استطاع الداعي محمد بن سبأ أن يدبر قتلهما.

وصهيب كما ذكر الهمداني كان يسكنه ناس من نسل سبأ كانوا يعرفون باسم "سبأ صهيب" وأنها تقع بعد لحج.

و"منيف" جبل يقع على بعد اثنى عشر ميلاً من لحج.

وبعد وفاة ابن أبي الغارات وعمه منيع بن مسعود انتهت سلطة آل المسعود بن المكرم الجشمي اليامي الهمداني، وانفرد بحكم عدن وما ناهجها من البلاد سبأ بن أبي السعود بن زريع بن العباس بن المكرم الجشمي اليامي الهمداني .. وعرفت دولة سبأ وأبنائه باسم دولة بني زريع ..

وفاة الداعي سبأ والملكة أروى:

في عام 532هـ (1138م) توفيت السيدة الحرة الملكة أروى بنت أحمد الصليحي في ذي جبلة وقبرت في المسجد الذي بنته هناك.

وبعدها بعام واحد توفي الداعي سبأ وذلك بعد سبعة أشهر من احتلاله لعدن والرعارع. وقبر في سفح جبل التعكر.

قال الخزرجي: "ولما كان في سنة 700هـ الموافقة (1301م) - في عهد رابع ملوك بني رسول المؤيد داؤد - ظهر للناس على أكمة بسفح جبل التعكر حفيرة أظهره المطر فتوهم الناس أنه كنز فأعلموا والى المدينة (وأظنه الأمير أبو علي طغرطل بن عبدالله المؤيدي) فطلع والي عدن ووقف وأخرج الحفارون منه صندوقاً كبيراً مسمراً فوجدوا فيه رجلاً ملفقاً بأثواب متى أمسكت صارت رماداً فأعادوه بحاله بصندوقه وحضرته، ولعله الداعي سبأ".

جبل التعكر:

إن جبل التعكر الذي يعتقد أن الداعي سبأ قبر في سفحه هو أحد جبال عدن الشهيرة؛ ذكر مؤلف "تاج العروس" بقوله: "هو أحد جبال عدن إلى يسار القادم من الباب إلى المدينة".

ويطلق على هذا الجبل اسم "سلسلة المنصوري" ولا نعرف سبباً لهذه التسمية، إلا أنه من المعقول أن تكون هذه التسمية قد جاءت بعد المحاولات المتكررة من قبل قبائل المنصوري (أو المناصرة) لاحتلال عدن.

وثمة تعليل آخر هو أن هذا الاسم قد أطلق على الجبل المذكور بعد أن احتل عدن السلطان المنصور عمر بن علي بن رسول مؤسس دولة بني رسول وباني

المدرسة المنصورية في عدن. ويسمى الجبل "جبل حديد" لما يشاع من وجود مادة الحديد في جوفه.

علي بن سبأ بن زريع:

قبل وفاة الداعي سبأ أسند الوصية إلى ولده علي الأعز المرتضى.

وكان علي على غير وفاق مع الشيخ بلال بن جرير المحمدي حاكم عدن؛ لأن الشيخ بلال كان أكثر ميلاً إلى أخيه محمد بن سبأ.

وكان علي الأعز يعيش في الدملوءة - في الصلو باليمن - يعاني من مرض السل. ولما أدرك أن بلال يميل إلى أخيه محمد حاول إزاحته من السلطة - ويقال: إنه حاول تدبير قتله - ففر محمد إلى تعز والتجأ إلى أميرها المنصور بن المفضل بن أبي البركات.

وبعد سنة توفي علي الأعز، وذلك في سنة 534هـ (1140م) وأوصى بالأمر لأبنائه حاتم والعباس والمنصور والمفضل، وجعل كفالتهم إلى عبده أنيس الأعزي وعامل الدملوءة يحي بن علي وزيره وكاتبه.

الداعي محمد بن سبأ:

بقي الشيخ بلال بن جرير المحمدي شبه مستقل بعدن لم يقبل الخضوع لأبناء الأعز الصغار السن، فأرسل رجالاً من قبائل همدان إلى تعز للعودة بمحمد بن سبأ من جوار المنصور بن المفضل بن أبي البركات.

ولما وصل إلى عدن سنة 534هـ استقبله بلال استقبال الفاتحين، وأنزله في دار المنظر المشرف على ساحل حقات، وسلم إليه مقاليد الأمور، وجمع الأهالي ورجال القبائل والرؤساء لمبايعته، ثم زوجه بابنته.

وجهز محمد بن سبأ جيشاً حاصر به الدملوءة. وفي أثناء الحصار شعر أنيس الأعزي ببذور الثورة تنمو وتزدهر في داخل القصر - فقد سمع الجواري يتحدثن ويتآمرن على قتله وتسليم الحصن لمحمد بن سبأ .. وبالرغم من أن الدملوءة كانت حصينة يسهل الدفاع عنها فقد أسرع أنيس الأعزي بتسليمها إلى محمد ابن سبأ. واستتب الأمر لمحمد بن سبأ فبقي في الدملوءة وأبقى الشيخ بلال نائباً له في عدن.

وكان القاضي الرشيد أحمد بن الزبير قد خرج من الأبواب المقدسة (مقر الخلافة الفاطمية في القاهرة) ليقوم بتقليد الدعوة المجيدية (الإسماعيلية الفاطمية) للأعز المرتضى علي بن سبأ. ولما لقيه قد مات قبل وصوله قلد الدعوة لمحمد بن سبأ ووصفه بالداعي المعظم المتوج المكين. ونعت وزيره الشيخ بلال بن جرير المحمدي بالشيخ السعيد الموفق السديد. وكان ذلك في سنة 534هـ (1140م).

محمد بن سبأ يشتري حصون اليمن:

في سنة 547هـ (1152م) اشترى الداعي محمد بن سبأ من المنصور بن المفضل بن أبي البركات جميع الحصون والمعاقل والمدن التي لبني الصليحي - وعددها ثمانية عشر - بمبلغ مئة ألف دينار ومن بينها ذي جبلة وذي أشرق وإب وحب وتعكر الجند في مخلاف جعفر.

وسكن المنصور في جبل "صبر" في تعز، وطلق زوجته السيدة أروى بنت علي بن عبد الله الصليحي فتزوجها محمد سبأ، كما تزوج بنت السلطان أسعد بن وائل بن عيسى سلطان الوحاظة.

ثروة الشيخ بلال:

يقول الخزرجي: إن الشيخ بلال بن جرير المحمدي توفي سنة 545هـ (1150م) بينما يشترك البهاء الجندي وعمارة في القول إن الوفاة وقعت سنة 546 أو 547هـ (1151 - 1152م).

ويضيف عمارة أن الأديب والشاعر العدني أبوبكر بن أحمد العندي، وكذلك الشيخ معمر بن أحمد بن عتاب، أخبراه أن الشيخ بلال خلف من الأموال ما يأتي بيانها:

560 ألف دينار ملكي.

أكثر من ثلاثين ألف دينار مصري.

عدة أبهرة من الفضة المصاغ والحلي.

خيل وبغال وسيوف ورماح وأدوات كتابة وطشوت وأدوات هدايا ومنافل وطاسات وقصب فضية وآلات مرصعة بالذهب وسكاكين صليحية وكيزان

فضية وزنها كلها خمسة أبهرة وثلاثمئة رطل، ويقال أربعمئة رطل أو ستمئة رطل أو ألف رطل أو ثلاثة قناطير .. والبهار الواحد يساوي حمولة جمل.

عدد لا يحصى من الملابس والبضائع، وكذلك خزائن من الطيب وأصنافه، وأعداد ضخمة من السلاح والعدد، وتحف الهند وألطاف الصين والمغرب والعراق، وتفانين مصر وعمان وكرمان.

ولقد مات الشيخ بلال عن أولاد من الرجال منهم "المدافع" الذي خلف والده في الحكم. ولما توفي خلفه أخوه "ياسر" الذي اشتهر بالحزم والعزم والكرم، إلاّ أن الشيخ بلال لم يترك ثروته لأولاده بل أوصى بها كلها للداعي محمد بن سبأ الذي صرف كل تلك الأموال الضخمة في سبيل المروءة والمعروف في سنتين!!

وفاة الداعي محمد بن سبأ:

ذكر البهاء الجندي: أن الداعي محمد بن سبأ توفي سنة 548 أو 549 أو 550 هـ (1153/ 1154/ 1155م) بينما يقول عمارة إنه توفي سنة 548 هـ (1153م). وعمارة كان معاصراً لمحمد بن سبأ ولذلك يمكننا الاعتماد على قوله.

ويروي الخزرجي قصة عن قبر محمد بن سبأ تشبه إلى حد كبير قصة قبر والده سبأ: ففي عهد الملك المنصور عمر بن علي بن رسول وجد صندوق مقابر الدملوءة، وعندما فتح وجدت فيه بقايا جثة آدمية قيل إنها جثة الداعي محمد بن سبأ.

الداعي عمران بن محمد بن سبأ:

بعد وفاة الداعي محمد بن سبأ تولى الحكم ابنه الداعي عمران بن محمد بن سبأ الذي اشتهر بكرم النفس وسخاء اليد والشهامة وحب مديح الشعراء.

قال عنه عمارة: "ما أغزر ديمة جوده، وأكرم نبعة عوده، وأكثر وحشه في بذرة الطريق من النظران، وأقل موانسه فيه من الملوك والأقران. ولا يكذب من قال: إن الجود والوفاء ملة عمران، وإنه حاتمها بل خاتمها. ومن مآثره الباقية في عدن: المنبر المنصوب في جامعها واسمه مكتوب عليه، وهو منبر له حلاوة في النفس وطلاوة في العين".

وفي سنة 554هـ (1159م) بدأت الإحن تحيط بالداعي عمران، فقد ظهر باليمن مذهب جديد سنأتي على ذكره. ويرأس هذا المذهب مؤسسه علي بن مهدي الخارجي. ففي تلك السنة توفي علي بن مهدي وقام بالأمر بعده ابنه الذي حاول أن يغزو عدن، ولكنه لم يستطع دخولها فاكتفى بالإغارة على لحج ونهبها مرتين وقتل عدداً من رجالها وسبى بعض نسائها .. وفي سنة 559هـ (1163م) أغار على أبين وأحرقها.

وأراد عمران أن يحمي عدن والدملوءة من هذا البلاء المتمثل في الخوارج، فصالح عبدالنبي بن علي بن مهدي على جزية يؤديها له كل سنة، فوافق عبدالنبي ولم يتعرض لهما.

انقراض بني زريع:

وفي الداعي عمران بن محمد بن سبأ بن أبي السعود بن زريع في سنة 560هـ (1165م). وكان في عدن في ذلك الحين شاعره الأديب العدني أبو بكر بن أحمد العندي الذي نقل جثمان عمران إلى مكة.

وخلف عمران أولاده الثلاثة الصغار السن محمد وأبو السعود ومنصور، وجعل كفالتهم لمدافع بن الشيخ بلال بن جرير المحمدي. وبعد وفاته كفلهم أخوه ياسر وأبو الدر جوهر المعظمي حاكم الدملوءة ونائب عمران فيها.

ويقول البهاء الجندي والخزرجي: إن أبا الدر جوهر هو الذي كفل أولاد عمران.

ويقول ابن خلدون: إن ياسر حبسهم في القصر واستبد بالأمر.

وربما أن ياسر كان يأمل في السيطرة على ملك بني زريع ليتمكن من تأسيس دولة شبيهة بدولة نجاح في التهائم اليمنية.

وكان ياسر أديباً يحب مجالسة الشعراء والأدباء، ويرغب في المدح ويكرم مادحيه. واستمر مسيطراً على عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت والدملوءة وما بقي من ملك بني زريع حتى سنة 569هـ (1173م) حين غزا الأيوبيون اليمن وعدن، ففر ياسر إلى الدملوءة التي اعتصم بها جوهر المعظمي، ورفض تسليمها لطوران شاه بن أيوب.

وبعد حوالي سنة خرج ياسر متنكراً مع عبده مفتاح إلى ذي عدينة، حيث تعرف عليهما بعض الناس فوشى بهما إلى طوران شاه الذي قبض عليهما وجاء بهما إلى عدن.

وتمكن طوران شاه من القضاء على دولة الخوارج باليمن، وأسر عبد النبي بن علي بن مهدي وأرسل به مقيدا بالسلاسل إلى عدن. وشاءت الصدف أن يدخل عبد النبي أسيرا إلى نفس الخيمة التي كان فيها ياسر مقيداً.

والتفت عبد النبي فوجد ياسر يسارقه النظر، فقال له "يا عبد السوء، لم تنظر إلى أسد مقيد بقيد من حديد، ومسلسل بسلاسل من حديد"؟

ويقال: إن طوران شاه أمر بشنق ياسر مع عبده مفتاح في سنة 571هـ (1175م)، بينما تقول رواية أخرى إن بعض الناس توسط للإبقاء على حياته فقبل طوران شاه شفاعتهم فأطلق سراحه.

وبالقضاء على سلطة ياسر انتهى عهد بني زريع في عدن، بعد أن استمر حكمهم حوالي ثلاث وتسعين سنة من سنة 476 إلى سنة 569هـ (1084/ 1144م).

المذهب الشيعي الإسماعيلي بين بني الصليحي في اليمن وبني زريع في عدن

يعرف المذهب باسم المذهب العلوي الفاطمي الإسماعيلي الباطني الشيعي، وأهم نصوصه: الوفاء والتشيع لآل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وداعي الدعاة هو الرئيس الأكبر الذي عليه مسئولية تعيين الدعاة. وكان مقره القاهرة.

وكانت العادة قد جرت على أن يعين الخليفة الفاطمي بالقاهرة الدعاة في البلدان التي تقع تحت دائرة نفوذه الروحي، ومن بينها اليمن وعدن.

وكلمه "داعي" مشتقة من الفعل "دعا". وقد دأب الخلفاء الفاطميون على إسناد منصب الداعي لمن يتوسمون فيه الكفاية لدعوة الناس إلى المذهب وتلقينهم أصوله ونشر تعاليمه بين الناس.

وصف المؤرخ نجم الدين عمارة الحكمي ظهور الدعوة باليمن قال:

"وقد كان محمد بن الفضل الداعي المعروف بشيخ لاعة... ولاعة هذه إلى جانبها قرية لطيفة يقال لها عدن لاعة، وليست هي عدن أبين الساحلية. ودخلت عدن لاعة هذه وهي أول موضع ظهرت فيه الدعوة العلوية في اليمن، ومنها قام منصور اليمن ومنها محمد بن الفضل الداعي .. وممن وصل إليها من دعاة الدولة أبو عبد الله الشيعي صاحب الدعوة العلوية بالمغرب .. وفيها قرأ علي بن محمد الصليحي في صباه .. وهي دار دعوة باليمن .. وكان محمد بن الفضل قد تغلب على المذيخرة وخطب فيها للدعوة العلوية سنة 340هـ (951م) ثم استرجعها منه أصحاب أسعد بن يعفر ملك صنعاء، ثم عادت إلى أصحاب الداعي محمد بن الفضل مرة ثانية.

وانتقلت الدعوة إلى الداعي عامر بن عبد الله الزواحي الحرازي الذي كان استاذاً ومرشداً لعلي بن محمد الصليحي. وفي عام 452 هـ (1060م) انتقلت الدعوة إلى الداعي علي بن محمد الصليحي الذي جاءه الإذن بإظهار الدعوة في اليمن من الخليفة المستنصر بالله معد بن الطاهر العبيدي.

ولما قتل الداعي علي بن محمد الصليحي تولى الدعوة ابنه الداعي المكرم أحمد. وقبيل وفاته أسند الدعوة إلى الداعي الأجل إبراهيم بن الحسين الحامدي، ثم إلى ابنه حاتم.

وفي عهد السيدة الحرة الملكة أروى بنت أحمد الصليحي وقع نزاع على الخلافة الفاطمية في مصر، فبعد وفاة الخليفة الآمر بحكم الله خلفه ابنه الإمام الطيب، وأسند الآمر الوصاية إلى الحافظ عبد المجيد ليحفظ الأمانة للطفل .. ولم يزل الأمر كذلك حتى طمع عبد المجيد بالخلافة، وكتب إلى الملكة أروى خطاباً استهله بقوله "من أمير المؤمنين" فأنكرت الملكة أروى عليه ذلك الادعاء، وأجابته قائلة: "أنا ابنة أحمد الصليحي، في الأمس كنت تكتب لي من عبد أمير المؤمنين واليوم تكتب من أمير المؤمنين".

وكانت الملكة أروى بعد وفاة زوجها المكرم أحمد قد انفردت بالحكم وصارت مسئولة عن جميع الشئون الدينية والسياسية والعسكرية، فأدارتها بحكمة وعزم وعقل وتدبير، فكانت أول ملكة مسلمة منذ ظهور الإسلام حتى ذلك الحين.. ولقبها الخليفة المستنصر بالله بهذه الأوصاف "الحرة" الملكة الرضية، الزكية، وحيدة اليمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين، ولية أمير المؤمنين وكافلة أوليائه الميامين".

وفي عهد الآمر أوصت السيدة أروى بإسناد الدعوة إلى ملوك بني زريع في عدن، فكان سبأ بن أبي السعود بن زريع أول ملوك عدن يقلدهم الخليفة الفاطمي منصب الدعوة. وكان ذلك في سنة 525هـ (1131م).

ولما توفي سبأ تولى الدعوة ابنه الداعي الأعز المرتضى علي، ثم أخوه الداعي محمد بن سبأ، ثم تولاها ابنه الداعي عمران بن محمد بن سبأ.

ولما تولى الحكم في مصر السلطان صلاح الدين الأيوبي انقرضت دولة الفاطميين في مصر، ثم في عدن، بعدما احتلها بنو أيوب في سنة 569هـ (1173م).

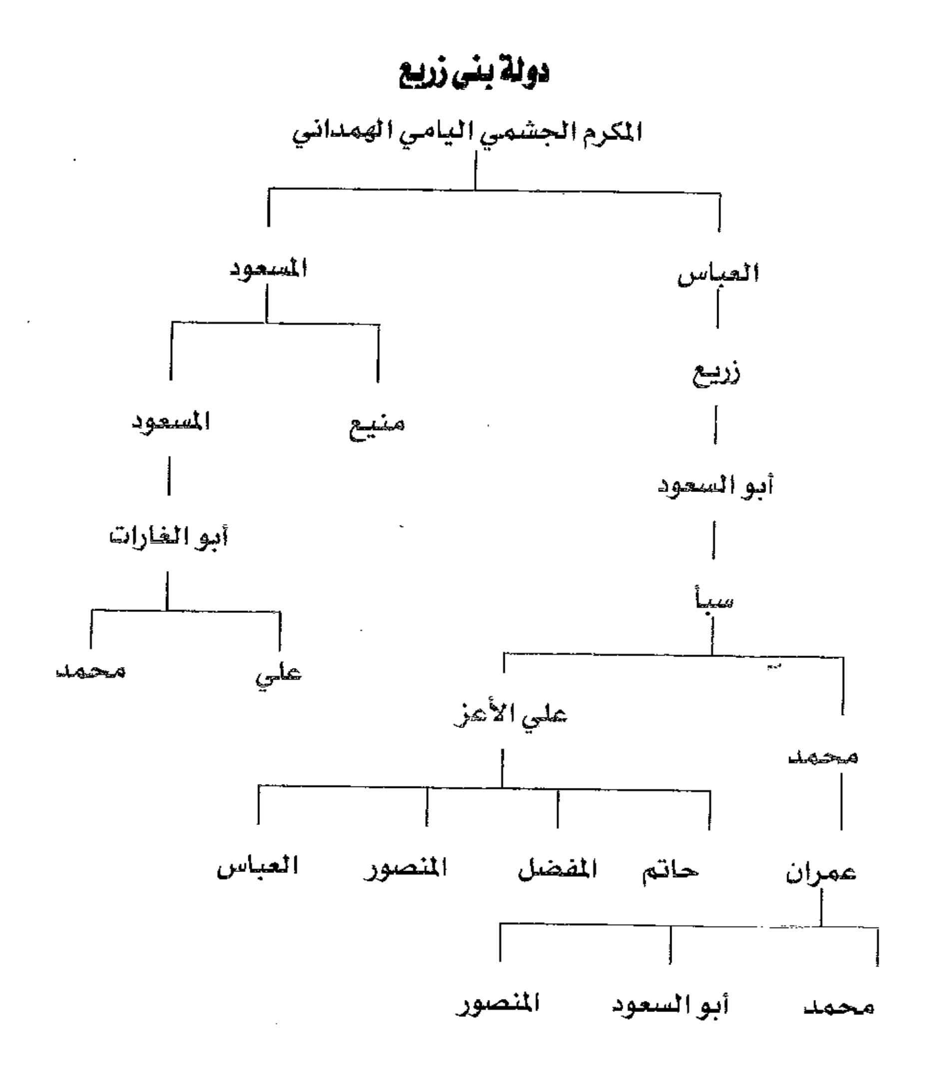
وبعد انقضاء عهد الفاطميين بالقاهرة، واشتعال نار الحرب بين أتباع المذهب الإسماعيلي الفاطمي والمذاهب الأخرى وخاصة المذهب الزيدي، التجأ كثير من الإسماعيليين اليمنيين إلى الهند. وداعي الدعاة اليوم هو السيد طاهر سيف الدين، ومركزه مدينة بمبي في الهند، ويعرف بلقب سلطان البهرا الإسماعيليين.

والجدير بالذكر أن القائد العسكري الفاطمي جوهر غزا مصر ووضع الأسس لبناء مدينة القاهرة سنة 358هـ (969م). وفي سنة 362هـ (972م) قدم إلى مصر من القيروان في المغرب الخليفة المعز لدين الله الفاطمي بن المنصور بالله

بن القائم بن المهدي عبيد الله. وإلى الأخير ينسب خلفاء الفاطميين فيسمون بالعبيديين.

وأتم المعز لدين الله بناء القاهرة وأسس فيها عرش الخلافة الفاطمية، ولهذا سميت بقاهرة المعز. وبنى المعز الجامع الأزهر الشريف ليكون معهداً لنشر العلوم الإسلامية في العالم.

دولة بني زريع



مذهب الخوارج باليمن

علي بن مهدي:

أسس علي بن مهدي مذهبه المعروف سنة 536 هـ (1142م). وهو من قرية العنبرة في ساحل زبيد في التهائم اليمنية، ومنها انتقل إلى خولان. وكان رجلاً ذكيا قوي الشخصية، وكان أول أمره يعظ الناس في القرى والمدن ويفسر لهم القرآن ويقرأ الغيب فالتف حوله الأنصار وآمنوا به إيماناً عجيباً. وحاول الاستيلاء على زبيد ولكنها استعصت عليه.

وكان في سنة 529 هـ (1134م) قد قام بزيارة للداعي محمد بن سبأ وطلب منه المساعدة في احتلال زبيد. وكان الداعي حينذاك في ذي جبلة عظيم القوة والبأس بعد استيلائه بالمال على كثير من أنحاء اليمن. ورفض الداعي أن يتعاون مع زعيم الخوارج.

واغتنم علي بن مهدي فرصة التناحر الداخلي في زبيد، ودبر اغتيال أميرها القائد سرور الفاتكي وهو يصلي في جامع زبيد، ولكنها دافعت عن نفسها بقوة وعزم وتصميم، فحاصرها وأجاع أهلها حتى اضطروا إلى أكل الحيوانات الميتة .. وأخيرا، وبعد أن فقدت كثيرا من رجالها، وبعد أن بلغت الحملات العسكرية على زبيد اثنتين وسبعين حملة، اقتحمها جيش الخوارج واحتلها .. وبعد ذلك دانت الجبال والسهول لعلي بن مهدي في سنة 555هـ (1160م)وبذلك انقرضت دولة بني نجاح بعد أن دام حكمهم مائة وثلاثاً وأربعين سنة.

مذهب الخوارج:

كان علي بن مهدي حنفي المذهب في الفروع، ثم أضاف إلى عقيدته التفكير في المعاصي. وكان يبرأ من عثمان وعلي رضى الله عنهما. وكانت له نواميس في مذهبه منها:

- يقتل كل من خالفه من أهل القبلة، ويستبيح نساءهم وأولادهم.
- يقتل شارب الخمر.
- يقتل الزاني.
- يقتل من تأخر عن صلاة الجماعة.
- يقتل سامع الغناء.

- يقتل المنهزم من أصحابه.
- يقتل من تأخر عن مجالس وعظه في يومي الخميس والاثنين.

وقد سن الخوارج هذا التشريع استناداً إلى عقيدتهم القائلة: إن مرتكب الكبيرة يعد كافراً، وهم يرجعون في تشريعهم هذا إلى الحديث الشريف "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر شارب الخمر حين يشربها وهو مؤمن". مع أن مذهب أهل السنة يقول تفسيراً لهذا الحديث إن مرتكب الكبيرة يفسق ولا يكفر إلا بالإصرار عليها، والفسق منزلة بين المنزلتين.

ينقسم الخوارج إلى عشرين فرقة، من بينها الأزارقة والأباظية الذين ينتسبون إلى مؤسس الفرقة عبد الله بن يحيى الأباظي.

كان علي بن مهدي هو الدولة، وكل شيء ملك لها: ولا يجد الفرد إلا بمقدار ما يقدمه من عمل.

كانت أموال الناس ليست أموالهم وليس لهم حق التصرف فيها، بل تحت يد علي بن مهدي يقدمونها إليه فينفق عليهم منها كما شاء.

كانت النساء يغزلن الملابس ثم يقدمنها إليه، فيعطيهن منها ما أراد وما رآه هو كافياً لهن.

وكان الناس لا يملكون سلاحاً وخيلاً، بل كانت تلك في مخازنه وأصطبلاته يستعملها متى رغب في استعمالها.

وكان الناس يعتقدون أن علي بن مهدي معصوم من الخطأ، وكانوا يحيطونه بجو من القداسة المطلقة.

وكان إذا اعتدى أحد أفراد آل مهدي علي جماعة من العسكر ثم واتتهم الفرصة للانتقام امتنعوا عن تنفيذه، لا خوفاً، بل إيماناً بأن كل ما يعمله آل مهدي إنما هو عمل لا يمكن معارضته.

وكان هذا الإيمان المطلق بمذهب علي بن مهدي هو الذي مهد السبيل إلى امتلاكه أكثر أنحاء اليمن.

وبعد وفاته بثلاثة أشهر من احتلاله زبيد وغيرها خلفه في الحكم ابنه مهدي ثم ابنه الآخر عبد النبي. وخلع عبد النبي فتولى ابنه عبد الله ثم عاد عبد النبي إلى الحكم واستمر فيه حتى انتهت دولتهم باحتلال بني أيوب لليمن وقتل عبد النبي.

دولة بني أيوب

طوران شاه بن أيوب:

كان دخول طوران شاه بن أيوب إلى اليمن في ذي القعدة سنة 569هـ، الموافقة شهر جون 1173م.

قال ابن خلكان: "كان خروج طوران شاه من مصر إلى اليمن في رجب سنة 569 هـ".

وقال الخزرجي: "وفي تواريخ أهل اليمن أنه دخل زبيد قبل غروب يوم الاثنين تاسع شوال من السنة المذكورة، فأقام أياماً ثم سار إلى الجند فأخذها، وأخذ حصن تعز، وقاتل أهل صبر وأهل تعز فلم ينل منهم شيئاً، فسار نحو عدن فدخلها يوم الجمعة 17 وقيل 19 القعدة من السنة المذكورة، فأقام بها أياماً، ثم سار نحو صنعاء فافتتحها في المحرم أول سنة 570 هـ (1174م)، وأقام بها أشهراً، ثم نهض إلى الجند وتسلم حصن صبر، ثم إلى حصن السمدان، ثم نزل تهامة فقرر قواعد البلاد وحسم موارد الفساد".

استقر طوران شاه في زبيد وجعلها عاصمة ملكه، وبينما هو هناك وصله كتاب من أخيه السلطان صلاح الدين الأيوبي يخبره فيه بوفاة سلطان حلب الأتابك نور الدين محمود بن زنكي وكيف أنه ـ أي صلاح الدين ـ قد استولى على الشام ووطد أركان ملكه في مصر.

واستأذن طوران شاه من أخيه بأن يرحل إلى الشام ومصر فأذن له.

وقبل مبارحته اليمن عين أبا الميمون مبارك بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني نائباً على زبيد والتهائم التابعة لها، وعين ياقوت التعزي نائباً على تعز ونواحيها، وعيّن الزنجبيلي نائباً على عدن وما ناهجها من البلاد.

واستمر هؤلاء النواب يرسلون إلى طوران شاه ما يجبونه من أموال إلى أن توفي في الإسكندرية سنة 576هـ (1180م)، وعندئذ استبدوا ورغبوا في الانفراد بالسلطة.

الزنجبيلي حاكم عدن:

ينتسب أبو عثمان عمر بن عثمان بن علي الزنجبيلي إلى قرية "زنجبيلة" أو "زنجيلة" وهي من قرى دمشق الشام. ويلقب بعز الدين.

وكان قدومه ضابطاً في جيش طوران شاه بن أيوب حين احتل اليمن سنة 569هـ.

وفي أيام الزنجبيلي ازدهرت عدن وعظم شأنها ونشطت الحركة التجارية فيها وازداد عدد سكانها وكثرت العمارات فيها.

وكما أراد الزنجبيلي أن يجعل من عدن قاعدة مهمة للبيع والشراء أراد أن يحميها من أي غزو بحري أو بري فجدد وقوى السور الضعيف الذي بُني في أيام بني زريع من جبل الخضراء إلى جبل حقات ثم هدمته أمواج حقات العاتية.

أبواب عدن:

وأدار الزنجبيلي سوراً على سور ابتدأ به من حصن الخضراء إلى حصن التعكر على رؤوس الجبال، وأدار سوراً ثالثاً على الساحل من لحف جبل الخضراء إلى جبل حقات، وركب ستة أبواب على الأسوار هي:

- باب الصباغة.
- باب حومة.
- باب السيلة الذي يخرج منه السيل حين نزول الأمطار، وعرف فيما بعد باسم "باب مكسور" لأن السيل كان يكسره في كل دفعة.
- باب الفرضة، ومنه تدخل البضائع وتخرج.
- باب مشرق الذي كان مفتوحاً للداخل وللخارج، وعرف أيضاً باسم "باب الساحل".
- باب حبق أو باب حيق، وعرف أيضاً باسم "باب السر" لأنه ما كان يفتح إلا عند المهم من الأمور.

تعمير عدن:

وبنى الزنجبيلي الفرضة قبلي دار السعادة وجعل لها بابين: واحد إلى الساحل تدخل منه البضائع لإجراء دفع الرسوم عليها، والآخر إلى المدينة تخرج منه البضائع بعد دفع الرسوم.

وبنى الزنجبيلي الأسواق والدكاكين وشق الطرق والأسواق المسقوفة التي كانت تعرف بالقيصارية، وكانت مخصصة لبيع المواد الطبية.

وكـذلك بنـى الزنجبيلـي قريـة الأخبـة أو "لخبـة" وتـسمى اليـوم "بـير أحمد". وقد ذكرها ابن المجاور في تاريخ المستبصر بقوله: "بناها الأمير (أبو عمر عثمان)" الزنجبيلي، وذكر أنها تبعد عن عدن فرسخين إلا ربع، وأن منها ينقل الآجر والزجاج إلى عدن، وكانت قرية عامرة بها دكاكين ومعاصر وبها جملة ناس، وكان يسكنها جماعة من العرب كالأهدوب والعقارب وغيرهم".

وذكرها "بامخرمة" بقوله: "من عدن إلى الأخبة ربع فرسخ، ومنها ينقل الآجر والزجاج، ويوجد مصنع للآجر في الأخبة".

الزنجبيلي يغزو اليمن وحضرموت:

كما اشتهر الزنجبيلي بأعماله الإدارية والعمرانية، ووصفه المؤرخون بالقسوة والصلابة.

قال عنه البهاء الجندي: "... وبالجملة فهو من الذين سعوا في الأرض فساداً، ومع ذلك فله خيرات كثيرة منها وقف جليل بعدن أوقفه على الحرم الشريف وجعل النظر في ذلك لقاضي دمشق، وقاضي دمشق استناب في ذلك قاضي عدن، كما وقفت عليه بخط جدي القاضي محمد بن مسعود بن شكيل، وله مسجد بعدن وله بمكة مسجد، وله مدرسة مشهورة خارج سور دمشق، وسبيل خارج سور دمشق أيضاً، وسبيل خارج باب سبيل الهنود. وقد عمر هذا السبيل بعده تاجر حضرمي من أهل عدن يعرف بأبي راشد فعرف به. ولقد كنت لما قدمت إلى عدن ورأيت ما وقفه هذا الأمير على الحرم والمسجد أستعظم قدره وأستكثر خيره، حتى وقفت على ما ذكره ابن سمرة من قتله الفقهاء والقراء فصغر ما فعله من خير في جنب ما فعله من شر".

وقال عنه بامخرمة: "كان النواب يحملون خراج جهاتهم إلى المعظم، فلما طالت غيبته وتوفي قطعوا الإتاوة التي كانوا يرسلونها كل سنة، ثم ضرب كل واحد منهم السكة باسمه ومنع رعيته المعاملة بغيرها وذكر اسمه على المنابر، ومع ذلك فكل لازم حده لا يتعداه إلا عثمان المذكور فإنه غزا الجبال والتهائم وأفسد منها على شمس الدولة (طوران شاه) مواضع كثيرة، ثم غزا حضرموت أشراً وبطراً فقتل عالماً عظيماً من فقهائها وقرائها، ثم رجع إلى اليمن فغزا التهامة فحصل بينه وبين نائب زبد وهو خطاب بن علي بن منقذ حروب كثيرة.

وقال عنه الكبسي في "اللطائف السنية": "في سنة 576هـ (1180م) توفي شمس الدولة طوران شاه بن أيوب في الإسكندرية ودفن فيها، وكان عماله بعدن يبعثون إليه بخراج اليمن، فلما مات أظهروا الخلاف ومنعوا الخراج، وضرب كل منهم السكة باسمه، إلا مظفر الدين أمير جبلة فإنه عجز عن العمل فنهض إليه عثمان الزنجبيلي من عدن وأخذ البلاد التي بيده، وتوجه عثمان المذكور إلى حضرموت فاستولى عليها وقتل من أهلها كثيراً واستفحل أمره وقويت شوكته، ورجع إلى عدن".

في أثناء غزو الزنجبيلي لحضرموت سنة 570هـ (1174م) كان فيها علي بن عبد الله بن راشد مع جماعة من أمراء حضرموت، فقبض عليهم وجاء بهم أسرى إلى عدن. وفي سنة 576 هـ (1181م) ثار أهالي حضرموت على حكم الزنجبيلي فأرسل إليهم عسكرا من عدن وأدخلهم في الطاعة، وألقى العسكر القبض على السلطان راشد بن شجنعة وابنه شجنعة بن راشد وساقوهما أسيرين إلى عدن.

واستمر الزنجبيلي في الحكم حتى سنة 579 هـ (1183م) حين غادر عدن إلى الشام.

طغتكين بن أيوب:

لما رأى الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي انتشار الفوضى في اليمن وعدن وحضرموت واستبداد النواب فيها بعد وفاة أخيه طوران شاه، أرسل أخاه الثاني الملك المعز أبو الفوارس سيف الإسلام طغتكين بن أيوب في ألف فارس وخمسمئة من المشاة، فوصل زبيد في 13 شوال سنة 579 هـ (1183م) فقبض على خطاب بن منقذ وصادر أمواله.

وخشي الزنجبيلي على نفسه من طغتكين، فجمع أمواله ومتاعه في عدد من السفن كان طوران شاه قد استعملها في غزوه لليمن وعدن. وأبحر الزنجبيلي من عدن في ذي القعدة من السنة المذكورة. ولما علم طغتكين بذلك أرسل أسطولاً من ساحل زبيد يتعقب سفن الزنجبيلي، فتمكن هذا الأسطول من أسر السفن كلها ما عدا السفينة التي تحمل الزنجبيلي ففر بها إلى شواطئ الشام. وتوفي الزنجبيلي في دمشق ودفن في المدرسة التي بناها هناك.

عين الزمان:

عين طغتكين بن أيوب والياً جديداً على عدن وتوابعها هو أبو الحسن أحمد بن منير بن مفلح الطرابلسي الملقب "عين الزمان مهذب الملك" وكان شاعراً كثير الهجاء خبيث اللسان له ديوان شعر وقد حفظ القرآن وتعلم اللغة والأدب، وكان أبوه مغنياً ينشد الأشعار في أسواق طرابلس الشام. وكان مولده في سنة 473هـ (1177م) ووفاته في سنة 584 هـ (1188م) في مدينة حلب.

طغتكين وأبو الدر جوهر المعظمي:

كانت الدملوءة ما زالت تحت أبي الدر جوهر المعظمي نائب بني زريع، فقد رفض أبو الدر تسليمها لطوران شاه وحصنها وأبقى أبناء الداعي عمران بن محمد سبأ في كفالته وأحسن إليهم. واستمر جوهر على حاله تلك حتى قدم طغتكين ودخل عدن. وأدرك أبو الدر جوهر أنه لن يستطيع أن يصمد طويلاً أمام قوة طغتكين العسكرية فباع عليه حصن الدملوءة في سنة 584هـ (1184م)، واشترط ألا ينزل من الحصن وألا يطلع عليه نائب طغتكين حتى يكون عيال سيده عمران كلهم خلف البحر. واشترط أيضاً أن يركبوا من أي ساحل أرادوا، فأجابه طغتكين إلى ما طلب حين أدرك صعوبة الحصن وقوة تحصيناته .. فلما توثق جوهر وقبض المال جهز أولاد عمران من البنين والبنات إلى ساحل المخا وسار معهم متنكراً في زي امرأة منهم، فنزل به أصحابه إلى ساحل المخا وكان قد أرسل من هيأ له سفنا هناك. فركب مع أولاد عمران إحدى السفن وأبحر إلى بر العجم (أو الحبشة) بعد أن ترك نائباً له في الحصن يجهز لهم بقية أموالهم وما يحتاجون إليه، وكتب له عدة أوراق في كل واحدة منها علامة بخط يده، فكان النائب إذا احتاج إلى كتابة رسالة إلى طغتكين أو إلى بعض أمرائه كتب لهم في تلك الأوراق فلا يشكون في أن جوهر ما زال موجوداً في الحصن. وكان طغتكين قد أضمر القبض على جوهر واسترجاع ما أعطاه من مال. فلما فرغ الحصن من سكانه وأمواله، نزل النائب وقد صار جوهر وأولاد عمران خلف البحر. فلما سئل النائب عن جوهر أجاب بأن جوهر كان أول من نزل، فعجب طغتكين من أمانة النائب ووفائه وأبقاه أميراً على الحصن.

كان أبو الدر جوهر المعظمي عالماً حافظاً عاملاً ذكياً فقيهاً مقرئاً، أجمع علماء عصره على تسميته بالحافظ لأنه كان لا ينسى شيئاً يحفظه. وكانت له

مصنفات في القراءات والحديث والوعظ. ومن مصنفاته في الوعظ كتاب؛ "تذكرة الأخبار وذخيرة الأسرار" وكتاب "المناجات والدعوات" وكتاب "الرسائل وشريف الوسائل" وكتاب "اللؤلؤيات" .. وتوفي جوهر في الحبشة حوالي سنة 597 هـ (1190م) ولم يعرف أحد شيئاً عن أبناء الداعي عمران آخر ملوك بني زريع في عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت.

أعمال طغتكين:

كان طغتكين عسكرياً وإدارياً حازماً، بنى الحصون والقصور والمساجد والمعسكرات والحمامات، وقنن القوانين، وكان شاعراً وفقيهاً وأديباً.

وكان أول من أرسل السفن الحربية إلى شواطئ الهند لحراسة السفن التجارية، وكانوا يسمون السفن "الشواني".

قيل: إنه بينما كان طغتكين في عدن سأله أحد أهلها "بم تستحل أخذ العشور من التجار"؟

فأجابه طغتكين "إنني أجري على ما كانت تجري عليه ملوك بني أيوب".

فقال له الرجل: "إنهم كانوا يأخذون الناس بالقوة، ولكن خذ أنت ذلك على رأي يشكرك به الخلق".

فقال طغتكين: "وكيف ذلك".

فأجابه الرجل: "أرسل بهذه الشواني إلى البحر لتحمي التجار وتجارتهم من لصوص البحار، فيدفع التجار العشور مقابل حراسة الشواني لأموالهم بدلاً من بقائها في المرسى تقرعها الشمس".

فاستحسن طغتكين ذلك الرأي، وأمر بإخراج الشواني إلى بحار الهند لتحفظ مراكب التجار من لصوص البحار. واستمر الحال على ذلك حتى سنة 613 هـ (1216م).

إسماعيل بن طغتكين:

كانت وفاة طغتكين بن أيوب في يوم الأربعاء 26 شوال سنة 593 هـ (1197م) ويُقال إنه مات مسموماً. وتولى الحكم بعده ابنه الملك المعز إسماعيل. وفي أيامه كان المعتمد رضي الدين التكريتي حاكماً لعدن.

كان إسماعيل بن طغتكين شهماً شجاعاً وشاعراً فصيحاً، ولكنه كان مضطرب الفكر متهوراً يهتم بمجالس الشعراء وحلقات اللهو أكثر من اهتمامه بالحكم، وكان سفاكاً سريع البطش شديد العقوبة. ثم اختلط عقله وولع بذبح بني آدم، وطال ظلمه للرعية، وأمر الناس بأن يخاطبوه بلقب أمير المؤمنين، ومنع الجند أرزاقهم وصرفها على المساخر وعلى الشعراء حتى ضاق به الناس فتآمر عليه جماعة من الأكراد.

وبينما هو يسير على بغلته بالقرب من أحد المساجد خارج زبيد، أحاط به الأكراد فقاتلهم ساعة وليس بيده سوى مقرعة. وصرخ طالباً حصانه ليهرب عليه، ولكن الأكراد حالوا بينه وبين الحصان وقتلوه. وكان ذلك في يوم الأحد 18 رجب سنة 598 هـ (1201م).

أيوب بن طغتكين:

بعد وفاة إسماعيل طغتكين بن أيوب اعتلى العرش أخوه الملك الناصر أيوب، وقام بالأمر بالنيابة عنه الأتابك سيف الدين سنقر الذي رباه.

وزار الأتابك سنقر مدينة عدن واشترى نصف المملاح بألف دينار بعد أن جار على أصحابه .. ويُقال: إنه ما ظلم أحداً غير أهل المملاح بعدن وأهل النخل بموزع.

وحين عين الملك الناصر أيوب الأمير بدر الدين غازي بن جبريل وزيراً له، أغراه على الطلوع إلى صنعاء ليحارب الإمام عبد الله بن حمزة. فلما استقر أيوب بصنعاء دس له وزيره السم فتوفى في ليلة الجمعة 12 محرم سنة 599 هـ (1202م).

سليمان بن تقي الدين:

بعد وفاة أيوب بن طغتكين بن أيوب تولت الحكم مدة يسيرة أمه التي كانت تسكن حصن تعز.

وكان قد وصل إلى اليمن من مصر سليمان تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب المعروف بالصوفي، ومعه جماعة في زي الصوفية، فاستدعته أم أيوب لما علمت بقدومه وقالت له: "إننا نخشى أن يطمع فينا العرب ونحن نساء لا حيلة لنا، فقد ساقك الله إلينا فقم بملك ابن عمك".

فأجاب إلى ذلك فأطلعوه الحصن وأجلسوه على سرير الملك. وكان ضعيفاً لا دراية له في الملك؛ فاشتغل بالشراب واللهو واللعب حتى تضعضع الملك واستولى الإمام المنصور عبد الله بن حمزة على صنعاء، وذمار، وعمت الفوضى كل مكان.

المسعود يوسف:

كان السلطان صلاح الدين الأيوبي قد توفي في مصر وتولى الحكم بعده أخوه الملك العادل أبوبكر بن أيوب. فلما وصلته أنباء قتل ابني أخيه إسماعيل وأيوب جهز ابن ابنه الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب في جيش كبير وأموال وعتاد إلى اليمن.

وكتب الملك العادل إلى الأمير شمس الدين علي بن رسول وإلى سائر الأمراء المصريين في اليمن، يأمرهم بحسن صحبته والقيام بما يجب من خدمته.

ووصل المسعود إلى زبيد في يوم السبت 2 محرم سنة 612هـ (1215م) واستقر في الدار السلطانية بزبيد. ثم أرسل إلى سليمان بن تقي الدين في حصن تعز يخاطبه بالصلح ويقترح أن تكون الجبال لسليمان والتهائم للمسعود. فلما سمع بذلك الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول أسرع إلى المسعود وحثه على الطلوع إلى تعز. فرحل المسعود إلى تعز وانضمت إليه العساكر الموجودة في تلك النواحي.

وأشار عليه الأمير بدر الدين بأن يكتب إلى الجند الذي في حصن تعز "أقسم لئن لم تمسكوا سليمان بن تقي الدين لا وجدتم مني عافية".

فلما وصل كتابه إلى الجند نهضوا بأجمعهم إلى سليمان بن تقي الدين وأغلقوا عليه باب المجلس، وبعثوا رسولاً إلى المسعود يعلمونه بما فعلوا، فأرسل المسعود بابنه إلى الحصن وأمسك سليمان وقيده، ثم صعد المسعود إلى الحصن في 10 صفر سنة 612هـ (1215م)، ومن ثم استولى على اليمن وأرسل بسليمان مقيداً إلى مصر.

نائب بني أيوب:

ولما استقرت الأمور في اليمن تجهز الملك المسعود للعودة إلى مصر في منتصف شهر رمضان سنة 620هـ (1127م) وعين نور الدين بن علي بن رسول

نائباً لبني أيوب في اليمن، وأقر رضي الدين محمد بن علي التكريتي نائباً له في عدن.

وبينما المسعود في مصر وصلته أنباء بأن بني رسول يحاولون الانفراد بالسلطة، فعاد إلى اليمن في صفر سنة 624هـ (1227م) وألقى القبض على الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول، والأمير فخر الدين أبي بكر بن علي بن رسول، وأرسل بهما مقيدين إلى مصر، ولكنه أبقى أخاهما نور الدين عمر وعينه قائداً للجيش ووثق به ثقة مطلقة .. ويقال: إن نور الدين عمر هو الذي أشار على المسعود بأن يقبض على أخويه حتى لا يكونا سبباً في عرقلة مشروعاته، وربما أنه بذلك أراد أن يثبت ولاءه لبني أيوب.

ابن رسول وتجار عدن:

ذكر ابن المجاور في تاريخ المستبصر قال: "في يوم الأربعاء 26 رجب سنة 624هـ دخل عمر بن علي بن رسول إلى عدن وأمر عسكره بنهبها، وطرح القوة على كل من فيها من غريب وقريب وقوي وضعيف وامرأة حرة وفاسدة، و(فرض) على سعر البهار مائتي دينار وثمانين ملكي، وضرب الخلق بالخشب، وكانت الأيام شبه أيام الحشر ينادي أين المفر. وفي سنة 625هـ فرض القوانين الجائرة في عدن، وكان ينهب التجار بصورة فظيعة، مثلاً كان يأخذ البهار الفلفل بسعر أربعين ديناراً ويبيعه على أهل الكارزم بستين ويبيعه على أهل الحق بثمانين. وكان يأخذ البهار بهاراً وربعاً ويبيعه بهاراً إلا ربع. وكان يفرض على التجار أن يدفعوا على الأموال الصادرة والواردة عشور الفرضة وعشور الشواني وعشور دار الوكالة ورسوم دار الزكاة ورسوم السمسرة".

المعتمد رضي الدين التكريتي:

كان المعتمد رضي الدين محمد بن علي التكريتي حاكماً لعدن ونائباً لبني أيوب فيها من أيام إسماعيل بن طغتكين بن أيوب، وربما أنه خلف عين الزمان في نيابة عدن وحكمها. وقد جدد المعتمد بناء القيصارية التي بناها الزنجبيلي في عدن. وفي أيامه كثر الخلق في عدن فبنوا الدور والأملاك وتوطن بها الناس. وبنى المعتمد "حمام حسين" في ساحل حقات وألحق به حديقة للأفيال كما عمر هناك مسجداً فخماً.

ذكر المسيو دي مرفيه قائد البعثة الفرنسية التي بعثت بها شركة تجارية فرنسية في سنة 1708م واصفاً حمامات حسين قال: "بين العمارات البارزة نجد حمامات رائعة منقوشة ومخططة بالبلور والمرمر والحجارة الملونة بالأخضر والأحمر والأزرق. والحمامات من الداخل مزينة بشرفات تسندها دعامات رائعة المنظر، وتنقسم إلى جزءين: أحدهما مغاسل وثانيهما غرف مسقوفة بالعقود".

وربما أن المعتمد بنى تلك الحمامات حوالي سنة 600هـ (1200م)، وليس هناك من يشير إلى شخصية حسين المعروفة تلك الحمامات باسمه، وربما أنه كان بانيها أو المشرف عليها.

وفي عهد المعتمد قدم إلى عدن سيف الدولة الأتابك سنقر متفقداً أحوالها، فأقام له المعتمد وليمة قدم له فيها نوعاً من النبيذ الزكي الرائحة، فأعجب الطعم سيف الدولة وسأل المعتمد: "كيف تصنعون هذا النبيذ الفاخر"؟

فأجابه المعتمد "نصنعه من ماء بئر الزعفران، فإننا إذا أخرجنا الماء من البئر ووضعنا فيه الكاذي ثم تركناه في الشمس تخمر وصار نبيذاً دون أن نضيف إليه عسلاً أو أي شيء آخر".

ومنذ ذلك الحين وأهالي صنعاء وتعز وزبيد والجند وغيرها من مدن اليمن يستوردون ماء بئر الزعفران. وكان أهالي عدن يصدرونه في زمزميات مختومة. إلا أن ماء بئر الزعفران تحول مع الزمن وصار مخلوطاً بالتراب وفقد قيمته.

حيلة الملك المسعود:

ذكر ابن المجاور أن الملك المسعود حينما عزم على السفر إلى مصر مرة ثانية استناب نور الدين عمر بن علي بن رسول وسلمه جميع أمورها واستحلف له الجند، ثم تجهز المسعود بجهاز عظيم لم يسبقه إليه ملك، من جملة ذلك ألف خصي، وخمسة صناديق من فاخر الثياب والأقمشة والملبوس، وثلاثمئة بهار من العود الرطب والعنبر الفاخر، وأربعمئة سرية، ومن الجواهر واللآلئ والأحجار النفيسة ما لا ينحصر، وسبعون ألف ثوب صيني معلم بالذهب، ومن الصنائع ما لا ينحصر عدده حتى قيل: إن المراكب التي حملت ذلك بلغت سبعين مركباً .. وذلك أنه أعلن في البنادر أن من أراد السفر إلى الديار المصرية فليسافر مع الملك المسعود قبل سفره بمدة. فأقبلت التجار من كل ناحية بأنواع التجارات والبضائع، فاجتمع بهم في ثغر عدن وقال لهم: "بيعوني هذه البضائع التي

عندكم لتسلموا من العشور" فباعوها عليه فأخذها منهم وكتب لهم بأثمانها إلى اليمن وأحال لهم بحوالات إلى كل ناحية، فصاحوا بالويل والثبور فلم يلتفت إليهم، ولم يحصل لأكثرهم شيء.

وغادر المسعود عدن إلى مكة وقد اشتد به المرض، فأقام فيها أياماً إلى أن توفي بها يوم الاثنين 14 جمادى الأولى سنة 626هـ (1329م) وهو في السابعة والعشرين من العمر وأوصى أن يقبر بين الغرباء في مكة .. وبعد وفاته تقدم مملوكه حسام الدين لؤلؤ بأولاد سيده وحاشيته وحشمه وأمواله وآلته كلها إلى مصر.

انقراض دولة بني أيوب:

وصلت أنباء وفاة الملك المسعود وبقي الأمير عمر بن علي بن رسول نائباً لبني أيوب في اليمن ولم يغير سكة ولا خطبة، ولكنه أضمر الاستقلال بالملك فجعل يولي الحصون من يرتضيه ويثق به ويعزل من يخشى منه خلافاً. وكان يومئذ مقيماً بزبيد فاستولى على التهائم، ثم سار إلى الجبال وتسلم الجند وخدد وصنعاء.

دولة بني رسول

قيام بني رسول:

في سنة 630 هـ (1232م) أعلن الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول نفسه ملكاً على اليمن وعدن ومنح نفسه لقب "السلطان المنصور"، وأمر بأن يذكر اسمه على المنابر وأن يطبع اسمه على سكة النقود .. وبذلك انفصلت اليمن وعدن وتوابعهما عن دولة بني أيوب في مصر والشام.

وفي سنة 631 هـ (1233م) أرسل هدية إلى الخليفة المستنصر بالله العباسي في بغداد، وطلب منه تشريفه بالنيابة بالسلطنة في قطر اليمن. فوصل الشريف بالنيابة بحراً على طريق البصرة في سنة 632 هـ (1234م).

أصل بني رسول:

تذكر بعض المصادر التاريخية ومنها "العقود اللؤلؤية" للخزرجي أن أصل بني رسول يرجع إلى بني غسان. ولفظة "رسول" ليست اسماً علماً بل صفة لجدهم محمد هارون.

والسلطان الملك المنصور هو عمر بن علي بن محمد (الملقب رسول" بن هارون بن أبي الفتح بن يوحي بن رستم - وهذا من ذرية جبلة بن الأيهم بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة بن عمرو (الملقب مزيقيا) بن عامر (الملقب ماء السماء) بن حارثة (الملقب الغطريف) بن امرئ القيس (الملقب البطريق) بن ثعلبة (الملقب البهلول) بن مازن (الملقب زاد السفر وقاتل الجوع) بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وكان محمد هارون جليل القدر، فأدناه الخليفة العباسي وأنس به واختصه برسالته إلى الشام ومصر، ورفع الحجاب فيما بينه وبينه فانطلق عليه اسم "رسول" - أي رسول الخليفة - واشتهر به وترك اسمه الحقيقي حتى جهله الناس .. ثم انتقل محمد بن هارون من العراق إلى الشام ثم إلى مصر واستوطنها وتأهل بها وأنسل وصار أبناؤه وأحفاده من ذوي المراكز العالية فيها.

ولما غزا طوران شاه بن أيوب البلاد اليمنية كان يرافقه خمسة من بني رسول هم: شمس الدين علي بن رسول، وبدر الدين الحسن بن علي بن رسول، ونور

الدين عمر بن علي بن رسول، وفخر الدين أبو بكر بن علي بن رسول، وشرف الدين موسى بن علي بن رسول.

مقتل المنصور عمر:

كان السلطان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول رجلاً عسكرياً صائب الرأي عظيم الثقة بنفسه، وكانت له آثار جليلة القدر في عدد من المدن اليمنية .. وبنى مدرسة في عدن سماها "المنصورية" وجعلها قسمين: واحداً لتعليم فقه المذهب الحنفي، والآخر للمذهب الشافعي.

وفي ليلة السبت 9 ذي القعدة سنة 647هـ (1249م) كان في قصر الجند حينما وثب عليه جماعة من مماليكه وقتلوه. وقيل إن الذي أغراهم بقتله ابن أخيه أسد الدين محمد بن الحسين بن علي بن رسول. وخلف المنصور ثلاثة أبناء: المظفر يوسف، والمفضل، والفائز. وكانت مدة حكمه منذ انفصاله عن بني أيوب سبعاً وعشرين سنة.

المظفر يوسف بن عمر:

بعد وفاة المنصور عمر بن علي بن رسول تولى الحكم ابنه الملك المظفر يوسف الذي كان في "المهجم" وقت أن جاءه نبأ مصرع والده، فأسرع إلى زبيد واستولى عليها في 28 ذي القعدة من السنة المذكورة، ومن ثم استقر ملكه ودانت له البلاد.

وفي السنة التالية رحل المظفر يوسف من زبيد إلى عدن، فسار في طريق الساحل واستولى عليها وعلى لحج وأبين.

وفي سنة 665 هـ (1269م) تقدم المظفر نحو بلاد الجحافل (دثينة) وتوابعها، واحتلها وقتل عدداً من رجالها.

وفي سنة 668 هـ (1269م) قدم المظفر إلى عدن وأشرف بنفسه على تهيئة أسطول بحري كبير وجيش من المشاة والفرسان لاحتلال ظفار وحضرموت. فقد وقعت مجاعة في حضرموت فذهب عدد من أمرائها ورؤساء قبائلها إلى السلطان سالم بن إدريس الحبوضي وعرضوا عليه حصونهم وقلاعهم مقابل مساعدته لهم بالمال والزاد، فرضي وتسلم منهم الحصون والقلاع وسلمهم المال والزاد، ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا وعدهم فاستولوا على مراكزهم وصار السلطان ولا مال

لديه ولا بلاد. وعاد إلى بلاده ظفار بعد أن فشلت محاولاته لاسترجاع ما أخذه منه أهل حضرموت. وفي تلك الأثناء كان المظفر يوسف قد بعث بهدايا قيمة لملك العجم وأمرائها تحملها سفينة ضخمة تحمل عدداً من التجار وأموالهم. وأجبرت الرياح العاتية السفينة الملكية إلى الالتجاء إلى ميناء ظفار فاستولى عليها السلطان سالم وعد ذلك تعويضاً له عما فقده في حضرموت.

بناء أسطول في عدن:

لما علم المظفر يوسف بما وقع لسفينته والهدايا التي تحملها أرسل خطاباً إلى السلطان يلومه فيه على ما عمله ووصف ذلك العمل بأنه من أعمال (قطع الطريق)، ويذكره بحسن الجوار والمكافآت التي يقدمها له المظفر، وينصحه بأن يتأدب بآداب القرآن. وذكر المظفر في نهاية خطابه الآية الكريمة: "وما كنا معذبين حتى نبعث إليهم رسولاً".

ولما تسلم السلطان سالم خطاب المظفر غضب وفهم من الآية أنها تتضمن تهديداً من المظفر للسلطان، ورد عليه بخطاب قال فيه: "هذا الرسول فأين العذاب؟".

ولما وصل جواب السلطان إلى المظفر أمر والي عدن الأمير شهاب الدين غازي ابن المعمار بأن يجهز عسكراً لتأديب سلطان ظفار. وجهز الوالي عسكراً في البحر إلى ظفار وقاتل أهلها أياماً، ولكن الحرب لم تأت بنتيجة فعاد إلى عدن.

وجهز السلطان سالم عسكراً سار بهم في السفن نحو شواطئ عدن وفي نيته أن يستولي على عدن، فوصلت غارته إلى مقربة من سواحل عدن، فأرسل الوالي إلى المظفر طالباً النجدة.

وكان المظفر حينئذ في مدينة الجند، فاستشاط غضباً وأمر بتجهيز أسطول بحري يتكون من الشواني والطراريد والمراكب وأنواع أخرى من مطايا البحر.

وأقبل المظفر بنفسه إلى ثغر عدن، وأنفق كميات كبيرة من الذهب والفضة لتجهيز الأسطول والجيش في عدن، وعين الأمراء والمقدمين للجيش. وكان الأتابك شمس الدين إزدمر (الملقب أستاذ دار) من أشهر قواد الجيش المظفري فعينه المظفر قائداً عاماً للحملة. وقسم هذا القائد جيشه إلى ثلاث فرق:

فرقة البحر: وتتكون من معظم فريق المحاربين المشاة، وأسند قيادتها إلى المقدم فارس بن أبي المعالي الجزائري، والمقدم محمد بن محمد ناجي، والمقدم

همام بن علي بن غواض المليكي، والأمير جبار الدين حسن بن علي المذحجي والأخير كان أكثرهم جيشاً.

فرقة حضرموت: وتتكون من ثلاثمائة فارس من العرب بقيادة الشيخ بدر الدين عمر الجنيد، ويبدأ تقدمهم من صنعاء.

فرقة الساحل: تتكون من أربعمائة فارس من المماليك البحرية بقيادة الأمير حسام الدين لؤلؤ التوريزي، وهو أمير العلم المنصور.

وسارت فرقة طريق حضرموت براً وهو ممتلئ بقلاع بني الحبوضي وحلفائهم. ولاقت هذه الفرقة كثيراً من المقاومة، لم تمض عليها ليلة واحدة دون معركة. وما زال الفرسان يتخلفون حتى وصل الشيخ الجنيد إلى مقربة من ظفار في مائة وعشرين فارساً بعد خمسة أشهر من خروجهم من صنعاء.

وسارت الفرقة الأولى عن طريق الساحل بقيادة القائد العام، وكانت صعبة وعرة عبر الجبال والصحاري، فكان يسير ومن معه أضعف السير.

وسارت الفرقة الثالثة وهي الأسطول مقابلة لفرقة القائد العام. وكان القائد العام كلما بعدت به الطريق عن الساحل تعب رجاله وضاقت أحوالهم حتى يدور بهم الطريق إلى الساحل فيستريحون لأنهم يتناولون من سفن الأسطول ما أرادوا من التمر والطعام وسائر الحبوب والحوائجخانات وأنواع الأسلحة من القنا والسيوف والزرد والبيض والقسي والقنابل والسهام والأتراس ونعال الخيل واللجم وغيرها من أنواع العتاد.

وكانت السفن تحمل ستة منجانيقات بجميع عددها وآلاتها ورجالها وأحجارها وقد أرست في البحر ألف قطعة، والقطعة هي الجوالق العظيمة من أنواع المراكب وما فقدت منها واحدة، وكانت الأسواق في البحر قائمة كأعظم ما تكون أسواق المدن وفيها الطباخون والخبازون وأرباب الصناعات.

واستمرت كل فرقة تسير حسب ما أمكنها السير حتى اجتمعت الفرق الثلاث في يوم واحد في بندر ريسوت.

وأقبلت قطع الأسطول تتقدمها السنابيق ثم الطراريد (الطراد هو المركب الأعظم) والسيوف مسلولة والأعلام منصوبة. وكانت إحدى الطراريد تحتوي على الخزانة وفيها أربعمائة ألف دينار وتحمل أيضاً أصنافاً كثيرة من القماش البندقي والسوسي والموصلي والزبيدي.

وجمع القائد العام رجاله وعددهم خمسمائة فارس وسبعة آلاف من المشاة في بندر ريسوت ومن هناك تقدم بهم نحو عوقد. وأقبلت عساكر ظفار يتقدمها السلطان سالم بن إدريس. واصطف الجيشان متقابلين متحفزين على بعد يسير من ظفار.

ووزع شمس الدين أزدمر جنوده؛ فجعل نفسه على رأس قوة في القلب وجعل الشيخ بدر الدين عمر الجنيد في الميمنة، والأمير حسام الدين لؤلؤ في الميسرة.

والتقى الجيشان في معركة من أعنف ما شاهدت ظفار وحضرموت وعمن من معارك وأظهر الفريقان شجاعة فائقة في الدفاع والهجوم. وأسفرت المعركة عن انتصار باهر للجيش المظفري وانهزام شامل للجيش الظفاري.

ولما رأى السلطان سالم انهزام رجاله قذف بنفسه في أتون المعركة فأصابه سهم صرعه في الحال.

واستولى شمس الدين الدين أزدمر على ظفار بعد أن أسر ثمانمائة وقتل ثلاثمائة من العسكر الظفاري.

ولم يكتف جيش المظفر بذلك الانتصار الساحق بل قام بعض العسكر بذبح السلطان سالم وفصل الرأس عن الجسد ثم حملوا الرأس إلى المظفر في تعز.

وعاد القائد العام إلى اليمن يصحبه أمير العلم المنصور حسام الدين لؤلؤ وعدد من أمراء الجيش وشيوخ العرب في 27 رجب من السنة المذكورة.

احتلال حضرموت:

بعد أن تم لجيش المظفر يوسف احتلال ظفار صارت حضرموت فريسة سهلة للجيش الغازي؛ ففي الثامن من رمضان من السنة المذكورة احتل مدينة شبام وبعد ذلك انقادت حضرموت كلها. وبعد عودة شمس الدين أزدمر إلى اليمن بقي الأمير محمد بن محمد بن ناجي نائباً في حضرموت فأقام بها مدة ثم رجع إلى تعز.

وفي أحد المجالس سأله أحد الكبراء: " كيف عاملت أصحاب حضرموت؟" فأجابه: "لما حللت بشبام زاعمني رجل يقال له يماني وكان أعظمهم رجالاً فجمع عسكراً لقتالي وجمعت أيضاً لقتاله، وطاولته الحرب حتى أنفق ما كان عنده من صامت وناطق ولم يبق عنده شيء وكنت أنا أستمد العون من مولانا السلطان الملك المظفر. فلما لم يجد يماني شيئاً يصرفه على من معه وصلني

بنفسه، فلما أناخ بعيره على باب داري ودخل الحاجب يستأذن له قلت "يصل" فلما دخل قال "أعلم أني لما أردت الخروج أشهدت جماعة من أهل بيتي أنني على ذمة ابن رسول وذمتك يا محمد"، فقلت "وهما عليك"، ثم أكرمته وأحسنت إليه وجعلت له موضعاً يكفيه وعاد أهله على أحسن حال .. فجرى على ذلك النمط أربعة أقوام أحاربهم حتى يؤدوا أنفسهم إليّ، وبعد ذلك لم يرفع رأسه أحد من أهالي حضرموت".

وفاة المظفر يوسف:

في جمادى الأولى سنة 694 هـ (1295م) أسند المظفر يوسف إقطاع الشحر لابنه المؤيد داؤد واستخلف ولده الأكبر الأشرف عمر ليكون ملكاً بعده وكتب تقليداً بمشهد من رجال الدولة قال فيه:

"أما بعد، فقد ملكنا عليكم من لم تؤثر فيه داعي التقريب على باعث التجريب، وعاجل التخصيص على آجل التمحيص، ولا ملازمة الهوى والإيثار على مداومة البلوى والاختبار، وهو سليلنا الخطير وشهابنا المنير وذخيرتنا الذي وفق على المراد، ونصرنا الذي نرجو به إصلاح البلاد والعباد، ونؤمل فيه من الله الفوز والنجاة في الميعاد، وقد رسمنا له من وجوه الذب والحماية، ومعالم الرفق والرعاية، ما قد التزم بوفاء عهده، ومضى عزمه بجده وجهده، والمسئول في إعانته من الأعوان من عنده، ولن نعرفكم من حميد خصاله، وسديد فعاله، إلا ما قد بدا للعيان، وزكا مع الامتحان، وفشى من قبلكم على كل لسان شعرا:

وشهدتم به وشاهدتموه	وحمدت عقباه في كل أمر
من حناديس ظلمة شملتكم	كان في كشفها لكم ضوء فجر
سيفه مغمد عليكم ومسلول	على كل من رماكم بنكر
لم يزل منذ حل عن جيده الطوق	خليقاً بكل حمد وشكر

وقد حددنا له أن يكون بكم رؤوفاً رحيماً، جواداً كريماً، ما أطعتموه على المراد، ومطاعة الانقياد، فأما من شق العصى، وبان عن الطاعة وعصى، فهو بعض منه ولو مت إليه بالرحيم الدنيا، فكونوا له خير رعية بالسمع والطاعة يكن لكم بالبر والإحسان خير ملك ووال".

وغضب المؤيد داؤد ولكنه أخفى نقمته ورحل إلى الشحر.

وفي 13 رمضان من السنة المذكورة توفى المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول، وخلفه في الحكم ابنه الملك الأشرف عمر.

بين المؤيد داؤد والأشرف عمر:

وصلت أنباء وفاة المظفر يوسف إلى ابنه المؤيد داؤد وهو في الشحر فأسرع عائداً عاقداً العزم على منازعة أخيه وانتزاع الملك منه. وفي طريقة احتل أبين، وانضمت إليه جماعة من عسكر أخيه الأشرف وفرت الجماعة الأخرى.

ثم سار المؤيد ورجاله في ساحل أبين حتى اقترب من عدن، واستعان بصياد عدني فقير على إرشاد ثلاثمائة من عسكره على تسلق جبل التعكر من ناحية باب عدن. وفي الفجر توجه المؤيد ورجاله نحو الباب، ولما حاول حراس الباب الدفاع عنه هبط عليهم الثلاثمائة عسكري الذين أرشدهم الصياد العدني فتشتت المدافعون وهربوا إلى وسط المدينة.

ثم دخل المؤيد عدن ودعا حاكمها وناظر مينائها وذكر لهما أن عدن صارت من ممتلكاته. وبعد ذلك استولى المؤيد على لحج.

ولما علم الأشرف عمر باحتلال المؤيد لعدن ولحج وأبين جهز فرقة من المشاة وفرقة من الفرسان بقيادة الناصر محمد بن الأشرف. وجهز جمال الدين علي بن عبد الله ونجم الدين وبدر الدين ولدي الأتابك شمس الدين أزدمر. ثم طلب إمدادات من صنعاء وغيرها وأرسل بها نجدة لولده الناصر محمد.

ولم يكن مع المؤيد داؤد غير عسكره الذين رافقوه من الشحر وجماعة من الجحافل وَمُقدمهم عمر بن سهيل.

وتقدم عسكر الأشرف من قرية "الراحة" إلى "الجوة" في لحج ومعهم الأشرف بنفسه. ثم ساروا نحو الكثيب. واشتبك الفريقان وتمكن عسكر المؤيد من إيقاع الهزيمة بعسكر الأشرف في أول الأمر في الكثيب، إلا أن الشريف جمال الدين التحم بعسكره مع عسكر المؤيد وأمكنه من تشتيت معظمهم، فانسحب المؤيد إلى الدرب في الدعيس حيث أحاط به عسكر الأشرف ونهبوا خزانته وآلة حربه. ثم دخل عليه الناصر وتحدث معه قليلاً. وبعد ذلك خرجوا إلى خيمة أخرى فقيد المؤيد وولديه الظافر والفائز. وفي الصباح سار بهم العسكر إلى الجوة، فأمر

الأشرف بإكرام أخيه الأسير وبعث به إلى حصن تعز في التاسع من محرم سنة 695 هـ (1297م).

وفي السنة التالية توفي الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول، وكان ولده الناصر محمد في القحمة وولده الثاني أبوبكر العادل في صنعاء. أما أخوه المؤيد فكان ما زال سجيناً في حصن تعز، فجاءه بعض الناس ينعي إليه أخاه الأشرف، فخرج من سجنه ووقف أمام جثمان أخيه يبكيه بمرارة وأعلن الحداد من فوق حصن تعز كما أعلن نفسه ملكاً على اليمن خلفاً لأخيه الأشرف عمر.

احتفال ملكي في ساحل حقات:

في آخر شوال سنة 698 هـ (1299م) قدم المؤيد داؤد إلى عدن وأقام بها إلى ذي الحجة وقضى فيها عيد الأضحى، فأقيم احتفال عظيم في ساحل حقات تحت دار المنظر. وامتد سماط على الساحل وقام الشعراء على السماط يتبارون في مدح المؤيد.

وقدم التجار المقيمون بثغر عدن هدايا نفيسة على عوائد الملوك، فردها إليهم المؤيد وأمر بإضافة الخلع عليهم والتشاريف والبغال المختارة بالعدد الكاملة والسروج المذهبة والزنانير المنوعة.

وأجرى نواخيذ الهند استعراضاً على جاري عادتهم، فأكرمهم المؤيد كما أكرم بقية النواخيذ المترددين بسفنهم على ثغر عدن.

وأمر المؤيد بإبطال الضمان في بيت الحل، وأظهر العدل وشاهد موسم سباق الخيل من باب الطويلة.

واشتهر المؤيد بالكرم، ومن دلائل ذلك أنه وهب خزانة عدن كلها لأحد خواصه! وكان فيها من المال شيء كثير ومن الملابس والأطياب والتحف ما يجاوز العد، لكن الأمراء منعوا تسليم الخزانة لذلك الرجل واحتجوا بأن فيها كسوة الملك وكسوة عائلته وأطيابهم وما لا ينبغي إلا للملك، وأعطوه بدلاً من الخزانة أربعين ألف دينار ومن الكسوة والطيب ما يليق بحاله حتى طابت نفسه!

ابن طغرطل:

وفي سنة 700 هـ (1301م) أمر المؤيد بتعيين الأمير الكبير سيف الدين أبو علي ابن طغرطل نائباً له على عدن ولحج وفي أيام هذا الأمير وقع اكتشاف قبر الداعي سبأ بن أبي السعود بن زريع في سفح جبل التعكر كما ذكرنا في موضعه.

وأمر المؤيد بتعيين الأمير بدر الدين محمد بن الحسن بن نور والياً على أبين.

عماد الدين إدريس والجحافل:

في سنة 702 هـ (1303م) عزل المؤيد ابن طغرطل، وعيّن بدلاً منه الشريف عماد الدين إدريس بن علي، فوصل الشريف إلى عدن في الرابع من ربيع الآخر من السنة المذكورة.

وكانت الجحافل (قبائل دثينة) قد حطت بالصعيد، فلما وصل الشريف إلى الدعيس ارتفعوا من محطتهم، فأغار عليهم عسكر الشريف وقتلوا أحد كبار الجحافل وهو الشيخ يوسف بن مدقة وقطعوا رأسه، ثم توجهت القبائل نحو صهيب فتبعهم الشريف إلى هناك حيث تقابل مع الأمير بدر الدين نائب المؤيد في أبين، وزحف الاثنان بعسكرهما نحو الشعبة. ثم جهز الشريف عسكراً إلى الساحل لمقاتلة الجحافل الذين فقدوا فارسهم الشيخ إبراهيم بن سعد بن عبد العزيز.

وفي سنة 703 هـ (1304م) توجه الشريف نحو الجحافل الذين جمعوا أربعين فارساً ومئتي راجل فقتل منهم عدداً كبيراً .. وتمكن الجحافل من قتل الشريف علي بن محمد الأبرص ابن عم الشريف إدريس بن علي.

في ميناء عدن:

في سنة 703 هـ (1304م) قدم إلى ميناء عدن أحد كبار تجار الشام واسمه عبد العزيز بن منصور الحلبي، ومعه من الحرير ومن المسك المفرغ بالرصاص 450 رطلاً وعدد ضخم من الفخار الصيني والأواني الشم المطعمة بالذهب والصحون الكبار والثياب المختلفة الألوان وعدد كبير من المماليك والجواري. وزعم التاجر أن كل ما يحمله صدقة للحرمين الشريفين على يديه من تجار الناحية التي أقبل منها. فتقرر عشور ما وصل به إلى ميناء عدن ثلاثمائة ألف

دينار. فلما استقر التاجر بعدن توجه إلى الباب الشريف فقابله المؤيد داؤد بالإنعام، فقدم بين يديه هدايا من النقود والتحف استحسنها المؤيد وتقبلها وأهداه عوضاً عن ذلك خلعاً نفيسة وأعطاه المراكب السنية .. وتقدم المرسوم الشريف إلى نواب الميناء بإجلال التاجر الحلبي وإكرامه.

نواب عدن:

عين المؤيد داؤد نائباً جديداً في لحج هو الأمير عمر بن بالبال الدوايدر الذي كان رومي الجنس من المماليك المنصورية، وكان شجاعاً حازماً.

وولى الأمير حسن بن علي الحلبي نائباً في عدن.

وفي سنة 704 هـ (1305م) عين المؤيد الأمير بن بهرام نائباً على أبين وأعمالها.

وفي هذه السنة نزل مطر غزير في عدن تبعته سيول كثيرة تدفقت من الجبال فخربت بيوتاً كثيرة وجرفت معها بيوتاً أخرى.

الملك المجاهد علي بن داؤد:

في سنة 721 هـ (1321م) توفي الملك المؤيد داؤد بن يوسف بن عمر بن علي ابن رسول بعد أن قضى في الحكم حوالي ست وعشرين سنة. وتولى الملك بعده ابنه الملك المجاهد علي الذي كان حينذاك في الخامسة عشرة من عمره. وبعد أن استقر له الأمر عزل الأمير جمال الدين محمد بن يوسف بن يعقوب عن نيابة المملكة وعين الأمير شجاع الدين عمر بن يوسف بن منصور بدلاً منه كما أسند إليه مهمة "أتابك الجيش". ثم أمر المجاهد بالقبض على الناصر محمد بن عمه الملك الأشرف عمر وأرسل به ليسجن في عدن.

وتوجه المجاهد إلى حصن الدملوءة فمكث فيه أياماً وافتقد الخزائن ثم نزل إلى ثعبات.

وانتظر العسكر من مجاهد أن يقدم لهم رواتبهم ولكن انتظارهم طال فثاروا على إهماله لهم. واجتمع أمراء الجيش وكبار المماليك في مؤتمر سري قرروا فيه القيام بانقلاب عسكري والتخلص من بعض الشخصيات البارزة التي يعتمد المجاهد عليها. وحين حل يوم تنفيذ الانقلاب قصد بعضهم إلى بيت الأمير شجاع الدين وكان يسكن ناحية المجاذيب في تعز فداهموا بيته وقتلوه وقتلوا

معه صهره الأمير محمد بن علي الهمام، وكان معهما قاضي القضاة الفقيه عبد الرحمن الظفاري والشيخ محمد بن عثمان الحكمي العيسي فقتلوهما أيضاً، ثم خرجوا من فورهم وحاصروا المجاهد ثم هشموا أبواب الدار ودخلوا شاهرين سيوفهم فواجههم المجاهد، ورغم شجاعته ورباطة جأشه رأى أن الشجاعة لن تجديه نفعاً أمام كثرتهم فاستسلم لهم.

وفي تلك الليلة نهب العسكر عدداً من بيوت ثعبات التي يملكها أنصار المجاهد.

وسار رؤساء الانقلاب ومعهم المجاهد أسيراً إلى مدينة تعز، وسلموه للمنصور أيوب بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول.

المنصور أيوب:

بقي المجاهد تحت الحجز ثلاثة أيام كان المنصور خلالها يستحلف الجند لنفسه فحلفوا له يمين الولاء.

وفي اليوم الرابع توجه المنصور إلى حصن تعز في موكب ملكي، وأطلع المجاهد معه وجعله في دار الإمارة على الإعزاز والإكرام، وأمر بأن يقدموا له ما يشتهيه من الطعام والشراب وغير ذلك.

ولما استقر الأمر للمنصور أطلق سراح ابن عمه الناصر محمد من سجن عدن، وجعله حاكماً على إقطاع واسع يضم المهجم حتى عدن.

وأرسل المنصور ابنه الملك الظاهر عبد الله إلى الدملوءة وفي خدمته القائد افتخار الدين ياقوت التعزي.

الأدار الكريمة جهة صلاح:

ولم يستطع المجاهد الخلاص من سجنه فقد كانت الحراسة شديدة عليه.

وكانت أمه "الأدار الكريمة جهة صلاح" تفكر وتدبر وسيلة لإنقاذ ابنها من الأسر. فتمكنت من استمالة عدد من الرجال بذلت لهم الرغائب فقبلوا القيام بالمغامرة.

واجتمع أحد غلمان المجاهد وفريق من الناس كان مقدمهم "بشر الذهابي"، واتفقوا مع شخص اسمه صالح بن الفوارس على طلوع الحصن من جانبه الخلفي من ناحية "الشريف" بمساعدة عبيد الشرابخاناه وجماعة من الحرس

الموجودين في الحصن، فأدلى هؤلاء بالحبال لصالح بن الفوارس وأربعين رجلاً مسلحاً فتسلقوا واحداً بعد الآخر. فلما صاروا بالحصن أرادوا الهجوم فمنعهم عبيد الشرابخاناه وطلبوا منهم ألا يحدثوا صخباً حتى يأمروهم. فأمسى الأربعون رجلا بالحصن وفي الصباح نزل الخادم بمفاتيح الحصن. ولما علم عبيد الشرابخاناه بنزوله خرجوا مع العسكر الذين معهم وضربوه بسيوفهم.

وعندئذ انتشر العسكر في الحصن. وهبطوا إلى غرفة المنصور أيوب وقيدوه.

وكان والي الحصن والحرّاس ينامون في دار المضيف، فلما رأى الرجال يتقدمون منادين بشعار المجاهد استل سيفه وقاتلهم قتالاً شديداً حتى قُتل.

النهب في تعز:

سمع الناس في تعز بالمنادي من أعلى الحصن بالسلطنة للملك المجاهد علي، فارتجت المدينة، واستولى الرعب على الأهالي وتوقعوا شراً واعتصموا ببيوتهم للدفاع عنها.

ولما سمع الناصر محمد النداء أسرع مع عدد من رجاله إلى الحصن، ولكنهم وجدوه مغلقاً. وركب المماليك وسائر الأمراء البحرية وراء الناصر وقالوا له: "إن كان المنصور أيوب قد مات أو قتل أو قبض فأنت أولى بالملك".

وأطل المجاهد من أعلى الحصن فرأى الخطر يحدق به، فعمل الشيء الوحيد الذي أنقذه من ذلك الخطر، إذ أمر منادياً ينادي "يا أهل تعز إن بيوت المنصورية حلال لكم".

فارتبك الأمراء وملوك بني رسول ورجعوا إلى بيوتهم. ولم تمض لحظات حتى انقلبت تعز إلى ميدان صاخب تعمه الفوضى ويموج فيه الرعاع، فالمعارك في كل شارع وزقاق، والأصوات تنبعث من النساء والأطفال والعجزة خلال النوافذ والشبابيك، واقتحم الغوغاء بيوت أمراء بني رسول فنهبوها وفتكوا بالنساء والأطفال ففروا إلى الشوارع لا يسترهم لباس بعد أن انتزع الناهبون ثيابهم وكل ما يملكون من حلي ومجوهرات وأثاث، فالتجأوا إلى المساجد والمدارس واستتروا بحصيرها وأستارها.

ورأت أم المجاهد ما وصلت إليه حالة العائلة الرسولية في نصف نهار، فكتبت إلى ولدها تقول: "أعلمك يا ولدي أن بنات عمك وسائر بنات الملوك هتكن ونهبن ولم تبق لهن باقية، وقد صرن في حصير المساجد والمدارس وأستارها".

عندئذ أمر المجاهد منادياً ينادي: "يا أهل تعز من أخذ شيئاً من بيوت الملوك فليرده" فتوقف النهب.

ثم أمر المجاهد بالقبض على أمراء بني رسول وعلى رأسهم الناصر محمد وولده دين الإسلام، وأيضاً على الكامل بن المنصور أيوب، وسجن كل واحد منهم على انفراد.

الظاهر عبد الله بن أيوب:

كانت مدة ولاية المنصور أيوب ثمانين يوماً وقيل تسعين يوماً. وبعد القبض عليه أمره المجاهد بأن يكتب إلى ابنه الظاهر عبد الله بتسليم حصن الدملوءة للمجاهد، فكتب المنصور الرسالة ولكن الظاهر رفض تسليم الحصن. فجهز المجاهد عسكراً لقتاله إلا أن الظاهر استطاع أن يستميل بعض مقدمي العسكر فارتفع الحصار عن الدملوءة. وفي صفر سنة 723هـ (1323م) توفي المنصور أيوب في السجن.

عمر بن بالبال الدويدار يحتل عدن:

كان الأمير عمر بن بالبال الدويدار نائباً على لحج. وفي شعبان سنة 723 هـ (1323م) أعلن العصيان على المجاهد وسار إلى عدن وحاصرها عشرين يوماً. وكان فيها عسكر من يافع للدفاع عنها. ولم يكن هؤلاء على وئام مع المجاهد فاجتمعوا بابن الدويدار سرا وقرروا تسليم عدن له.

وتم لابن الدويدار احتلال عدن وخطب فيها للملك الظاهر عبد الله بن المنصور أيوب، وألقى القبض على حاكمها الأمير حسن بن علي الحلبي وأرسل به إلى الظاهر فاعتقله في حصن السمدان. ثم أرسل الظاهر بنائبه جعفر بن الأنف إلى عدن ليطلع إليه بالأموال التي تجمعت في خزانة عدن ... وفي 20 شوال عاد ابن الأنف إلى الدملوءة ومعه خزانة وافرة وأقمشة كثيرة كانت تحتويها خزانة عدن.

حصار المجاهد في حصن تعز:

في رمضان سنة 724 هـ (1324م) جهز الأمير عمر بن بالبال الدويدار عسكراً من لحج وأبين وضمهم إلى المماليك القادمين من زبيد، وتقدموا إلى تعز

للاشتراك في حصار المجاهد مع الأمير بن حسين قائد جيش الظاهر .. وأرسل الظاهر منجانيقاً من الدملوءة مع الغياث بن نور الشيباني. وكان عمر بن بلبال الدويدار قد طلب منجانيقاً من عدن أرسلت أجزاء منه بحراً إلى موزع وحمل بعضه على رقاب الرجال براً من عدن إلى تعز. ووضع المنجانيق العدني أمام الحصن بين المدرستين الأفضلية والمجاهدية. وكان المنجانيق يقذف بحوالي أربعين حجراً في اليوم على الحصن.

واستمر حصار الحصن حتى وصلت الأنباء إلى تعز بانهزام المماليك أمام أشراف صعدة بقيادة الشريف علي بن موسى في وادي جاحف القريب من مدينة الكدراء وتقهقر من بقي من المماليك إلى زبيد.

وكانت تلك الأخبار سبباً في اضطراب عسكر بن الدويدار المماليك خاصة وأنه كان قد منع عنهم مصروفاتهم، فانسحبوا من تعز وارتفع الحصار عن الملك المجاهد في 10 شوال 724 هـ (1324م).

أورد بعض المؤرخين أسطورة تناقلها الناس ربما كان الغرض من نشرها إحاطة المجاهد بجو من الرهبة وللإيحاء بأن يعيش في حماية روحية خفية .. فقد قيل: إنه بينما كان واقفاً في الحصن وأصوات المنجانيقات تمزق سكون الليل وهي تقذف الحجارة الضخمة، سمع سكان الحصن صرخة عالية وراء المجاهد قد انشق وخرج منها غلام تام الخلقة وله دبوقة إلى آخر ظهره، فأكب على المجاهد واعتنقه وحمله بسرعة من ذلك الموضع إلى موضع آخر. وفي الحال وقع حجر ضخم في نفس الموضع الذي كان المجاهد واقفاً فيه وأتلفه.

وفزع الحاضرون، والتفت المجاهد إلى الغلام وقال له مندهشاً: "من أنت يا أخي الذي أرسل الله بك إلي".

فقال الغلام: "أنا والله أخوك حقيقة وأبي والله أبوك داؤد المؤيد وأمي الجارية فلانة ولكن الجن أخذوني من بطن أمي وصرت كما ترى .. ولما رأيت هذه الحجرة مقبلة نحوك وقاتلتك لا محالة حملتك من ذلك الموضع محبة لك وشفقة عليك. واعلم يا أخي أنني قد اتفقت معه ساكن الحصن بصبيص على أن نقاتل معك في العاشر من شوال 724هـ فاجمع من معك لذلك اليوم فإننا سنبلغ ما نريد من نصرك". واختفى الغلام كما ظهر.

وأقبلت الأدار الكريمة طائرة العقل على ابنها وجلست عنده تستخبره عن ذلك الرجل وما كان منه فأخبرها بما قال، ثم سألها عن الجارية فقالت له

الأدار الكريمة "صدق والله فلقد كانت جارية أبيك وكانت حاملة منه، فلما أشرفت على الولادة أصبحت يوماً وقد مسح ولدها في بطنها وغاب أثره ولم يظهر لحملها علامة".

حصار عدن:

عاد الأمير عمر بن بالبال الدويدار وعساكره إلى لحج. وهناك جهز نفسه لغزو عدن والاستيلاء عليها لنفسه.

وفي آخر سنة 725هـ (1325م) ضرب ابن الدويدار حصاراً شديداً على عدن. وأراد واليها ربيع بن الصليحي الهمداني أن يخادعه فطلب أن يفاوضه.

وبالقرب من باب عدن قال ابن الدويدار لربيع: "إنني أريد دخول عدن فلماذا تمنعها عنا"؟

فأجابه ابن الصليحي: "البلد بلدك ولكن المصلحة أن تدخل في جماعة من عقلاء أصحابك حتى لا يحصل منهم تشويش على الناس، ومن يؤمن شره وغائلته على أهل عدن". فوافق ابن الدويدار وهو يضمر الغدر بابن الصليحي.

ودخل ابن الدويدار إلى عدن بعد أن طلب من أخيه البقاء في محطة العسكر خارج باب عدن حتى تصله الإشارة. واستقبله ابن الصليحي عند باب عدن وسار به إلى دار الحكم حتى رأى أمامه سماطاً حافلاً بالطعام، فجلس الجميع يأكلون ويتحدثون في مختلف الشئون. ولما رفعت المائدة قاد ابن الصليحي ضيفه إلى ديوان واسع وأمر الخدم بتقديم الشراب فدارت الكؤوس حتى منتصف الليل.

وفي الصباح دخل بن الدويدار إلى الحمام وسار وراءه خادمه الخاص الجاندار مياح، ولما قعد في مخلع الحمام سأله أحد خواصه: "يا مولانا لمن أخذت هذه البلاد، للمجاهد أم للظاهر"؟

فأجابه الجندار مياح: "هذا المجاهد وهذا الظاهر".

فأدرك السائل أن الأمير عمر أخذ عدن لنفسه، فأسرع خارجاً من الحمام وذهب إلى ربيع الصليحي ونقل إليه ما جرى بينه وبين الدويدار، فجمع ابن الصليحي الحراس وقادهم إلى الحمام، ولم يشعر ابن الدويدار إلا وهم يرفعونه من مخلعه ثم يضربونه بالسيوف حتى برد جسده. وكان قتله في السابع من ربيع الأول من السنة المذكورة.

وسمع أخوه علي صائحاً يصيح بقتل الأمير عمر فامتطى على حصانه وفر إلى حصن منيف. ثم جهز ربيع بن الصليحي عسكراً سار بهم إلى لحج واستولى عليها.

المجاهد عند باب عدن:

في 15 شعبان من السنة المذكورة خرج الملك المجاهد علي إلى لحج، وهناك قابله الأمير ابن ناصر الدين في مائتي فارس ومائة راجل. وانضمت الجماعتان إلى عسكر المجاهد. ولحقت جماعة من قبائل الجحافل بالمجاهد وانضوت تحت لوائه.

كانت تلك ليلة النصف من شعبان، فاجتمع الناس في المسجد الجامع في لحج وحضر معهم المجاهد، وفي آخر الليل ركب متوجهاً نحو عدن يصحبه عسكره المماليك و"الشفالية" والمنضمون تحت لوائه.

وتوقف المجاهد في مسجد قرية المباه الكائن بالقرب من عدن وبقي هنالك يومين، ثم أمر بالزحف على عدن.

وكان أهالي عدن قد علموا بقدوم المجاهد فخرجوا لقتاله رغم قلتهم. وفي أول مناوشة قتلوا ثلاثة من الشفالية فغضب المجاهد وساورته الشكوك في عساكر علي بن الدويدار، فأمر بالقبض عليه وابنه وابن أخيه وأستاذ داره المعز بن مكتوف.

وقضى المجاهد سبعة أيام في المباه ثم انتقل إلى الأخبة "بير أحمد"، فحطّ في بستانها وأقام هناك ثمانية أيام.

وبعد ذلك وقع شغب بين العسكر فخشي المجاهد من تفرقهم فأمر بالانسحاب إلى زبيد، واصطحب معه علي بن الدويدار. ولما وصل إلى العارة أغرق المعز ابن مكتوف في البحر. وفي رمضان وصل إلى زبيد.

الظاهر عبد الله في عدن:

لما علم الظاهر عبد الله بن المنصور أيوب انسحاب المجاهد من عدن، نزل من الدملوءة ودخلها في 17 رمضان من السنة المذكورة ومعه نحو خمسين فارساً من البحرية.

ذكر البهاء الجندي أنه علم أن الظاهر لما دخل عدن كان الذين معه أحد عشر فارساً، ثم وصل نحو مائة وثمانين فارساً من أهل ذمار فمنعهم الوالي ربيع

ابن الصليحي من دخول عدن خوفاً على الأهالي منهم، فدخل جمع يسير منهم مع مقدمهم. واستمر بقيتهم يدخلون خلسة حتى اجتمع منهم نحو خمسين فارساً ذهبوا إلى دار ابن الصليحي وحبسوه ثم خنقوه في الحبس .. ويقال إن الذين فعلوا ذلك كانوا من عبيد الظاهر.

ثم أمر الظاهر بتعيين ابن أيبك المسعودي والياً على عدن، ومحمد بن الموفق ناظراً على مينائها.

المجاهد والظاهر يتقاتلان في عدن:

خرج المجاهد علي من مدينة الجند في 19 صفر سنة 726هـ (1326م) فحط في "الرجامية"، ثم سار منها إلى الأخبة بجيش من الغز والمماليك والأكراد والشفالية.

وفي 25 صفر غزا قرية المباه. وكان الملك الظاهر قد رتب فيها محطة عسكرية فحصل بين الفريقين قتال فانهزم عسكر الظاهر بعد أن فقدوا سبعين رجلاً، وحاولوا الاحتماء بباب عدن ولكن الظاهر منعهم من الدخول فعادوا إلى المباه. وفي تلك المعركة فقد المجاهد أربعة من رجاله.

ثم وقعت معركة أخرى فقد المجاهد فيها قتيلين وأسيراً واحداً، فظن أن عسكر الأكراد الذين معه لم يخلصوا له. ولما بحث الأمر تحققت ظنونه فانسحب إلى الأخبة وأقام فيها حوالي نصف شهر ثم عاد فغزا إلى جبل التعكر.

وكان من بين الذين خاضوا المعركة معه ابنه الملك المفضل والأمير داؤد ابن عمر بن سهيل والأسد بن صالح وقائد معروف باسم "الزعيم" كان أتابك الجيش وكان رجل فكر وتدبير، فكان إلى جانب اشتراكه في العمليات الحربية مديراً للتموين. ذكر الجندي والأهدل أن الزعيم كان على أحسن طريق من وضع الأشياء في مواضعها الصحيحة في وقت قل فيه الطعام. فكان يقدم سماطين من الطعام لذوي الحاجات من الجند.

وبينما الأهالي يدافعون عن عدن ضد المجاهد كانوا يصرخون بالثناء على الشفالية وبالشتائم على الغز والأكراد لأجل أن يسببوا انشقاقاً في صفوفهم. وانسحب المجاهد مرة ثانية إلى الأخبة.

وفي 7 ربيع الآخر من السنة المذكورة قبض عسكر المجاهد على حامل بريد كان في طريقه إلى عدن، ولما فتشوه وجدوا معه رسالة من الأمير ابن الأسد إلى

الظاهر يذكر له فيها أنه واصل مع الإمام محمد المطهر في ألف فارس واثني عشر ألف راجل .. فاضطربت محطة المجاهد لذلك النبأ ولا سيما عسكر الغز والأكراد وأصدر المجاهد أمره بالرحيل فوصل مدينة الجند في 28 ربيع الآخر من السنة المذكورة ثم عاد إلى تعز.

هزيمة الظاهر في جرانع:

في جمادى الآخرة من السنة المذكورة خرج الظاهر عبد الله وجميع من معه من العسكر من عدن إلى لحج، وهنا التقى بالإمام محمد بن المطهر والأمير ابن الأسد ومعهما مائتا فارس فقط من أهل "إب".

ولما وصلوا إلى جرانع خرج إليهم بعض أهلها وأغروهم على احتلال حصن الظفر، فأغاروا جميعاً على الحصن ولكنهم عجزوا عن احتلاله .. وكتب أهل الحصن إلى المجاهد يشكون إليه ما هم فيه من ضيق فخرج إليهم مسرعاً وفاجأ أهل جرانع والظاهر بالهجوم. وتمكن المجاهد من قتل جماعة من أهل جرانع وعدد من فرسان إب. وانهزم الظاهر وفر بنفسه إلى حصن السمدان وأقام فيه.

وسأل أهل جرانع الذمة من المجاهد فعفا عنهم وحبس جماعة من أعيانهم.

المجاهد يدخل عدن فاتحاً:

تقدم المجاهد إلى عدن في 26 رمضان سنة 726هـ (1326م) ومعه قائد جيشه "الزعيم" فحط في الأخبة وتوجه الزعيم نحو المباه.

وخرج أهل عدن لقتالهم واستمرت المعارك إلى أواخر صفر سنة 728هـ (1328م) والحرب سجال. وكان بين يدي المدافعين عن عدن عدد من أهل يافع كان المجاهد يتصل بهم سراً حتى تمكن من إقناعهم بمساعدته، فخرج بعضهم من عدن واجتمعوا به في الأخبة ثم اصطحبوا معهم جماعة من عسكر الشفالية وطلعوا بهم حصن التعكر.

وفي يوم الخميس 13 صفر من السنة المذكورة زحف المجاهد على عدن فخرج أهلها لقتاله، وبينما المعركة محتدمة عند باب عدن لم يشعر المدافعون إلا وعسكر الشفالية يهبطون عليهم من حصن التعكر ويصرخون باسم المجاهد. ففشل أهل عدن وانسحب بعضهم إلى وسط المدينة واضطر بعضهم إلى فتح باب عدن فدخل المفضل بن المجاهد والزعيم بعد الظهر، ودخل المجاهد بعد العشاء

من ليلة الجمعة فبات في حصن التعكر. وفي الصباح نزل من الحصن وتوجه نحو حصن الخضراء على طريق السور.

وأمر المجاهد بالقبض على والي عدن ونائب الظاهر فيها الأمير بن أيبك المسعودي ومحمد بن الموفق ناظر الميناء، كما أمر بالقبض على عدد من عسكر الشفالية ومماليك الظاهر والرهائن. وفي يوم السبت نفذ الإعدام شنقاً في الوالي والناظر - وأغرق في البحر جماعة من المماليك وغيرهم، وكحل كثيراً من العسكر وبينهم بعض أهل ذمار وصنعاء وبعدان. وكان ذلك في 11 ربيع الأول سنة 728هـ (1328م).

وأقام المجاهد في عدن إلى جمادى الأولى ثم خرج منها إلى الدملوءة بعد أن اشترتها أمه الأدار الكريمة جهة صلاح بستة آلاف دينار ملكية. ومكث المجاهد نصف شهر في الدملوءة ثم نزل إلى الجوة في لحج ثم رحل إلى الجند.

وفي السنة التالية وصل المجاهد إلى تعز من تهامة وهو مصاب بالجدري وأقام في الحصن منعزلاً، وانتشرت العدوى إلى اثنين من أولاده فتوفيا. أما المجاهد فقد قاوم الوباء وتم شفاؤه في صفر من السنة المذكورة. وفي جمادى الأولى زار المجاهد عدن وأقام بها إلى 20 رجب وزار أبين وحضر الكثيب ثم عاد إلى تعز في شعبان. وأقام المجاهد في حصن تعز إلى أن انقضى عيد الفطر. وفي أثناء إقامته أطلق من السجن سراح ابن عمه الأشرف بن الواثق وتزوج شقيقته.

وفي خلال ذلك طلعت قافلة من عدن فاستولى عليها أهل الهجر، فغزاهم المجاهد في ذي القعدة وقتل عدداً من رجالهم ثم سار إلى الدملوءة.

وفي شهر ذي القعدة قدم إلى عدن وأقام بها أياماً وتفرج على موسمها ثم رجع إلى تعز. وفي سنة 747هـ (1346م) عاد إلى عدن وبقي فيها مدة ثم سافر إلى زبيد. وفي شوال من السنة التالية قدم إلى عدن وبقي فيها إلى سنة 749 هـ (1348م).

المظفر بن المجاهد يحاصر عدن:

كان الأمير المظفر بن الملك المجاهد علي فتاكاً رهيباً لا يعاقب إلا بالسيف، استباح عدة أنفس بغير حق، لا تأخذه على أحد رحمة ولا شفقة. وفي ليلة الاثنين 26 محرم سنة 764هـ (1363م) أعلن المظفر العصيان على والده واتفق مع جماعة من المماليك الذي أهداهم سلطان مصر محمد بن قلاوون إلى المجاهد

علي الانضمام إليه، ثم هجموا على أصطبل الخيول ونهبوا ما فيه من الخيل ونزلوا إلى لحج ومنها إلى الأخبة، وهناك استخدم المظفر عدداً من قبيلة العقارب وأمرهم بالتقدم قبله نحو باب عدن. فلما رحلوا وقدر المظفر أنهم قد وصلوا إلى الباب تبعهم مع رجاله. وعند قنطرة خورمكسر قابلوا جملاً يحمل بطيخاً في طريقه إلى عدن فأوقفه المماليك ونهبوا البطيخ وقعدوا يأكلون.

وكان العقارب قد وصلوا إلى الباب ووقفوا عنده ينتظرون وصول المظفر الذي كان حينذاك منشغلاً مع المماليك في أكل البطيخ. ولما طال مقام العقارب تشكك حراس الباب فيهم فأبعدوهم فلم يبتعدوا. ولاحظ الحراس التردد والارتباك في كلام العقارب فطردوهم من الباب ولكنهم رفضوا أن يبتعدوا وازداد شك الحراس فأغلقوا الباب وأسرع أحدهم إلى الوالي ليخبره بما صار.

وفي الوقت الذي كان الباب فيه يغلق أقبل المظفر والمماليك وقد فاتت الفرصة. وخرج والي عدن والأهالي والعسكر وقاتلوا المظفر ورجاله فانهزم إلى أبين وقبض على واليها القاضي جمال الدين محمد بن حسان وابنه شمس الدين علي بن محمد وحبسهما أياماً ثم أطلقهما.

قدوم المجاهد إلى عدن لمطاردة ابنه:

وصلت أنباء المظفر إلى المجاهد في تعز، فغضب من فعل ابنه وجهز عسكراً بقيادة الأمير بهاء الدين السنبلي وبعض أشراف صعدة الحمزيين، وسار معهم المجاهد إلى الجوة. وفي الشراجي التقى المظفر بالسنبلي فانهزم الأخير بعد ما فقد عدداً من عسكره. ونزل المجاهد إلى عدن وجرد العساكر لقتال ولده ولكنه لم يظفر به فقد اختفى بعد ما علم بنزول والده، ولم يسمع أحد عنه شيئاً بعد ذلك.

وفي يوم السبت 25 جمادى الأولى سنة 764هـ (1363م) توفي المجاهد في عدن، وكان قبل وفاته يتمنى حضور ابنه الهارب ليسلم إليه مقاليد الحكم.

واتفق الحاضرون من أهل الدولة على إسناد الملك إلى ولده الملك الأفضل العباس بن المجاهد لأنهم رأوا أنه أصلح للبلاد والعباد، وكان الأفضل قد نزل مع والده إلى عدن وحضر وفاته.

ونقل الأفضل جثة أبيه إلى تعز في تابوت بعد أن طلاها بالمسكات.

الملك المجاهد الشاعر:

كان الملك علي أديباً شاعراً إلى جانب شجاعته في الحروب التي خاضها، ومن شعره في الفخر:

نلت أنا العز بأطراف القنا ليس بالفخر المعالي تقتنى

نحن بالسيف ملكنا اليمنا كل فخر يدعي الناس لنا

أعرق العالم في الملك أنا

أنا شبل الملك زين الكتب يوسف جدي وداؤد أبي

والشهيد القرم زاكي الحسب وعلي القيل عالي المنصب

جدنا بعد "رسول" جدنا

إن يكن أضحت علاهم خبرا فالعلى مني بالعين ترى

أنا كالليث إذا ما زأرا أنا كالبحر إذا ما زخرا

المنايا في يميني والمنا

أبذل المال فلا أجمعه كل عاف نحونا منجعه

وإذا القرن طغى أصرعه وإذا ولى فلا أتبعه

وإذا لاذ بعفو أمنا

الملك الأفضل العباس:

كان الملك الأفضل بن المجاهد علي بن داؤد ملكاً عاقلاً رشيداً عارفاً بالفقه والنحو واللغة والأنساب والتواريخ ومشاركا في غير ذلك .. ومن مصنفاته: كتاب "بغية ذوي الهمم في التعريف بأنساب العرب والعجم" وكتاب "مختصر مفيد" وكتاب "نزهة العيون في معرفة الطوائف والقرون". كما أنه اختصر تاريخ ابن خلكان.

وفي سنة 776 هـ (1374م) قدم الأفضل إلى عدن وأقام فيها أياماً، ونشر شيئاً من العدل الذي لم يكن معهوداً من قبل، وكسى النواخيذ وأبطل كثيرا من

أحدثه الولاة والنظار فذكره التجار بالجميل. ثم زار أبين وعاد إلى عدن وقضى بها بضعة أيام رجع بعدها إلى تعز.

وفي يوم الجمعة 21 شعبان سنة 778هـ (1376م) توفي الأفضل في زبيد.

الملك الأشرف إسماعيل:

بعد وفاة الملك الأفضل العباس تولى الملك ابنه الملك الأشرف إسماعيل. وكانت للأشرف إسماعيل مصنفات في النحو والفلك وأخبار الخلفاء والملوك.

وعين الأشرف الأمير شجاع الدين عمر بن سليمان والياً على لحج وعدن.

وفي أواخر سنة 781هـ (1379م) قدم الأشرف إلى عدن وأقام بها أياماً وأبطل عادة المكوس المستحدثة، وغادر عدن إلى زبيد على طريق الساحل في أوائل السنة التالية.

ومن مآثر الأشرف إسماعيل أنه أوقف أرضاً بوادي لحج على الشيخ القائم برباط الشيخ أبي الغيث الذي بعدن. وفي نصف شعبان سنة 786هـ (1384م) وقع زلزال في نواحي عدن واستمر أياماً وسقط بعض الدور والتجأ العدنيون إلى قراءة القرآن وحديث البخاري في بيوتهم ومساجدهم.

وفي 3 شوال سنة 789هـ (1387م) قدم الأشرف إلى الجوة، وعين القاضي شرف الدين بن علي الفائقي ناظراً بثغر عدن بدلاً من القاضي موفق الدين الضرعاني.

الإمام الناصر صلاح الدين ينهزم عن عدن:

في ذي القعدة سنة 789 هـ (1378م) جمع الإمام الناصر صلاح الدين بن الإمام المهدي علي بن صلاح بن إبراهيم بن تاج الدين عساكر من المشرق - إمارات وسلطنات الجنوب - وسار بهم نحو عدن فكان وصوله لحج في 13 ذي القعدة.

وزحف الإمام على عدن فخرج الأهالي بالسلاح واشتبكوا مع رجاله في مناوشات عنيفة قتلت فيها طائفة من عسكره وفقد العدنيون عدداً من رجالهم. وأخيراً انهزم الإمام أمام المقاومة العنيفة وفشل في الاستيلاء على عدن. ثم انتشر وباء الجدري بين عسكره ومات منهم كثيرون فانسحب مسرعاً بمن بقي من رجاله حياً.

في أول شهر ذي القعدة سنة 796هـ (1394م) توفي الإمام ودفن في مسجده الذي يعرف بمسجد صلاح الدين في صنعاء، وخلفه ولده المنصور بالله علي بن صلاح الدين.

ولاة عدن ونظارها وقضاتها وخزانتها:

في صفر سنة 797 هـ (1396م) عين الملك الأشرف إسماعيل وزيره الأمير فخر الدين أبا بكر بن بهادر السنبلي العدني والياً في عدن بدلاً من الأمير شمس الدين علي بن محمد بن حسان الذي بقي ناظراً في مينائها بدلاً من جمال الدين الشتيري الذي نقل ناظراً لميناء الشحر.

وفي يوم الخميس 5 جمادي الأولى وصل إلى تعز القاضي وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد العلوي تصحبه خزانة موفورة الأموال من أبين ولحج، وكان الأشرف قد بعث به لجباية الأموال في تلك النواحي.

وفي 6 رمضان توفي القاضي جمال الدين محمد بن الجنيد الذي كان الأشرف قد ولاه القضاء في عدن.

وفي جمادي الأولى سنة 799هـ (1397م) نهبت قبيلة "الأحيوق" قافلة تتكون من ثمانين جملاً عليها من الذهب والفضة ما يساوي ثمنه أكثر من مليون شلن.

وفي سنة 802 هـ (1400م) أمر الأشرف الأمير بدر الدين محمد بن زياد بن أحمد الكاملي بالخروج من تعز ليتلقى خزانة عدن، ويصل بها إلى زبيد .. وخرجت الخزانة - وكانت خزانة عظيمة فيها ما يساوي مئات ألوف من الدنانير من الفضة والذهب والملبوس والعطور والبخور - وسار معها جماعة من التجار بأموالهم، فعظم ذلك في عين الأمير بدر الدين فاستولى على الخزانة وعلى أموال التجار وفر بغنيمته إلى حصن سناح .. ومن المؤسف أن أياً من كتب التاريخ لم تذكر شيئاً عما جرى للأمير بدر الدين بعد ذلك ولا عن وقع ذلك الحادث على الملك الأشرف.

وفي السنة التالية أمر الأشرف بتعيين القاضي رضي الدين أبو بكر بن القاضي شهاب الدين أحمد بن عمر بن معبيد ناظراً في ميناء عدن عوضاً عن القاضي جمال الدين الشتيري، وعين الأمير سيف الدين قيسون أميراً على عدن بدلاً من الأمير فخر الدين أبي بكر بن بهادر السنبلي العدني الذي عاد إلى تعز.

وفي صفر من السنة المذكورة وصلت إلى الملك الأشرف وهو في زبيد خزانة موفورة الأموال من عدن. وفي ربيع الأول من السنة المذكورة توفي الملك الأشرف إسماعيل.

الملك الناصر أحمد بن الأشرف:

بعد وفاة الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل العباس تولى الحكم ابنه الملك الناصر أحمد.

وكانت بين الناصر وولاة أبيه خلافات أدت إلى حروب كثيرة. وانشق عليه أخوه حسين فاستولى على زبيد وجمع حوله طائفة من العسكر وأعلن نفسه ملكاً وسلطاناً ولقب نفسه بالظافر. إلا أن الناصر تمكن من القبض عليه وتكحيله بالنار عقاباً له على عصيانه.

حوادث الشغب في عدن:

في سنة 818 هـ (1415م) وقعت حوادث شغب واضطراب في عدن فجاء الملك الناصر إلى عدن وضرب على أيدي المتسببين فيها وأصلح الأمور وأعادها إلى مجاريها. وكان بين الشعراء الذين رحبوا بالناصر في عدن "ابن المقرئ" الذي قال:

وفي عدن قامت عليها قيامة	وقد ركبوا في قصده المركب الصعبا
وظنوا بجهل أن كل بيضاء شحمة	وقد أضمروا في أهلها القتل والنهبا

وعاد الناصر وقد استقرت الأمور في عدن.

وفاة الناصر أحمد:

في أيام الناصر أحمد توفي الشيخ معوضة بن تاج الدين ووصل ابنه الشيخ طاهر بن معوضة – جد ملوك بني طاهر – إلى الناصر أحمد فأكرمه وأحسن إليه.

وفي سنة 827 هـ (1424م) توفي الملك الناصر أحمد بعد أن حكم مدة أربع وعشرين سنة.

المنصور عبدالله والأشرف إسماعيل:

بعد وفاة الملك الناصر أحمد تولى الحكم ابنه الملك المنصور عبد الله، وكان ضعيفاً عليلاً فتوفي في سنة 830 هـ (1429م). ثم تولى أخوه الملك الأشرف إسماعيل وكان صغيراً لم يختن، فتولى تدبير المملكة جماعة من أعيان دولة أبيه فانتشر الفساد وعمت الفوضى واضطربت الأمور فخلعوه في السنة التالية.

الظاهر يحيى بن الأشرف إسماعيل:

بعد خلع الملك الطفل الأشرف إسماعيل بن الناصر أحمد تولى الملك عمه الملك الظاهر يحيى بن الأشرف إسماعيل بن الأفضل العباس بن المجاهد علي .. ولما استقرت للظاهر يحيى الأمور بعث بابن أخيه الطفل المخلوع سجيناً إلى حصن الدملوءة فبقي فيها إلى أن مات سنة 842 هـ (1439م).

وفي سنة 833 هـ (1430م) قدم علي الظاهر في تعز الشيخ شمس الدين علي بن طاهر بن معوضة بن تاج الدين. وفي السنة التالية تزوج الظاهر ابنة الشيخ علي فصار بنو طاهر من أقرب المقربين إلى بني رسول.

كانت السيدة الحرة أم الملوك "جهة الطواشي مرجان" أم الملك الناصر أحمد والملك الظاهر يحيى قد بنت مسجداً في عدن كما بنت المدرسة المرجانية في لحج وسبيلاً في الأخبة. وتوفيت أم الملوك سنة 836 هـ (1432م) أثناء حكم ابنها الظاهر يحيى.

وبنت زوجة الظاهر يحيى السيدة الحرة "جهة الطواشي ياقوت" المدرسة الياقوتية بحافة البصال في عدن ورتبت فيها إماماً ومدرساً وطلبة علم وأيتاماً يتعلمون فيها القرآن الكريم. وفي سنة 842 هـ (1439م) توفي الملك الظاهر يحيى.

الأشرف إسماعيل بن يحيى:

بعد وفاة الظاهر يحيى تولى الملك ابنه الملك الأشرف إسماعيل. وكان الأشرف بطاشاً سفاكاً للدماء. ومن حوادثه الشهيرة الحادث المعروف بيوم السماط، فقد أقام وليمة كبيرة في مدينة "الفقيه بن عجيل" دعا إليها مشائخ المغاربة الذين كانوا ثائرين عليه بعد أن وعدهم بالصلح .. فلما قعدوا يأكلون أمر عسكره بضرب رقابهم فقتلوا جميعاً والطعام في أفواههم.

وتوفي الأشرف بدار السرور في تعز في رمضان سنة 845 هـ (1441م).

المظفر يوسف:

بعد وفاة الأشرف إسماعيل تولى الملك ابن عمه المظفر يوسف بن المنصور.

الأفضل محمد:

انشقت جماعة من العبيد على المظفر يوسف وفرت إلى زبيد حيث التقوا بأسد الدين محمد بن إسماعيل بن عثمان بن الأفضل العباس وأقاموه ملكاً ولقبوه بالأفضل.

أحمد بن الناصر:

وانشق فريق من العبيد على الأفضل محمد وذهبوا إلى حيس فوجدوا فيها أحمد بن الناصر فأعلنوه ملكاً.

المسعود صلاح الدين:

وبايعت جماعة أخرى المسعود صلاح الدين بن الأشرف بن الناصر.

القتال في عدن بين بني رسول:

اضطربت الأمور على بني رسول وساءت أحوالهم وكثرت الفتن بينهم. أما مشائخ بني طاهر فقد تعاونوا مع المظفر يوسف الذي تحصن بعدن.

وفي لحج التقى المسعود وأنصار المظفر وجرت بينهم عدة معارك.

وفي سنة 848هـ (1444م) دخل المسعود إلى لحج ثم نشر سلطته إلى زبيد، وعين الأمير زين الدين جياش السنبلي مقدماً على عسكره فيها.

وسار المظفر إلى تعز فقصده المسعود إلى هناك وحصره وضيّق عليه الخناق، فكتب المظفر إلى مشائخ بني طاهر يطلب منهم النجدة، فنزل إليه الشيخ عامر ابن طاهر في جماعة من أعوانه.

وفي رمضان سنة 852 هـ (1448م) تمكن بنو طاهر من إخراج المسعود من تعز فرحل إلى موزع ثم توجه إلى عدن.

لما علم المظفر يوسف بوجود المسعود في عدن نهض ومعه بنو طاهر فوصلوا لحج في ذي القعدة من السنة المذكورة. واشتبك الفريقان في معركة أسفرت عن قتل عدد من عسكر المسعود ولكنه لم يستسلم، فعاد المظفر إلى تعز.

وفي سنة 854 هـ (1450م) خرج المظفر من تعز فاستولى عليها المسعود.

وفي أوائل سنة 858 هـ (1454م) نزل الشيخ عامر بن طاهر إلى جهة لحج في عسكر كثير فقاتله عسكر المسعود، واستمرت الحرب سجالاً بين الفريقين حتى السادس من جمادى الأولى من السنة المذكورة حينما وجد نفسه مضطراً إلى مغادرة عدن. فسار إلى خنفر والتجأ إلى بعض مشائخها.

وبعد شهرين قصده فريق من عسكر زبيد وعبيدها وطلبوا منه مرافقتهم إلى زبيد، فاستوثق منهم بالأيمان ودخلها معهم في رمضان وأقام بها إلى آخر شوال.

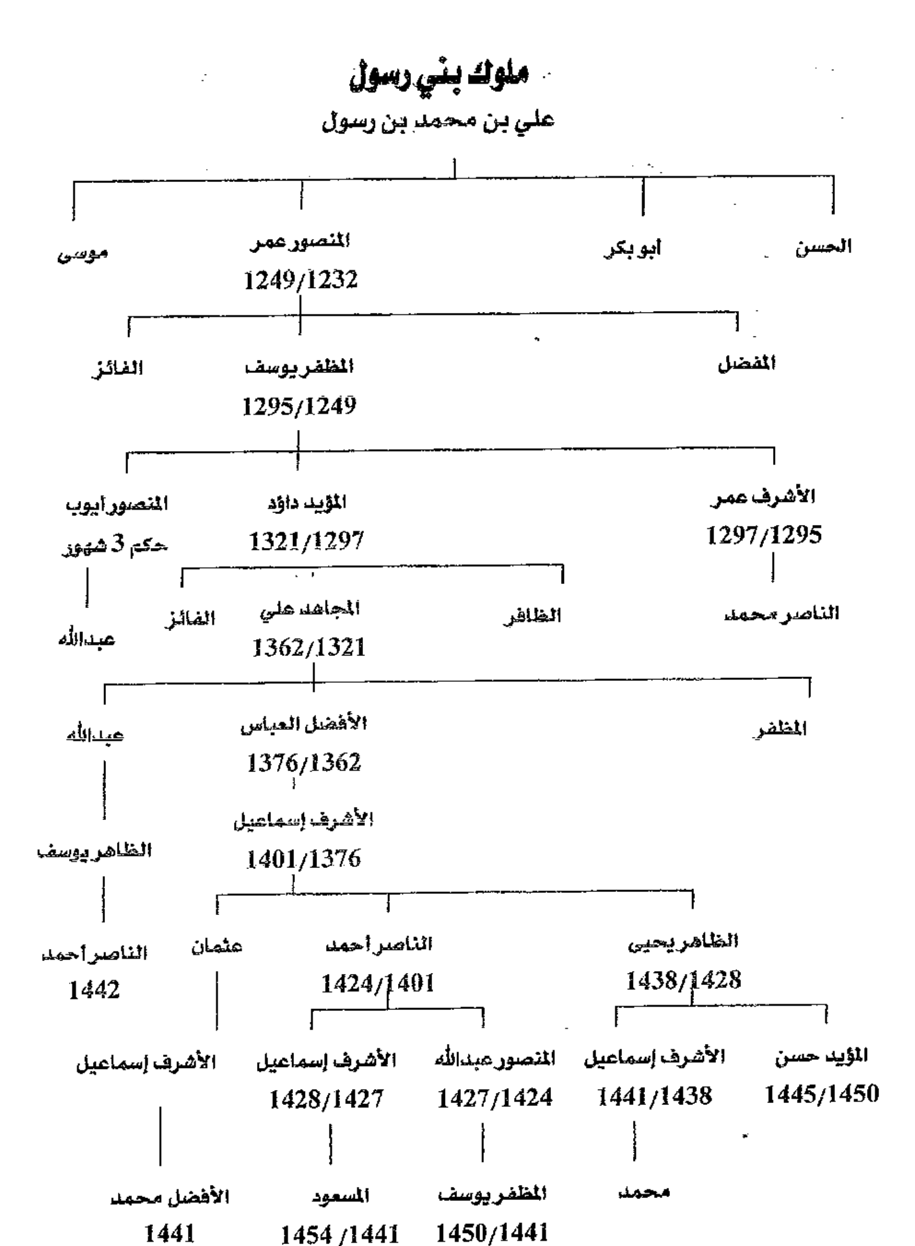
وأرسل المسعود إلى أمير "هقرة" الشيخ عبد الله بن أبي السرور، فلما جاءه خرج الاثنان من زبيد يريدان تعز، فلما صارا في مدينة حيس يئس فخلع نفسه، فرجع العبيد إلى زبيد ورحل المسعود إلى هقرة ثم سافر إلى مكة المكرمة.

المؤيد الحسين:

وفي زبيد أقام العبيد الحسين بن الظاهر ولقبوه بالملك المؤيد. وقدم المؤيد إلى عدن واستقر بها.

وزحف الشيخ عامر بن طاهر وشقيقه الشيخ علي بن طاهر نحو عدن. وتسلق على جبل التعكر مع عسكره واحتل حصن التعكر ثم هبط منه إلى عدن في ليلة الجمعة 23 رجب سنة 858هـ (1454م). وفي صباح الجمعة دخل عامر بن طاهر من باب عدن مع بقية العسكر وملكوا الحصون والخزائن.

وبذلك انقرضت دولة بني رسول وبدأت دولة بني طاهر.


ملوك بني رسول
علي بن محمد بن رسول
الحسن
ابو بكر
المنصور عمر
1249/1232
موسى
المفضل
المظفر يوسف
1295/1249
الفائز
الأشرف عمر
1297/1295
المؤيد داؤد
1321/1297
المنصور أيوب
حكم 3 شهور
الناصر محمد
الظافر
المجاهد علي
1362/1321
الفائز
عبدالله
المظفر
الأفضل العباس
1376/1362
عبدالله
الأشرف إسماعيل
1401/1376
الظاهر يوسف
الظاهر يحيى
1438/1428
الناصر أحمد
1424/1401
عثمان
الناصر أحمد
1442
المؤيد حسن
1445/1450
الأشرف إسماعيل
1441/1438
المنصور عبدالله
1427/1424
الأشرف إسماعيل
1428/1427
الأشرف إسماعيل
محمد
المظفر يوسف
1450/1441
المسعود
1454 /1441
الأفضل محمد
1441

دولة بني طاهر

ظهور دولة بني طاهر:

بدأت دولة بني طاهر في عدن، فبعد أن انتشر الانحلال في دولة بني رسول اضطربت أمور اليمن وكثرت فيها الفتن وضعف بنو رسول عن السيطرة على شئون الدولة، ظهر الشيخ عامر بن طاهر وأخوه الشيخ علي بن طاهر اللذان كانا من ذوي المراكز العالية والنفوذ الواسع والأتباع والأنصار الكثيرين، وقر عزمهما على الاستيلاء على الحكم.

كان الملك المؤيد الحسين الرسولي قد استقر بعدن حينما زحف الأخوان نحو عدن. وتسلق علي بن طاهر جبل التعكر بالحبال مع طائفة من عسكره واحتل حصن التعكر ثم هبط منه إلى عدن في ليلة الجمعة 23 رجب سنة 858هـ (1454م). وفي صباح الجمعة 24 رجب دخل عامر بن طاهر من باب عدن مع بقية العسكر فملك الأخوان الحصون واستوليا على خزائن عدن وأموالها.

ووجد المؤيد الحسن بن الظاهر الرسولي نفسه وحيداً لا معين له تجاه القوة الجديدة الطارئة، فرضي أن يبيع كل ما كان عنده من سلاح وخيل ومظاهر ملكية لعلي وعامر، فأحسنا إليه وقررا له النفقات.

وأعلن الأخوان أن الملك انتقل إلى بني طاهر، وتلقب علي بالظافر وعامر بالمجاهد. وكان أول ما عملاه أنهما طردا الأمير جياش بن سليمان السنبلي الذي كان المسعود قد عينه نائباً في عدن.

بنو طاهر في اليمن:

ثم اتجه نشاط بني طاهر إلى اليمن بعد أن استتب لهم الأمر في عدن ونواحيها. ففي الثالث من شوال سنة 859هـ (1455م) خرج المجاهد علي بن طاهر من عدن متوجهاً إلى تعز، ومنها إلى موزع وحيس فاحتلهما، وأعلن أمير الحديدة الشيخ إبراهيم بن عمر الولاء والطاعة لبني طاهر، ثم احتل المجاهد مدينة زبيد.

وفي سنة 865هـ (1461م) زحف الإمام الناصر بن محمد من صنعاء إلى جهة بني طاهر فهزمهم وقتل الشيخ محمد بن طاهر شقيق عامر وعلي.

وفي السنة التالية استولى المجاهد على مدينة ذمار، وخرج منها الإمام إلى هران ثم توجه إلى صنعاء فأسره أهل عرقب.

بنو طاهر في الشحر:

كان سلطان الشحر أبو دجانة محمد بن سعيد بن فارس قد غزا عدن في عدة مراكب يريد الاستيلاء عليها في بداية دولة بني طاهر فتلقاه الظافر عامر بعسكره من باب عدن فأخذ أبا دجانة أسيرا إلى عدن مع جماعة من رجاله. وفي سنة 866 هـ (1462م) تجهز الظافر إلى الشحر في عسكر كثيف ودخلها أولاً الشيخ عبدالملك بن داؤد فنهبها نهبا شديدا، ثم دخلها الظافر وأمر بالكف عن النهب وولى فيها واليا من جهته ثم عاد إلى عدن.

مقتل الظافر ووفاة المجاهد:

استولى الظافر عامر بن طاهر على صنعاء في شوال سنة 867هـ (1463م) وعين الشيخ عبد الله بن داؤد بن طاهر والياً عليها.

وتم الاتفاق بين الظافر وبين المؤيد محمد بن الإمام الأسير الناصر على بقاء المؤيد في صنعاء.

وفي سنة 870 هـ (1466م) قتل الظافر في معركة عند أبواب صنعاء فانفرد أخوه الملك المجاهد علي بن طاهر بالملك، وقرر الانصراف عن القتال وترك بلاد الزيدية واهتم بنشر الأمان والاطمئنان في ربوع مملكته وعمر المساجد والمدارس ونظم أمور البلاد.

وفي آخر محرم سنة 883م (1478م) غادر المجاهد عدن إلى بلد جبن مريضاً وتوفي فيها في ربيع الأول من السنة المذكورة.

المنصور عبد الوهاب بن داؤد:

بعد وفاة الملك المجاهد علي بن طاهر وقع الاختيار على ابن أخيه السلطان عبد الوهاب بن داؤد بن طاهر الذي تلقب باسم "الملك المنصور".

وفي ليلة وفاة عمه خرج المنصور عبد الوهاب إلى عدن فوصلها في 13 ربيع الأول بغتة دون أن يعلم العدنيون بوفاة عمه حتى لا يحصل خلاف عليه بعد علمهم بالوفاة .. ثم سار إلى زبيد.

وفي سنة 889 هـ (1484م) طلب المنصور من والي عدن أن يبعث إليه بخزانة عدن فأرسل له بخزانة وافرة. وفي يوم الثلاثاء 7 جمادى الأولى سنة 894هـ (1489م) توفي المنصور عبد الوهاب.

الظافر عامر بن عبد الوهاب:

بعد وفاة المنصور عبد الوهاب بن داؤد بن طاهر تولى الملك ابنه عامر بن عبدالوهاب وتلقب باسم "الملك الظافر" .. وكان صعوده إلى العرش في وقت كانت فيه اليمن منقسمة إلى أربع ممالك:

(الأولى) وتضم عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت والتهائم اليمنية واليمن الأسفل حتى رداع تحت الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب.

(الثانية) وتضم صنعاء ومخاليفها تحت يد الإمام محمد بن الناصر محمد.

(الثالثة) وتضم بلاد الشرف والظواهر وصعدة وهي مقسمة بين أولاد المؤيد وأشراف آل المنصور والإمام محمد بن علي السراج الوشلي.

(الرابعة) وتضم كوكبان وملحقاتها، تحت يد أولاد الإمام المطهر محمد بن سلمان.

وفي دوامة تلك الفوضى والانشقاق بدأ عامر بن عبد الوهاب يحكم، وكان محمد بن الناصر يتجنب الدخول في منازعات مع عامر خوفاً من ضياع عرشه في صنعاء في الوقت الذي كان فيه عامر بن عبد الوهاب يزداد توسعاً في النفوذ والملك.

وكان عامر يتنقل بين تعز وذمار وجبن وغيرها لإخماد الفتن التي سادت تلك الفترة خصوصاً وأن عدداً من أقاربه من بني طاهر كانوا قد أعلنوا العصيان وناصبوه العداء. وعين عامر ابن أخيه محمد بن عبد الملك والياً على عدن.

خروج أهل يافع من عدن:

أحس محمد بن عبد الملك بعصيان أهل يافع وسعيهم للخروج عن طاعة بني طاهر، فأمر في رجب سنة 894 هـ (1489م) بتسفيرهم جميعاً من عدن. وكان عددهم خمس مائة بين رجال ونساء وأطفال.

بنو طاهر يتقاتلون في لحج:

كان الأمير عبد الباقي بن محمد بن طاهر أحد الذين انشقوا على عامر بن عبد الوهاب وحاول أن يحتل عدن لنفسه، فجمع بعض أهالي يافع الناقمين على بني طاهر وتقدم بهم نحو لحج ونهب بيت الضامن فيها.

ولما علم الأمير محمد بن عبد الملك باستعداد قريبه عبد الباقي لغزو عدن جرد فرقة من العسكر لملاقاته. وقبل خروجه من باب عدن أبقى طائفة من العسكر وسلح بعض الأهالي للمحافظة على عدن ونصحهم بالولاء لملكهم عامر ابن عبد الوهاب وأفهمهم أنه خارج لقتال عبد الباقي وأنه إذا وقع له مكروه فعليهم أن يدافعوا عن عدن بعزم وتصميم وألا يسلموا البلاد إلا لعامر بن عبدالوهاب.

وفي الفضاء الواسع بين لحج وعدن دارت بين الفريقين معركة عنيفة. واقترب عبد الباقي من محمد بن عبد الملك وحمل عليه بشدة وكاد يبطش به لولا أن أسرع أحد مماليك محمد بن عبد الملك فضرب ساعد عبد الباقي بقوة حتى كسرها فسقط السيف من يده ثم لاذ بالفرار. فلما رآه عسكره وأهل يافع يولي هاربا تبعوه منهزمين، فتبعهم محمد بن عبد الملك بعسكره وأسر أربع مائة منهم وكحل بعضهم بالنار وأعدم البعض الآخر.

عامر بن عبد الوهاب في يافع:

استمر أهل يافع على عدم الولاء لبني طاهر وحاولوا الانفصال عنهم اعتقاداً منهم أن عامر بن عبد الوهاب لن يستطيع قهرهم. وفي سنة 903هـ (1498م) جرد عامر بن عبد الوهاب جيشاً زحف به نحو يافع واحتلها وشرد العصاة من أهلها.

عامر بن عبد الوهاب في بيحان:

ذكر محمد بن إسماعيل الكبسي في كتابه "اللطائف السنية":

"في سنة 905هـ (1500م) ظهر ببيحان يهودي يركب الخيل ولا يرهب الليل ويخرج بالخيول المحلاة والحفظة الحماة، وتطاول على المسلمين وكذب بالكتاب المبين. فانثال عليه بالطعام العوام الذين لا يراعون شرائع الإسلام وكثر جمعه وغص ربعه وكان من أعظم الحوادث في الإسلام، فدبر السلطان عامر الحيلة في

أخذه وأسره وكفاية المسلمين شره، فتقدم إلى بيحان وهو مظهر أنه ما له مقصد إلا الصيد والنزهة، فلما وصل إلى بلدة بيحان تحيز ذلك اللعين إلى محل غير مسكون، فقطعت عليه عساكر السلطان الطرقات واستباحوا ما لديه وأراح الله البلاد والعباد من هذا الكافر العنيد والشيطان المريد".

دول أوربا والبلاد العربية:

كان الصراع شديداً بين دول أوربا البحرية للسيطرة على الهند وعلى سواحل البلاد العربية، وكثيراً ما اشتبكت بعضها ببعض في معارك بحرية عنيفة. وهذه الدول هي إنكلترا وفرنسا والبرتغال وهولندا وأيضاً الدولة العثمانية التركية، وكانت كل واحدة تمتلك أسطولاً بحرياً قوياً مزوداً بالمدافع والجنود.

وكان الصراع على أشده بين البرتغاليين والعثمانيين. وكان البرتغاليون مسيطرين على عدد من مدن السواحل الهندية من بينها "جوا" التي كانت أهم مراكز تموين سفنهم بالعتاد والأغذية والمحاربين.

اهتمام البرتغاليين بعدن:

كان اهتمام البرتغاليين يرمي إلى السيطرة على عدن والمخا اللتين كانت تعدان أهم مينائين تجاريتين في البحر الأحمر. وفي سنة 892 هـ (1487م) وصل إلى عدن "جون بدريو دي كوفلهام" البرتغالي الذي كان سفيراً لبلاده في مراكش، وكان يتكلم العربية بطلاقة. وقد وصف عدن بأنها مدينة تجارية غنية وأنه اتصل بتجارها من مختلف الجنسيات ومن كثير من أنحاء الهند.

وفي سنة 909 هـ (1503م) قدم إلى عدن برتغالي آخر هو "دون لودوفيكو دي بارثيما" مدعياً الإسلام. وحينما علموا أنه كان مسيحياً قبضوا عليه وأبقوه في السجن خمسة وخمسين يوماً ثم بعث به والي عدن إلى رداع حيث كان الملك عامر بن عبدالوهاب يعد العدة لغزو اليمن العليا. وأمام عامر ادعى الرجل الإسلام، ولكنه حين رفض أن ينطق بالشهادتين أمر بإرساله إلى السجن بوصفه جاسوساً مسيحياً. وفي السجن تظاهر بالجنون ثم تمكن من الخروج والعودة إلى عدن.

وفي سنة 910 هـ (1504م) وصلت إلى ميناء عدن سفن حربية برتغالية وأسرت سفينة عربية وقتل البرتغاليون بحارتها بطريقة قاسية.

الأسطول المصري بعدن:

في سنة 913هـ (1507م) وصلت إلى ميناء عدن بعض قطع الأسطول المصري وتتكون من برشتين وثلاثة أقربة.

ذكر مؤلف كتاب روح الروح أن الأمير حسن الكردي قدم إلى عدن، فلما وصلت البرشان بالقرب من عدن أنزلوا سنبوقاً يحمل رسولاً إلى الأمير مرجان الظافري والي عدن ونائب الملك عامر بن عبد الوهاب فيها فاستأذنه بالدخول إلى حقات فأذن له فدخل في أدب واحتشام وتعفف واحترام، وأرسل إلى الأمير مرجان رسولين بلغاه من طرف القائد أنه لولا أن السلطان قانصوه الغوري أمره أن لا يدخل عدن لدخل وسلم على الأمير .. ثم توجه القائد المصري إلى بحر الهند لمطاردة الأفرنج الذين أوسعوا السفن التجارية نهباً وأسراً.

حريق في عدن:

في سنة 914هـ (1508م) وقع حريق كبير في عدن، وانتشر الحريق من ناحية المدرسة السفيانية إلى حافة اليهود وأتلف أموالاً عظيمة.

سفن عامر بن عبد الوهاب:

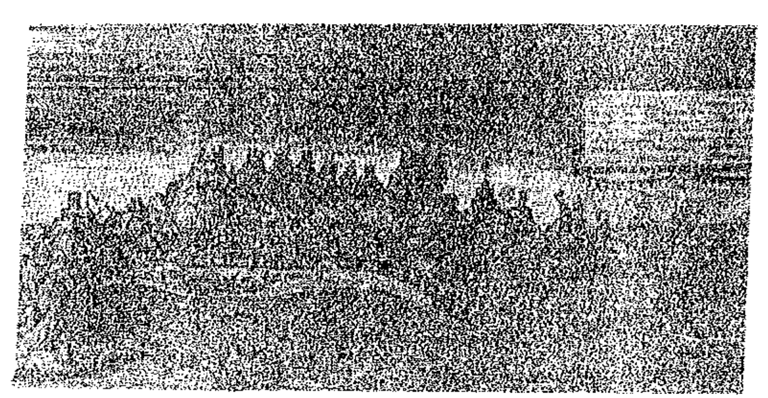
ذكر محمد بن إسماعيل الكبسي في "اللطائف السنية": أن مراكب السلطان عامر بن عبد الوهاب فقدت في سنة 915هـ (1512م) ولم يسلم منها سوى مركب واحد وطليعتين.

هدية سلطان مصر:

في سنة 916 هـ (1510م) وصلت إلى زبيد هدية ملكية فخمة من سلطان مصر قانصوه الغوري إلى ملك اليمن وسلطانها عامر بن عبد الوهاب. وتوجه الأمير المحتسب والطواشي بشير بالهدية إلى رداع وقدماها لعامر الذي أكرمهما وسلم إليهما هدايا قيمة تملأ مركباً ليسلماها للسلطان قانصوه الغوري.

غزو الأسطول البرتغالي لعدن:

في رجب سنة 919 هـ (1513م) وصل إلى ميناء عدن ستة عشر مركباً من مراكب البرتغاليين، فأرسل الملك عامر بن عبد الوهاب جنوده لمساعدة حامية عدن وأمر بالدعاء عليهم في القنوت والصلاة.



مدينة عدن في سنة 1513م كما رسمها ضابط برتغالي
في يوم الغزو البرتغالي على عدن وترى سفن الغزو أمام ساحل صيرة

ذكرت بعض المصادر التاريخية أن الأمير مرجان الظافري أمر بتحصين عدن والتغافل عن الإفرنج، فلما نزلوا إلى الساحل أخرجوا السلالم ووضعوها على أقصر جانب من سور عدن فتسلقها بعض الجنود البرتغاليين ودخلوا عدن. وعندئذ أمر الأمير مرجان بالهجوم عليهم فقتلوا منهم أربعة وأسروا خمسة وانهزم البرتغاليون وأحرقوا المراكب التي كانت راسية في الميناء بعد أن نهبوها، وساروا إلى كمران وباب المندب، ثم رجعوا إلى عدن فلم يمكنهم الاستيلاء عليها فرموا البلد بالمدافع وهدموا بعض بيوتها وقتلوا جماعة من الناس في الأسواق وانصرفوا عن عدن في جمادي الآخرة.

أما الكابتن بليفير فيذكر في كتابه "تاريخ اليمن أو العربية السعيدة" قصة أكثر وصفاً لتلك الحادثة التاريخية المهمة، فقد قال: إن القائد البحري البرتغالي "دون ألفونسو ديلبو كيرك" تجهز إلى البحر الأحمر على أمل أن يتمكن من مساعدة الأحباش المسيحيين في حربهم ضد دولة الإسلام في البحر الأحمر، بناء على رجاء من الملكة هيلينا إمبراطورة الحبشة إلى ملك البرتغال

عمانويل الذي أمر ألفونسو ديلبو كيرك بتحقيق رجاء الملكة الحبشية، وأيضاً الاستيلاء على عدن والمخا قهراً.

وبدأ ألفونسو ديلبوكيرك حملته العسكرية من "جوا" في الهند في تاريخ 18 فبراير سنة 1513م (919هـ) بأسطول يتكون من عشرين سفينة حربية تحمل ألفا وسبع مائة جندي برتغالي وسبع مائة جندي هندي.

وصلت الحملة إلى عدن في ليلة الفصح. وفي صباح الثلاثاء نزل سبع مائة برتغالي وخمس مائة هندي إلى الساحل وتسلق بعضهم سور حقات الضعيف بواسطة سلالم وضعوها هناك وتجحوا في احتلال مركز أمامي بعد أن تمكنوا من قتل أغلب المدافعين واستولوا على تسعة وثلاثين مدفعاً.

وبعد حصار دام أربعة أيام انهزم البرتغاليون أمام الهجوم المضاد الذي شنه جنود عدن فقتلوا عدداً كبيراً من أفراد الجيش البرتغالي. فأمر ألفونسو ديلبوكيرك بإحراق السفن الظاهرية الراسية في ميناء صيرة كما أمر بضرب عدن بالمدافع. وبعد ذلك انهزم إلى البحر راجياً أن يتصل بحلفائه الأحباش المسيحيين، لكنه لم ينجح في الاتصال بهم فتوجه إلى جزيرة كمران حيث قضى فصل الشتاء.

وقد بعثت تلك البطولة الرائعة والشجاعة الفائقة وحسن التدبير في الدفاع عن عدن الحماس الشديد في نفوس أهل اليمن. والبرتغاليون يسمون الأمير مرجان الظافري "ميرامورا" أو "أمير مورزا".

المسيحيون واليمن:

تذكرنا قصة الغزو البرتغالي في سنة 919هـ (1513م) بقصة الغزو الحبشي في سنة 525م.

فبعد أن تمكن الملك الحيري زرعة ذو نواس اليهودي الدين من القضاء على مسيحيي نجران والتجاء "دوس ذو ثعلبان" النجراني إلى القيصر جستين الأول في القسطنطنية، كتب القيصر إلى ملك الحبشة المسيحي "كالب" طالباً منه تجهيز جيش يعبر به البحر الأحمر إلى اليمن للقضاء على دولة بني حمير وإنقاذ المسيحيين فيها. فجهز الملك الحبشي سبع مائة سفينة صغيرة يصحبها عدد من السفن الكبيرة التي بعث بها جستين الأول، وحملت هذه السفن ستين ألف حبشي بكامل معداتهم وعبرت البحر الأحمر إلى ميناء "غلافقة"، وجرت بين

بني حمير والأحباش الغزاة معارك بالغة العنف انتهت بهزيمة زرعة ذي نواس واحتلال الأحباش لليمن.

وكما طلب جستين الأول من ملك الحبشة غزو اليمن طلبت ملكة الحبشة من عمانويل ملك البرتغال المساعدة لغزو اليمن. إلاّ أن الحملة الأولى انتهت باحتلال الأحباش لليمن وانتهت الثانية بهزيمة البرتغاليين عند سواحل عدن.

الإمام يحيى شرف الدين:

في خلال حكم الملك عامر بن عبد الوهاب كانت بعض المناطق العليا من اليمن تحت نفوذ الإمام يحيى شرف الدين الذي كان قد دعا الناس لمبايعته إماماً في سنة 912هـ (1506م) بعد وفاة الإمام محمد على السراجي الوشلي.
أما اسمه ولقبه ونسبه كما ذكره محمد بن إسماعيل الكبسي في اللطائف فهو "الإمام الأعظم المتوكل على الله رب العالمين يحيى شرف الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى بن مفضل بن منصور بن الحجاج بن علي بن يحيى بن القاسم بن يوسف الداعي بن أحمد الناصر بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين" .. وكان الإمام حتى ذلك الوقت يعد زعيماً لأتباع المذهب الشيعي الزيدي، وهؤلاء كانوا يسكنون المناطق العليا في اليمن. أما أتباع المذهب السني الشافعي فيسكنون التهائم واليمن الأسفل وأقساماً من اليمن العليا وكانت هذه المناطق تحت نفوذ دولة بني طاهر .. وكان الصراع تقليدياً بين أئمة الزيدية وملوك بني رسول ومن بعدهم ملوك بني طاهر.

سعي الإمام للقضاء على بني طاهر:

في ذي القعدة سنة 921هـ (1515م) دخلت سفن الأسطول المصري إلى جزيرة كمران.

وأرسل الأمير عبد الوهاب بن الملك عامر بن عبد الوهاب رسالة لوالده ينبئه بذلك ويظهر تخوفه من غزو المصريين لسواحل اليمن، فأمر عامر ولده بأن يمنع شحن المواد الغذائية في السفن المتوجهة إلى الحجاز لئلا يستولي عليها المصريون.

ذكر الكبسي في اللطائف أن الإمام يحيى شرف الدين حين علم بوصول العساكر المصريين إلى كمران أرسل كتاباً إلى قائدهم الأمير حسين الكردي

يحثه فيه على الوثوب على التهائم اليمنية والاستيلاء عليها. ووصف الملك عامر بن عبد الوهاب بالظلم والطغيان.

ولما تسلم الأمير حسين الرسالة استشار كبار رجاله فأشار عليه بعضهم بأن يبعث بخطاب مع رسولين إلى الملك عامر بن عبد الوهاب يطلب منه معاونته على الأفرنج في البحر، فإن أجاب إلى هذا المطلب فهو عادل ناصح وأن الإمام معارض له في ملكه ودنياه، وإن تلكأ عن هذا المقصد علمنا أنه من الفجار، فاستحسن الأمير حسين ذلك الرأي وبعث الخطاب إلى الملك عامر.

ولما وصل الخطاب إلى عامر استاء قائد جيشه الأمير محمد بن علي البعداني من إرساله مع رسولين، وأشار على مليكه بالرفض إلا إذا قدم الأمير حسين الكردي بنفسه .. وحين وصل رد عامر إلى حسين رأى أن يعد ذلك الرفض تمرداً على سلطان مصر قانصوه الغوري، ومن ثم أرسل كتاباً إلى الإمام يحيى شرف الدين يخبره بنيته في غزو مملكة عامر بن عبد الوهاب.

المصريون يغزون السواحل اليمنية:

تقدم المصريون إلى ميناء الحديدة، ولكن الحال ضاق بهم لما لم يجدوا فيها مواد غذائية فغادروها إلى ميناء اللحية، فرحب بهم حاكمها الفقيه أبو بكر بن مقبول الزيلعي وأمدهم بالطعام.

وبعد ذلك عادت السفن المصرية إلى الحديدة وقذفتها بالقنابل. وبعد إتمام مهمتها رجعت إلى اللحية فسهل لهم حاكمها المرور إلى وادي مور.

وأرسل عامر بن عبد الوهاب عسكراً إلى زبيد بقيادة أخيه عبد الملك بن عبد الوهاب الذي دافع عنها دفاعاً باسلاً، ولكن المصريين استطاعوا احتلالها بعد معارك شهيرة في تاريخ اليمن، وفي خلال إحدى المعارك سقط الأمير عبد الوهاب ابن عامر بن عبد الوهاب قتيلاً برصاصة استقرت في صدره.

المصريون يدخلون البنادق إلى اليمن:

كان اليمنيون يستعملون السلاح الأبيض في حروبهم ولم يعرفوا البنادق والرصاص إلا من المصريين، ولذلك كان انتصار المصريين سريعاً فتمكنوا من احتلال اللحية ووادي مور وقرية الضحى.

غزو الأسطول المصري لعدن:

في أوائل رجب سنة 922 هـ (1516م) وصلت قطع الأسطول المصري إلى عدن بقيادة الأمير سليمان باشا الأرناؤوطي لأجل أن تحتل عدن بناء على رغبة السلطان قانصوه الغوري.

كان الأسطول المصري يتكون من سبع وعشرين سفينة. وهاجم المصريون عدن، ولكن المدافعين عنها تمكنوا من صدهم بعد ما كبدوهم خسائر فادحة، فانسحبوا إلى سواحل اليمن واحتلوا عدداً من موانئها.

وصف الكبسي الدفاع عن عدن بقوله: "إن الرئيس سليمان تقدم بأجناده إلى بندر عدن وفيها مرجان الظافري عاملاً للسلطان عامر. وقد كان قدومهم إليها في رجب من سنة 922هـ (1516م) في جند كثير، ثم إنه جرى بينهم وبين حماة عدن حرب ضرير، ورماهم أهل عدن بالسهام والمدافع حتى هزموهم من البندر، ثم تراجع العسكر المصري وحملوا على البندر فدخلوه، وانحاز عسكر السلطان عامر إلى صيرة وبقي المصريون في أسفله يرمون بالمدافع على صيرة، ثم اجتمع العسكر العامري في عدن وخرجوا إليهم من الباب الذي كان عند جبل النوبة، وكان البحر عارياً فحملت العساكر العامرية على المصريين فهزموهم هزيمة ساحقة وقتلوا منهم عدداً كبيراً وفر باقيهم إلى مراكبهم. وقتل في هذه الوقعة ابن أخي الأمير سليمان باشا الذي أخذه الغضب لمقتله فعاد إلى البندر وكان قد ضعف من في صيرة من الجنود العامرية، فلما رأوا عودته نزلوا عن صيرة ودخلوا عدن. وتحقق المصريون من خلو الحصن من عساكر عامر فطلعوه ومكثوا فيه أياماً يرمون بالمدافع إلى الدار المقابلة لدار السعادة، ثم حملوا على المدينة في الثلث الأخير من ليلة الأربعاء فتلقاهم أهل عدن وقاتلوهم من ذلك الوقت حتى طلوع الشمس، وكان المصريون قد تغلبوا على المدينة وركزوا سناجقهم على الدار التي كانوا قد خربوها فأشفق أهل البلد من ذلك.

ثم قامت ملاحم عظيمة في بندر عدن حتى أغار عبد الملك بن عبد الوهاب من تعز، فلما تحقق المصريون من وصوله أصبحوا يوم السبت راجعين من حيث جاءوا وقد خاب مسعاهم وبطل متمناهم. واستولى أهل عدن على سناجق المصريين.

ثم توجه سليمان باشا بأسطول نحو قرية رباك للحصول على الماء، وهناك أعد لهم الملك ابن عبد الوهاب كميناً من العسكر العرب ليمنعوهم من

الاستقاء منها، فحصل بينهم وبين العرب قتال انكسر فيه المصريون وعادوا إلى سفنهم وبقيت جماعة منهم محصورة في حظيرة .. ويقال: إن سليمان باشا كان بين المحصورين وقد أيقنوا من الهلاك أو تسليم أنفسهم. وأطلق أحد المصريين رصاصة على العرب المحاصرين للحظيرة فانفضوا عنها وتمكن المصريون من شق طريقهم والعودة إلى سفنهم بعد أن فقدوا أربعين قتيلاً أو أكثر. وكانت ترسو في رباك أربع سفن استولى عليها المصريون ولكن إحداها تمكنت من الانفلات والعودة إلى رباك.

عودة الأسطول البرتغالي إلى عدن:

في سنة 922 هـ (1516م) أمر ملك البرتغال نائبه حاكم الممتلكات البرتغالية بالهند - واسمه لوب سواريز - بالإبحار في أسطول حربي إلى البحر الأحمر .. ولما علم لوب سواريز أن السلطان قانصوه الغوري يجهز أسطولاً في السويس أبحر من "جوا" في 8 فبراير 1516م في أسطول يتكون من سبع وعشرين سفينة تحمل ألفا ومائتي برتغالي وست مائة هندي.

قدم لوب سواريز إلى عدن بعد أن تخربت مواقعها الدفاعية بعد المحاولات المصرية لغزوها. قيل، ولما رأى الأمير مرجان الظافري أنه عاجز عن مقاومة البرتغاليين رضي أن يسلم لهم عدن وقدم للوب سواريز مفاتيح أبواب عدن. واغتبط القائد البرتغالي ولم يشك في نوايا الأمير مرجان فأجل استلام المدينة إلى حين عودته من مطاردة الأسطول المصري.

وإذا كان صحيحاً أن الأمير مرجان رضي أن يسلم عدن للبرتغاليين فإن أمامنا ثلاثة أسباب لتبرير فعله ذلك وهي:

(أولاً) ربما أن الأمير مرجان كان يرى أن مهمة لوب سواريز كانت أعظم أهمية من تسلم عدن، وتحصيناتها في تلك الحالة من التخريب والتدمير وأن القائد البرتغالي ربما رفض تسلمها.

(ثانياً) ربما أن الأمير مرجان كان قد أغضبه المصريون بمحاولاتهم المتكررة غزو عدن وتخريبها وأنه رأى إغاظتهم بعقد حلف مع البرتغاليين أعداء المصريين التقليديين. ويحتمل أن يكون الأمير مرجان كان يفضل أن يكون له عدو واحد من أن يجابه عدوين قويين.

(ثالثاً) ربما أن الأمير مرجان عرض تسليم عدن على البرتغاليين ليثير المصريين فيغريهم على القيام بهجوم قد يحطم قوى الطرفين أو على الأقل، يحطم طرفاً ويضعف الطرف الآخر فيستطيع مرجان أن يقاوم الطرف المنتصر بعد ترميمه تحصينات عدن.

وفي عدن علم لوب سواريز أن الرياح العنيفة أجبرت الأسطول المصري على الالتجاء إلى ميناء جدة فتبعه إلى هناك ولكنه فشل في تدمير الأسطول المصري فاضطر إلى الإبحار إلى كمران.

وبعد أن قاسى البرتغاليون من نقص المواد الغذائية وفقدوا سبعة عشر رجلاً أسرهم العرب أبحروا إلى ميناء زيلع الصومالية وأحرقوها.

المصريون يحتلون تعز وصنعاء:

كان الملك عامر بن عبد الوهاب في رداع حين بلغه نبأ مصرع ابنه الأمير عبد الوهاب عند أبواب زبيد، فتوجه إلى "إب" وهناك وصله وفد من قائد الجيش المصري ليفاوضه في الصلح، وكاد عامر أن يقبل التفاوض لولا أن بعض رجال حاشيته أشاروا عليه بعدم القبول وأوقعوا في خاطره أن طلب الصلح مخادعة فرد الرسل خائبين.

ثم وقعت بين المصريين وجيش عامر حروب كثيرة انهزم فيها عامر وتقهقر إلى تعز في شوال سنة 922هـ (1156م).

وفي سنة 923هـ (1517م) توجه الجيش المصري إلى تعز وعاد عامر إلى "إب" فدخل المصريون تعز ونهبوها ونهبوا دار الملك عامر بن عبدالوهاب وقبضوا حصنها وصادروا تجارتها.

واستمرت الحروب عنيفة قاسية في كل مكان، وتمكن المصريون من الزحف على صنعاء والاستيلاء عليها.

مقتل الملك عامر بن عبد الوهاب:

كانت المعركة تدور بشدة بالقرب من صنعاء، وكان الأمير عبد الملك بن عبد الوهاب يحارب بجانب أخيه الملك عامر فأصابته رصاصة في صدره فسقط عن فرسه قتيلاً. وبدأ جنود عامر يتفرقون والرصاص ينثال عليهم.

ونظر عامر إلى أخيه القتيل وإلى جنوده الفارين فأيقن من الهزيمة ولكنه أخذ يجري بين الجنود يحثهم على الصمود إلى أن وصل إلى مقربة من جبل نقم.

كان عامر وحيداً وفي حالة يأس شديدة حينما رآه رجل من أهل "سعوان" فأخذه أسيراً وسلمه إلى العساكر المصريين الذين قتلوه في الحال وفصلوا رأسه عن جسده .. وكان ذلك في يوم الجمعة 23 ربيع الآخر سنة 923هـ (1517م).

وبوفاة عامر بن عبد الوهاب انتهت دولة بني طاهر الشافعية في اليمن، ولم تبق من مملكة بني طاهر غير مناطق متفرقة يحكمها أمراء من بني طاهر تحت الخوف المستمر من الهجمات المصرية ومن هجمات الإمام يحيى شرف الدين وابنه المطهر.

وانفرد الأمير عامر بن داؤد بن طاهر بحكم عدن ولحج وأبين، كما سيأتي ذكر ذلك.

دولة العثمانيين الأتراك

الجيش المصري في اليمن:

بعد مقتل الملك عامر بن عبد الوهاب بن داؤد بن طاهر في سنة 923هـ (1517م) انتهت دولة بني طاهر في اليمن.

وبينما المصريون يتوغلون في اليمن ويثبتون أقدامهم فيها كان السلطان سليم بن محمد بايزيد العثماني قد تمكن من احتلال مصر والشام بعد هجومه على جيش المماليك المصري – الشامي واستعانته بثلاثة من أمراء الجيش المصري، الذين تواطأوا معه على الخيانة .. وفي حلب قتل سلطان مصر قانصوه الغوري ثم قتل في القاهرة خلفه الملك الأشرف طومان.

واضطرب الجيش المصري للأنباء المحزنة الواردة من أرض الوطن، وأحس القائد الأمير إسكندر باشا بالخطر، وخشي أن يفقد الجنود معنويتهم فيتمكن الإمام يحيى شرف الدين من سحقهم والانفراد بالسلطة، فأسرع إسكندر باشا إلى الأمام طالباً الهدنة على أن يبقى الإمام في حصن ثلا. ولو كان الإمام بعيد النظر لكان رفض الهدنة ومن ثم انتصر على جيش كاد يفقد معنويته وانقطعت عليه خطوط الرجعة وتوقفت عليه سبل الإمدادات، ولكن الإمام قبل الهدنة فعرض نفسه وجيشه للضياع.

كان الأمير إسكندر باشا واقعيا، فحينما رأى انتهاء دولة المماليك في مصر بمقتل قانصوه الغوري والأشرف طومان أدرك أن الجيش المصري في اليمن لم يعد يستند إلى دولة تشد أزره ويتلقى منها التعليمات والإمدادات، ووجد أن الوسيلة أمامه لإنقاذ الجيش من الإبادة هي في الاعتراف بالأمر الواقع فتوجه إلى جامع صنعاء وطلع المنبر وأعلم الناس باستيلاء الخليفة العثماني على مصر والشام وأعلن الولاء للدولة العثمانية. وهكذا تحول الغزو المصري لليمن إلى غزو عثماني.

وفي سنة 926 هـ (1520م) توفي السلطان سليم وخلفه في حكم الدولة العثمانية ابنه السلطان سليمان الأول.

عامر بن داؤد يستقل بعدن:

اشتعلت الحرب بين العثمانيين بقيادة إسكندر باشا وبين قوات الإمام يحيى شرف الدين بقيادة ابنه المطهر .. وانشغل العثمانيون في أعالي اليمن وضعف أمرهم في نواحي عدن، وكان فيها حينئذ الأمير عامر بن داؤد بن طاهر الذي أعلن نفسه سلطاناً عليها وعلى توابعها وما ناهجها من البلاد كلحج وأبين والشحر وحضرموت وأجزاء من اليمن الأسفل .. واستمر السلطان عامر يحكم من سنة 923 هـ (1517م).

عامر بن داؤد يغزو اليمن وينهزم:

في سنة 941 هـ (1535م) وصلت الأنباء إلى عدن بأن المطهر بن يحيى شرف الدين استولى على نجران وبقي فيها، فتحركت أشجان عامر وأراد أن يغتنم الفرصة فيغزو اليمن ويعيد تأسيس دولة بني طاهر، فجهز جيشاً بقيادة وزيره الشريف يحيى السراجي الذي توغل في اليمن الأسفل واستولى على عدد من الحصون الأمامية ووصل إلى رداع. وكان يصحبه في عملياته الأمير علي بن محمد البعداني الملقب بالشرامي.

ولما وصلت الأخبار إلى الإمام أرسل الرسل إلى ابنه المطهر في نجران، فجمع ألفي ناقة وسار بجيش كبير سيراً حثيثاً حتى وصل إلى "موكل" في يوم الأحد 24 ربيع الآخر من السنة المذكورة .. وهناك التقى بجيش عامر فدارت رحى معركة شديدة كان انتصار المطهر فيها ساحقاً.

وكان عدد القتلى من جيش عامر ثلاثمائة والأسرى ألفين وثلاثمائة، فأمر المطهر بضرب أعناق ألف منهم واستبقى ألفاً وثلاثمائة .. وكان المطهر راكباً بغلته ورجاله يأتون إليه بالأسرى أفواجاً فيأمر بقتل كل زمرة وحدها حتى غطى الدم حوافر بغلته. وبذلك بلغ عدد القتلى ألفاً وثلاثمائة. وعند الانتهاء من عملية القتل الجماعي أمر المطهر بأن يحمل كل أسير رأس قتيل من رفقائه، وأشار بأن يسيروا حفاة الأقدام إلى صنعاء، مقر والده الإمام يحيى شرف الدين. فوصل الموكب في العشر الوسطى من جمادى الأولى من السنة المذكورة. وكان لوصولهم صنعاء موقع عظيم، فطاف الأسرى شوارع صنعاء حاملين رؤوس زملائهم .. ثم أمر الإمام بأن يتوجهوا على تلك الحالة إلى صعدة.

أما الشريف يحيى السراجي الذي وقع أسيراً فقد أمر المطهر بذبحه.

كان عامر بن داؤد بن طاهر قد عسكر في قعطبة في ذلك الحين، وكان الأمير علي بن محمد البعداني قد توجه إلى المقرانة. فلما وصلت أنباء الهزيمة إليهما انسحب عامر إلى "الأحد" والبعداني إلى الشعيب.

وتوجه المطهر بعد انتصاره إلى الغرفان، فلما علم عامر والبعداني بذلك جهزا جيشاً جديداً وقاما بهجوم آخر ولكنهما لم يتوفقا فقتل البعداني وتقهقر عامر إلى عدن.

وفي سنة 942هـ (1536م) جهز المطهر جيشاً نزل به إلى لحج وحاصر عدن، ولكنها استعصت عليه فلم يتمكن من فتحها فعاد إلى اليمن. ولكنه أعاد الكرة في نفس السنة وحاصرها ولكنه انهزم وعاد إلى اليمن.

وفي السنة التالية توجه عامر لملاقاة المطهر ولكنه اضطر إلى الانسحاب .. وفي أثناء المعركة فقد عامر حصانه فسار على قدميه يريد اللحاق بجيشه المنسحب، وفي الطريق رآه أحد عبيده فعرفه، وكان العبد راكباً حصاناً فترجل وأركب سيده فطار عامر بالحصان ولحق بجيشه وقاده إلى عدن .. ووقع العبد أسيراً ولما علم المطهر بقصته أكبر وفاءه وأطلق سراحه.

الأسطول العثماني الجديد ومهمته :

في سنة 945 هـ (1538م) أعد السلطان سليمان الأول بن محمد بايزيد العثماني أسطولاً ضخماً يتألف من ست وسبعين سفينة حربية كبيرة وصغيرة في ميناء السويس تحمل أربعة آلاف من جنود الحرس السلطاني وستة عشر ألفاً آخرين.

وأسند السلطان قيادة هذا الأسطول للأمير سليمان باشا الأرناؤوطي الذي كان قائداً للحملة السابقة الفاشلة على عدن .. وكان سليمان قد بلغ الثمانين من عمره إلا أنه كان ما زال محتفظاً بشجاعته وقدرته العسكرية وشخصيته القوية وشراسته العنيفة التي جعلت منه وحشاً آدمياً.

وفي 27 يونيو من السنة المذكورة غادر الأسطول ميناء السويس ووصل إلى جزيرة كمران في العشرين من يوليو، ومن هناك بعث سليمان زوارق سريعة إلى عدن وسواحل زبيد تحمل رسله ليخبروا حكامها بأن يكونوا على استعداد لتموين الأسطول بمحتاجاته وأن يقدموا ولاءهم للخليفة العثماني السلطان سليمان الأول. وكان وصل الأسطول العثماني لأربعة أغراض كما يظهر:

(الأول) احتلال عدن وضمها إلى الإمبراطورية العثمانية.

(الثاني) تدعيم الجيش العثماني في اليمن والقضاء على نفوذ الإمام يحيى شرف الدين.

(الثالث) مناجزة الأفرنج الذين كانوا مازالوا يعتدون على السفن التجارية في البحر الأحمر وبحر الهند.

(الرابع) القضاء على المستعمرة البرتغالية في الهند "جوا" التي كانت مركز تموين للسفن البرتغالية.

عامر بن داؤد يعيد غلطة الإمام:

كان موقف السلطان عامر بن داؤد موقفاً ضعيفاً بعد هزيمته أمام المطهر ابن الإمام يحيى شرف الدين، فلما علم بقدوم الأسطول العثماني عاوده الأمل في استعادة ملك بني طاهر - أو على الأقل - إضعاف خصمه الإمام فيتمكن هو من النهوض إلى اليمن فيستعيد المناطق التي انتزعها المطهر، فكتب إلى سليمان باشا يحثه على مساعدته في القضاء على الإمام.

وهذا الكتاب الذي بعث به عامر بن داؤد بن طاهر يذكرنا بالكتاب الذي أرسل به الإمام يحيى شرف الدين إلى الأمير حسين الكردي في سنة 921 هـ (1515م)، فإن الإمام كتب في ذلك إلى القائد المصري يطلب منه المساعدة في القضاء على دولة الملك عامر بن عبد الوهاب بن طاهر، فكانت النتيجة فقدان اليمن لاستقلالها لأن الأسطول المصري بعد مهاجمة التهائم واحتلال صنعاء واليمن الأسفل وقتل عامر بن عبد الوهاب تحول إلى محاربة الإمام نفسه .. واليوم يمثل عامر بن داؤد بن طاهر نفس الدور الذي مثله الإمام يحيى شرف الدين فيطلب من القائد العثماني مساعدته في القضاء على الإمام ودولته فيقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه الإمام قبل أربع وعشرين سنة.

عدن أيام عامر بن داؤد:

في سنة 945 هـ (3 أغسطس سنة 1538م) وصل الأسطول العثماني إلى ميناء عدن، ووصفها ضابط بندقي (من فينيسيا) كان يرافق الأسطول بقوله:

"إنها عظيمة القوة، تقف على حافة البحر تحيط بها جبال شامخة، على قممها قلاع وحصون صغيرة وهي محاطة من كل جانب بخنادق عميقة فيما

عدا فتحة صغيرة طولها حوالي ثلاثمائة خطوة تستعمل كممر أو باب للبحر والبر .. وفيها الأبواب والأبراج والأسوار. وفي مواجهة المدينة بحر غزير يقف فيه جبل صيرة الذي بنيت فوقه قلعة وفي سفحه للدفاع عن الميناء الواقع إلى الغرب .. والماء هنا على عمق اثني عشر قدماً .. وإلى الشمال يقع ميناء آخر له مرسى صالح آمن محمي من جميع الأرياح .. ويوجد الماء العذب بوفرة. والأرض جرداء لا ينبت فيها شيء. وليس للأهالي مصدر للماء غير الأمطار التي تخزن في صهاريج وفجوات عمقها حوالي ستمائة قدم".

احتلال العثمانيين لعدن:

لما دخل الأسطول العثماني ميناء عدن طلب سليمان باشا من السلطان عامر ابن داؤد أن يسمح بنزول عدد كبير من الجنود المرضى للاستشفاء في عدن فأذن لهم السلطان عامر وأعد بيوتاً لإيوائهم. فنزل الجنود المرضى وهم يئنون من أمراضهم وكان بينهم الضابط فرحات.

وصعد أربعة من رجال السلطان عامر إلى سفينة الرئيس سليمان باشا يحملون هدايا ومشروبات مختلفة الأنواع فقابلهم سليمان باحترام وترحيب وقدم لهم هدايا ورسالة للسلطان عامر يذكر له فيها أنه سيسعده أن يحضر السلطان عامر إلى سفينة القيادة. وتردد السلطان في أول الأمر وكاد يرفض الذهاب ولكن بعض رجال حاشيته أشاروا عليه بضرورة القيام بالزيارة ليقدم الولاء للخليفة العثماني.

ويقول مصدر آخر: إن السلطان عامر تردد في زيارة سفينة سليمان فجاء الضابط فرحات وبعض رجاله وانقضوا عليه وعلى بعض أقربائه ورجال حاشيته وأرسلوا بهم إلى سليمان باشا.

ولما وصل السلطان عامر رحب به سليمان باشا في أول الأمر ولكنه ما إن وقف يريد الانصراف حتى أمر سليمان باشا بتقييده ومرافقيه، وبعد ذلك أمر بشنقهم وصلبهم وتركهم معلقين ثلاثة أيام في صارية السفينة.

ويظهر أن الرئيس سليمان باشا لم ينس هزيمته المريرة أمام الأمير مرجان الظافري في سنة 921هـ، كذلك لم ينس مقتل ابن أخيه في سواحل عدن فثأر بتلك الوسيلة الغادرة ولم يتقيد بالشرف العسكري.

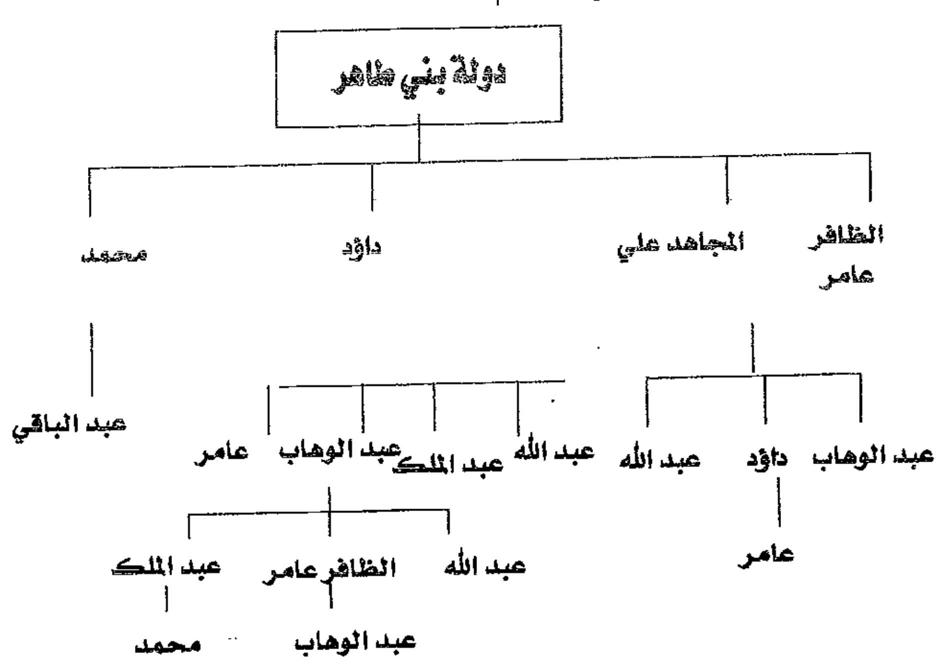
وبعد أن تم للعثمانيين القضاء على السلطان عامر أصدر سليمان باشا إشارة إلى الضابط فرحات وجنوده المرضى الذين سرعان ما تركوا أسرتهم وأخرجوا أسلحتهم من تحت أغطيتهم ثم انتشروا في مدينة عدن واحتلوها.

ويظهر أيضاً أن الرئيس سليمان باشا أدرك بعد شنق عامر وصلبه أن عمله ذاك كان غدراً لا يشرفه كرجل عسكري وقائد معروف ونائب للخليفة العثماني، فعلل فعلته إذ قال بأنه شنق عامر بن داؤد بن طاهر ثم صلبه بسبب رغبة عامر في تسليم عدن للبرتغاليين.

ويقول المؤرخ محمد بن إسماعيل الكبسي في كتابه "اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية" تعقيباً على ادعاء سليمان باشا "ولا صحة لذلك" أي لا صحة لقول سليمان باشا إن عامر كان يريد أن يسلم عدن للبرتغاليين.

وبانتهاء عامر بن داؤد بن طاهر انقرضت دولة بني طاهر في اليمن وعدن وبدأ حكم الأتراك العثمانيين لعدن.

واستمر حكم بني طاهر لعدن ثماني وسبعين سنة – وذلك من سنة 858 حتى سنة 945هـ (1454 إلى 1538م).



أئمة اليمن والأتراك العثمانيون الإنكليز في سواحل عدن واليمن

عودة الأسطول العثماني من الهند:

بعد أن تم للعثمانيين احتلال عدن في سنة 945هـ (1538م) أبحر الرئيس سليمان باشا بالأسطول العثماني إلى ميناء "ديو" الهندي لقتال البرتغاليين في مستعمراتهم الهندية ولتأسيس مستعمرات عثمانية في الهند.

واشتبك البرتغاليون والعثمانيون في ملاحم برية وبحرية عنيفة انهزم فيها سليمان باشا وفقد ألفين من رجاله وكثيرا من العتاد الحربي فانسحب بأسطوله إلى عدن فوصلها في الخامس من ديسمبر سنة 1538م.

ولما كان سليمان باشا يخشى مطاردة البرتغاليين له ومحاولة استيلائهم على عدن فقد حصنها بمائة قطعة من المدافع الصغيرة والكبيرة. وبكثير من المؤن والعتاد وبخمس سفن حربية صغيرة وخمسمائة جندي.

ثم غادر سليمان باشا عدن إلى البحر الأحمر واحتل المخا وزبيد وغيرهما في سنة 946 هـ (1539م).

أمير خنفر يغزو عدن:

كان العثمانيون يتوغلون في الأراضي اليمنية فانشغلوا في حربهم الضروس مع الأئمة عن عدن وأهملوها وضعف أمرهم فيها، وفي سنة 953هـ (1546م) زحف على عدن شيخ "خنفر" الأمير علي بن سليمان واحتلها، ولكن العثمانيين عادوا فاسترجعوها وقتلوا علي بن سليمان في نفس السنة.

الإنكليز في عدن واليمن:

جاءت سنة 1018هـ (1609م) واليمن تمزقها الحروب بين العثمانيين بقيادة جعفر باشا واليمنيين بقيادة الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد علي .. في 8 أبريل من السنة المذكورة ظهرت في شواطئ عدن أول سفينة تجارية إنكليزية.

كانت شركة الهند الشرقية الإنكليزية قد رأت أن تبدأ علاقات تجارية مع موانئ البحر الأحمر، فبعثت بالكابتن ألكسندر شاربي بالسفينة التجارية "اسنشن Ascension".

وحين رست السفينة في بندر صيرة أرسل حاكم عدن العثماني مندوباً عنه إلى ظهر السفينة ليدعو الكابتن شاربي للنزول إلى البر. ولما نزل استقبله الحاكم باحترام وحفاوة. ولكنه بعدئذ حجزه في بيت وأبقاه حبيساً ستة أسابيع. وفي خلال الحجز أقنعه الحاكم بأن يأمر بإنزال بضاعة من السفينة بلغت قيمتها 2500 ريال وعد الحاكم بدفعها، وما كادت البضاعة تصل إلى الفرضة حتى أمر الحاكم بمصادرتها مدعياً أنها مقابل الضرائب المفروضة على السفينة. وبعد انتهاء الأسابيع الستة أطلق الحاكم سراح الكابتن شاربي. ولما عاد إلى سفينته وجد أن الحاكم قد قبض على اثنين من بحارتها الإنكليز وجعلهما رهينة عنده حتى يدفع شاربي ألفي ريال رسوم رسو السفينة أسنشن في الميناء، فرفض شاربي، وعندئذ أرسل الحاكم بالبحارين الإنكليزيين إلى الحاكم العثماني العام في صنعاء.

وأبحر شاربي إلى المخا التي كانت وقتئذ أعظم موانئ البحر الأحمر للتجارة بين مصر والهند .. واستقبله حاكم المخا العثماني باحتفاء وترحيب وسمح له - كما كان يسمح لغيره من الأجانب بالقيام بأعمال تجارية في مدينة المخا.

سر هنري ميدلتن:

في سنة 1019هـ (10 نوفمبر 1610م) وصلت إلى ميناء صيرة ثلاث سفن إنكليزية بقيادة أمير البحر سر هنري ميدلتن .. وكان يحكم عدن في ذلك الحين جعفر باشا التركي .. ولما لم يجد سر هنري مرشداً بحرياً في عدن أبحر إلى المخا بسفينته وتصحبه السفينة "دارلنج". واضطرت السفينة "بيبر كورن" Peppercorn إلى التخلف في ميناء عدن.

وفي 14 نوفمبر وصل السر هنري إلى المخا فاستقبله الحاكم رجب آغا بترحيب وقدم له ولرفاقه منزلاً ليقضوا فيه أيام بقائهم في المخا ومنحه شريط الشرف ووعده بكل مساعدة لتصريف بضاعته.

ولكن لم يمض يوم واحد حتى تغير الحال وانقلبت الحفاوة إلى تعذيب ومتاعب أشد هولاً مما لقيه سلفه الكابتن شاربي في عدن .. فقد أسر العثمانيون سر هنري وبعض رفاقه وقيدوا أيديهم وأرجلهم بالسلاسل الحديدة وأرسلوا بهم إلى صنعاء بعد أن قتلوا ثمانية من بحارة سر هنري.

وفي العاصمة اليمنية أطلق الباشا حاكم صنعاء سراح الأسرى وأنذرهم بأن لا يعودوا إلى عدن أو سواحل اليمن الأخرى مرة ثانية وذكر لهم الباشا أنهم لن يسمحوا للمسيحيين بهبوط هذه المناطق في المستقبل.

وفي 5 مارس من السنة التالية عاد السر هنري ورفاقه إلى المخا، وسمح رجب آغا للبحارة بالصعود إلى السفينة ولكنه حجز سر هنري وعددا من رجاله في الشاطئ ولكنهم تمكنوا من الفرار والصعود إلى السفينة، وحين تنبه العثمانيون كان سر هنري قد سيطر على البحر المواجه للمخا. وهدد سر هنري العثمانيين بأنهم إن لم يدفعوا له ثمانية عشر ألف ريال مقابل الخسائر التي تكبدتها البعثة فإنه سيهدم مدينة المخا بمدافع السفينتين .. واضطر رجب آغا إلى دفع المبلغ وإعادة البضاعة التي كان قد أمر بنهبها من السفينة.

وفي الوقت الذي كانت تقع فيه تلك الحوادث كان قائد السفينة بيبر كورن الكابتن دوفتن وبحارته يلاقون متاعب مشابهة، فإن حاكم عدن قبض على عشرين بحارا ووضعهم في السجن.

كابتن جون ساريس:

لم تعط شركة الهند الشرقية الإنكليزية الإنذار العثماني الموجه من حاكم صنعاء للسر هنري ميدلتن أي أهمية، فأرسلت بالثلاث السفن "كلاو Cloue" و"هكتور Hector" و"تومس Thomas" بقيادة الكابتن جون ساريس Jhon Saris وفي ميناء المخا رأى الكابتن ساريس أن الحاكم أزهر آغا قد حل محل الحاكم السابق رجب آغا .. ورحب بالكابتن ساريس كل من الحاكم الجديد وتجار المخا وأعيانها الذين طلبوا منه أن ينسى ما وقع للسر هنري ميدلتن Sir Henry Middleton.

تسلم الحاكم أزهر آغا من الباشا العثماني في صنعاء تعليمات بأن يسمح للغرباء القادمين بأن يتاجروا في المخا دون أي متاعب.

الكابتن شلنج:

في سنة 1027هـ (1618م) أبحر الكابتن شلنج Shilling على السفينة "آن رويال Anne Royal" إلى المخا التي كان يحكمها في ذلك الوقت رجب آغا الذي عاد إلى منصبه .. وقد عبر رجب آغا للكابتن شلنج عن أسفه العميق لما حدث منه

للسر هنري وأكد له أنه يسمح له الآن بحرية التجارة وأيضاً بتأسيس مصنع في المخا.

الهولنديون في عدن والشحر والمخا :

ولما رأت شركة الهند الشرقية الهولندية نجاح شركة الهند الشرقية الإنكليزية في البحر الأحمر بعثت في سنة 1021هـ (1612م) بعدد من السفن التجارية بقيادة "فان دن بروك Van Den Broeck للحصول على معلومات عن الأحوال التجارية في موانئ البحر الأحمر ولمحاولة تأسيس علاقات تجارية معها.

ولما وصلت السفن إلى "ميط" في الساحل الصومالي أرسل فان دن بروك سفينة إلى عدن تحمل علما أبيض لإحاطة حاكمها علما بقدومهم. وأكد الحاكم للمبعوث الهولندي أن مواطنيه سيلاقون الترحيب.

وفي اليوم التالي أرست السفن الهولندية في ميناء صيرة ووصل مندوب عن الحاكم إلى سفينة فان دون بروك يدعوه لتناول طعام الغداء في دار الحاكم في اليوم التالي.

وقدم فان دن بروك هدايا الحاكم عدن فسأله الحاكم عن جنسيته، فلما أجابه بأنه هولندي وأنه يحمل ترخيصاً من الباب العالي العثماني بالاشتغال بالتجارة مع البلدان التابعة للعثمانيين، أخبره حاكم عدن أنه لن يستطيع السماح له بالتجارة إلا بعد أن يتسلم الإذن من الباشا في صنعاء.

ولم تمض أيام حتى تسلم فان دن بروك إيعازاً مهذباً من حاكم عدن بأن من المستحسن لو غادر عدن لأن التجار في عدن ما كانوا ينظرون إلى وجود الهولنديين بعين الرضا، فرحل إلى الشحر حيث نجح في تأسيس مصنع.

وفي سنة 1025هـ (1616م) أبحر فان دن بروك إلى المخا ولكنه تلقى أمراً من حاكمها بالرحيل لأن الباشا في صنعاء ما كان يثق باتصالات الهولنديين ونواياهم.

الدولة القاسمية

انسحاب العثمانيين من اليمن:

في سنة 1038هـ (1630م) أصدر الخليفة العثماني أمره إلى نائبه في اليمن حيدر باشا بأن يسحب جميع الجنود العثمانيين من الأراضي اليمنية.

وبمغادرة العثمانيين لليمن صار الأئمة ملوكاً.

كان يحكم اليمن في ذلك العهد الإمام المؤيد بالله محمد بن المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد الرشيد.

أما لحج وأبين وعدن فقد استولى عليها الأمير حسين عبدالقادر اليافعي.

صفي الإسلام يلجأ إلى عدن:

في سنة 1051هـ (1641م) حصل نزاع بين الإمام المؤيد محمد وابن أخيه صفي الإسلام أحمد بن الحسن بن القاسم، فقد طلب الإمام من ابن أخيه أن يقدم له بياناً بشأن خزانة والده، وأنها إن كانت تخص بيت مال المسلمين فيجب تسليمها لبيت المال وإن كانت تركة فيلزم توزيعها بالعدل بين الورثة .. ولما تسلم الصفي أمر الإمام ثار وجمع كل ما في حوزته من أموال وذخائر ورحل مع جماعة من رجاله الذين أحسن إليهم وغمرهم بإكرامه.

ولما وصل الصفي إلى قعطبة التقى بعسكر الإمام وجرت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة الصفي واستيلاء عسكر الإمام على جميع خزائنه وذخائره فهرب إلى عدن لاجئاً إلى أميرها حسين بن عبد القادر اليافعي.

ولقي الصفي إعزازاً وإكراماً في عدن وبقي في حماية الأمير حسين إلى أن وردت إشارة من الإمام إلى الأمير حسين يطلب منه تسليم ابن أخيه الهارب.

ويقول الكبسي في اللطائف: إن الصفي أحس بانحراف في معاملة الأمير له فأسرع بالفرار من عدن. لكن الذي يظهر أن الأمير رأى أنه قد وقع بين نارين: تسليم ضيفه للإمام، ورفض تسليمه .. وهو كرجل عربي ورث الشهامة عن أسلافه يرفض تسليم الشخص الذي طلب حمايته، ولكن في الوقت ذاته يرى من الصعب عليه ومن الخطر أيضاً أن يرفض طلب الإمام. ولأجل أن يتخلص من النارين؛ أوعز إلى الصفي بطلب الإمام حتى يدبر الصفي لنفسه مخرجاً، ورأى الصفي أن يسرع بالرحيل إلى يافع حيث وجد ترحيباً من أهلها.

وفي سنة 1053هـ (1643م) أرسل الإمام بالقاضي أحمد الحيمي إلى يافع ليسعى في استمالة ابن أخيه الهارب، واستطاع القاضي أن يقنع الصفي بالعودة إلى بلاده .. وفي صنعاء قابله الإمام بابتهاج وزوجه إحدى بناته. وأعلن الصفي في صنعاء أنه رأى من أمير عدن ما يقبح من الأمور وأنه دعا الله أن يكون فتح بلاد الأمير على يديه.

الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم:

في رجب سنة 1054هـ (1644م) توفي الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم، واتفق أعيان حاشيته على تنصيب أخيه أحمد بن القاسم، ولكن الأخ الثالث إسماعيل بن القاسم ثار على ذلك القرار واجتمع مع حاشيته وأنصاره وعدد من رجال الدين وأقطاب المذهب الشيعي الزيدي ووقع الاتفاق على أن إسماعيل هو الأنهض فنصبوه ومنحوه لقب الإمام "المتوكل على الله".

وفي نواحي صعدة ظهر السيد إبراهيم بن محمد المؤيد داعياً لنفسه بالإمامة. وثبتت دعوة أخرى للسيد محمد بن الحسن بن القاسم.

ومن ثم وقعت مناوشات ومعارك كان النصر فيها لإسماعيل الذي استقامت له الأمور ودانت له الناس.

صفي الإسلام يغزو عدن:

في شوال سنة 1054هـ (1644م) جهز الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم جيشاً بقيادة ابن أخيه صفي الإسلام أحمد بن الحسن بن القاسم ليغزو عدن ولحج وأبين. وكان الصفي أثناء التجائه إلى عدن قد عرف كثيراً عن أميرها الحسين بن عبد القادر وقوته ونقط ضعفه، فسار على رأس جيش كبير كثير العتاد. ووجد الأمير حسين ضيفه بالأمس خصمه اليوم.

ودارت رحى حرب عنيفة، وأظهر الأمير حسين شجاعة فائقة في القتال والثبات ولكنه لم يستطع الاستمرار في الحرب واحتمال الحصار لتفوق الصفي في عدد الجند والعتاد والأقوات والنجدات، فاضطر إلى الهجرة إلى يافع فدخل الصفي إلى عدن ولحج وأبين فاتحاً واستولى على ذخائرها وخزائنها غنائم له.

وبعد ما استتب له الأمر ولى الولاة نواباً عن الإمام فيها وعاد إلى صنعاء. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تقع فيها هذه المناطق تحت سيطرة أئمة اليمن.

المذهب الزيدي في حضرموت:

ذكر الكاتب البحاثة الحضرمي السيد محمد بن هاشم أن السلطان بدر بن عمر أبي بدر طويرق الكثيري لم تكد قدماه تستقران في الولاية حتى تصدى له ابن أخيه بدر بن عبد الله بن عمر بالأذى والمكائد، وأحس السلطان بالشر فلجأ إلى موالاة الأئمة في اليمن وأخذ يكاتبهم ويستنجد بهم، وأشيع عنه اعتناقه للمذهب الزيدي، فازدادت الهوة اتساعاً والحالة تحرجاً وأخذ الشعب الحضرمي ينفر عنه ويعضد ابن أخيه بدر بن عبد الله بن عمر الذي عرف كيف يستغل الموقف، فاستطاع أن يستميل فضلاء عصره من العلويين وغيرهم إلى صفه ضد عمه السلطان بدر بن عمر وحمل الجمهور على بغضه ومقته والنفرة منه بسبب جنوحه إلى الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم.

في عام 1058هـ (1648م) وثب بدر بن عبد الله بن عمر على عمه السلطان بدر بن عمر بحصن سيئون وقبض عليه وعلى ابنه محمد المردوف وضيق عليهما ثم أرسل بهما مكبلين إلى حصن مريمة حيث سجنهما مع التضييق الشديد، ثم نقلهما من مريمة إلى تريس، وطلب بدر بن عبد الله من عمه الحبيس أن يخلع نفسه عن السلطنة بحضور قبائل الشنافرة وغيرهم، وأن يكتب بخط يده وثيقة يقرر فيها أنه خلع نفسه عن السلطنة ومنحها لابن أخيه.

ولما وصلت تلك الأنباء إلى الإمام المتوكل إسماعيل بعث بالرسل إلى السلطان الجديد طالباً منه أن يطلق عمه الحبيس، وعرض الإمام على السلطان أن يستمر سلطاناً على حضرموت على أن يسند إلى عمه ولاية ظفار.

جيش الإمام في البيضاء:

لما وجد الإمام إسماعيل أن السلطان بدر بن عبد الله الكثيري قد رفض وساطته بينه وبين عمه بدر بن عمر أمر بتجهيز جيش للزحف به على حضرموت.

لم يكن للجيش الإمامي طريق إلى حضرموت غير العبور بأراضي سلطنات البيضاء ويافع والجرشي والواحدي والفضلي التي كانت حينذاك دويلات مستقلة بعيدة عن سيطرة اليمن يحكمها سلاطينها المحليون. وخشي السلاطين إن هم سمحوا لجيش الإمام بالعبور في أراضيهم أن يدمروها أو يحتلوها لاسيما وأنهم كانوا يدركون طموح الإمام لضم بلادهم تحت لوائه، كما هو فاعل بحضرموت، فرفضوا طلب الإمام، وكان أشدهم تصميماً على الرفض سلطان البيضاء حسين الرصاص الذي كانت بلاده أقرب سلطنة إلى حدود اليمن.

واتصل السلطان حسين بالسلطان منصر العولقي وبقية السلاطين وشرح لهم شكوكه ومخاوفه فأيدوه واتفقوا جميعاً على رفض طلب الإمام وأعدوا أنفسهم لما قد تتمخض عنه الأمور.

وصف الكبسي القتال المرير بين جيش الإمام ورجال القبائل فقال ما معناه: "أمر الإمام في شهر صفر سنة 1065هـ (1654م) بحشد الجنود وأرباب البنود إلى بنير (بني أرض) لإصلاح فاسدها وتقويم خاربها لأجل الدخول إلى حضرموت لإنجاد بدر بن عمر، فرفضت بلاد الرصاص ويافع وبلاد العوالق والجرشي والواحدي والفضلي السماح لعسكر الإمام بدخول أراضيهم، فجد الإمام لجهادهم وأنفذ قبل ذلك رسائله إلى الشيخ حسين الرصاص لأنه أول قفل لتلك الأقفاص، فلما علم الرصاص بما أجمع عليه الإمام شمخ وبرز بروز ليث العرين، وحشد قبائل البلاد، وترتب هو والسلطان منصر العولقي بعسكرهما في نجد السلف ووزعا بقية السلاطين أماماً وخلفاً .. وكان قليل من عسكر الإمام قد نفذوا إلى الزاهر وهي من البلاد التي بسط السلطان حسين الرصاص نفوذه عليها وكانت في الأصل للقائفي. ولما سئم الرصاص من الانتظار بادر إلى ذي كرت بجيش كبير فرمى أولاد الإمام بنفوسهم على نجد السلف وبادروا إليه في يوم الخميس رابع ربيع الأول من سنة 1065هـ (1654م) وانقض جمعهم على الشيخ حسين ومن والاه، وقصد صفي الإسلام أحمد بن الحسن مركزه فاشتجرت الرماح واشتد الكفاح واختلفت الرصاص، وحينما رأى منصر العولقي ذلك انسحب من الميدان وتبعه قبائل يافع بمن بقي. أما الشيخ حسين الرصاص فقد وجد نفسه وحيداً ولكنه ثبت في ميدان المعركة رغم أنه صار هدفاً للرماح والرصاص، وأمر الصفي عساكره باستعمال السلاح الأبيض بدلاً من البنادق ربما لأنه خشي أن يطول القتال فينفد ما مع عساكره من رصاص فتصبح

البنادق عديمة الفائدة. واختلط الفريقان في معركة كانت حاسمة ووقع الشيخ حسين الرصاص قتيلاً وجميع من معه من الرجال، ولما رآه صفي الإسلام أمر عساكره بقطع رأسه فذبحوه وفصلوا الرأس عن الجسد وأرسلوا بالرأس إلى الإمام، وتدفق عساكر الإمام على مخيم الشيخ حسين ونهبوا كل ما فيه من أموال وذخائر. ولما رأى أخوه الشيخ صالح مقتله انسحب بحشمه وأهله إلى البيضاء.

جيش الإمام في يافع:

كان عز الإسلام محمد بن الحسين بن القاسم قد وصل إلى ميدان القتال بعد انتهاء المعركة فتوجه من حينه على بلاد يافع فسار إلى الخلفة ببعض العسكر واستقر بها يومين. ثم تقدم في نهار 19 جمادى الآخرة سنة 1065هـ (1654م) إلى سفح جبل العر حيث ركزت رتبة يافعية نفسها .. ودارت معركة بين الفريقين قتل فيها جماعة من عسكر الإمام، ثم حمل عسكر الإمام على رتبة يافع وهزموهم من سفح الجبل إلى أعلاه، وطلع بعدهم عسكر الإمام واحتلوا الجبل قهرا ثم دخلوا مرقد.

لما علمت قبائل يافع باستمرار محمد بن الحسين وعسكره في مرقد اجتمع الرجال من كل مكان وأحاطوا بمرقد وحاصروا العسكر الإمامي .. وحين رأى محمد بن الحسين أنه غير قادر على الصمود أمام قبائل يافع كتب إلى صفي الإسلام أحمد بن الحسن يطلب منه الإسراع بالنجدة، فبادر الصفي بجيوش كثيرة إلى مرقد وتمكن من قهر قبائل يافع التي انهزمت ثم طلبت الأمان. وبعد ذلك دخل عسكر الإمام بلدة "الموسطة" ولما رأى الأمراء اليمنيون أنهم قد احتلوا البلاد اليافعية عزموا على العودة إلى بلادهم وولوا السيد شرف الدين بن المطهر بن شرف الدين أميراً على تلك البلاد .. وعاد الأمراء إلى صنعاء رغم أن الإمام أراد منهم البقاء مع الجنود .. ثم أمر الإمام ابن أخيه الحسين بن الحسن بن القاسم بأن يكون حاكماً على البيضاء ويافع، فاستمر على ولايتها وهو في رداع.

سلطان حضرموت يعلن الولاء للإمام:

لما علم السلطان بدر بن عبد الله بن عمر الكثيري بانتصار عسكر الإمام في البيضاء ويافع أعلن الولاء للإمام وأطلق عمه السلطان بدر بن عمر من السجن

وولاه ظفار بناء على رغبة الإمام السابقة، كما أمر السلطان بالدعاء للإمام في خطبة الجمعة في المساجد، وبعث إلى الإمام بالزكاة وبهدايا أخرى.

ومن بين الرسائل التي كتبها السلطان بدر بن عبد الله إلى الإمام هي التي سجلها البحاثة الحضرمي السيد محمد بن هاشم والمؤرخة في سيئون في 15 رمضان سنة 1067هـ (1656م)، ومما قاله بدر بن عبد الله في رسالته يظهر لنا أن طائفة الهنود البانيان (الهندوس) كانت موجودة في حضرموت منذ أكثر من ثلاثمائة سنة، فقد ذكر في الرسالة ما يأتي:

" ثم قبيل ما تقرر لكم من محصول بندر الشحر المحروس من الرسم الهندي وما تقرر مما رسم على البانيان في مدة ثلاثة شهور 220 و300 جرف و15 من الذهب الأحمر، فالذهب الأحمر محسوب بست مائة وثلاثين قرشاً، والذي من الرسم الهندي سنة 1067هـ (1656م) وكذا البانيان 850 إلخ".

لكن العلاقات الطيبة لم تستمر طويلاً بين الإمام والسلطان بدر بن عبد الله فقد وقع شقاق بين بدر وأخيه جعفر ففر الأخير إلى الإمام ولكنه لم يلبث أن عاد إلى حضرموت واصطلح مع أخيه".

الإمام إسماعيل يحتل حضرموت:

في سنة1068هـ (1657م) استراب سلطان ظفار بدر بن عمر من تصرفات ابني أخيه بدر بن عبد الله وجعفر بن عبد الله فأرسل ولديه إلى الإمام شاكياً.

أما جعفر فقد جمع عدداً من الناس ووثب على ظفار واستولى عليها، فهرب عمه السلطان بدر بن عمر إلى عدن فاستقبله نائب الصفي أحمد بن الحسن بن القاسم بالإكرام ثم جهزه إلى اليمن ليبسط شكواه للإمام فاستقبله الإمام بإكرام وإعزاز.

وكتب الإمام إلى السلطان بدر بن عبد الله يلومه على المعاملة السيئة التي لقيها من عمه و"إن ما وقع على السلطان إنما هي جنايات وقعت علينا نحن" .. "وتنصل بدر بن عبد الله من المسئولية وأرسل مندوبه الشيخ محمد شيبان الصوفي إلى صفي الإسلام ليوضح له موقفه، ولكن الصفي أجابه: "هذا كتابي وبعده سيفي وركابي".

في جمادى الأولى سنة 1069هـ (1658م) رأى الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم أن الوقت قد حان لفتح حضرموت، فجهز جيشاً أسند قيادته إلى صفي الإسلام أحمد بن القاسم.

وفي 5 شوال بدأ الصفي زحفه على حضرموت فدخل مأرب وبيحان وأطراف بلاد العوالق ووصل إلى بلدة "واشط" وبعد ذلك واصل تقدمه إلى وادي حجر.

وكان السلطان بدر بن عبد الله قد استعد لمواجهة عسكر الإمام فتقدم مقدم جيشه إلى "ريدة بامسدوس" لمنع عسكر الإمام من الصعود إلى عقبة حجر، ولكن جيشه انهزم واستولى الصفي على العقبة ونهب خزانة المقدم وأزواده وذخيرته .. وتقدم الصفي إلى بلاد "الهجرين" واحتلها وزحف نحو مقر السلطان في "هينن".

وتجمع الحضارم للدفاع عن بلادهم فقاتلوا عن منصب سلطانهم، واشتبك الفريقان في حرب شديدة كان عسكر الإمام يطلقون فيها الرصاص على المدافعين فقتل منهم عدد كبير في الأودية والشعوب، وانهزم السلطان من هينن إلى "شبام" فاستولى الصفي على هينن ثم زحف على شبام التي كانت من عواصم الإسلام الشهيرة في الجزيرة العربية.

ولما رأى السلطان بدر بن عبد الله بن عمر أنه غير قادر على الاستمرار في القتال سلم شبام واستسلم وأعلن الطاعة للإمام. فأرسل الصفي بالسلطان إلى الإمام الذي استبقاه أياماً ثم سمح له بالعودة إلى حضرموت حيث لم يلبث حتى توفاه الله. وعاد صفي الإسلام أحمد بن الحسن بن القاسم إلى بلاده.

الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم:

في سنة 1087هـ (1676م) توفي إلى رحمة الله الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم.

وبعد ثلاثة أيام من وفاته عقد صفي الإسلام أحمد بن الحسن بن القاسم اجتماعاً دعا إليه علماء الدين وأمراء الجيش والرؤساء من أقاربه فتقرر بالإجماع إسناد منصب الإمامة إليه لأنهم وجدوا أنه الأنهض وأن الشروط اللازمة للمنصب متوفرة فيه. ولقب نفسه بالإمام المهدي بالله.

ولكن سرعان ما برز خصوم منازعون للإمام الجديد، فقد دعا القاسم ابن الإمام المؤيد محمد بن القاسم إلى نفسه وتلقب بالإمام المنصور.

ودعا الحسين بن الحسن بن الإمام القاسم وتلقب بالإمام الواثق.

ذكر مؤلف كتاب "بغية المريد وأنس الفريد": أن بعض كبار العلماء حينما بايعوا الصفي أنكروا عليه كثرة ما بيده من الأموال فأبرز لهم مرقوماً بختم عمه المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم بأنه وهب للصفي أحمد بن الحسن الأموال التي غنمها من بلاد الأمير حسين بن عبد القادر اليافعي سلطان عدن.

وقال الصفي للعلماء: "إن كل ما ترونه بيدي وأتقلب فيه من نعمة الأموال هي من الغنائم التي غنمناها نحن والمجاهدون من أموال ذلك الأمير وأصحابه الذين تعتقدونهم عاطلي المذهب أما أنا فأعتقدهم من كفار التأويل".

ولقد ثبت تعصب الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم للمذهب الزيدي من رسالته التي كان قد بعث بها إلى عمه المتوكل إسماعيل وذكر فيها أنه متعجب حينما يرى فقهاء الشافعية يؤمون الناس في مساجد تعز مع وجود فقهاء الزيدية، وأن فقهاء الشافعية يعلمون عقائدهم الخبيثة في مدارسهم ومساجدهم .. وفي هذه الرسالة يحث الإمام على القضاء على الشافعية، وكان يرى أن الأئمة الذين سبقوا المتوكل كان لهم عذرهم في عدم القضاء على الشافعية بسبب وجود دول شافعية في اليمن في الماضي، أما بعد انفراد الأئمة الزيود بحكم اليمن فيجب على الإمام أن ينفذ قضاءه فيهم .. وقال أحمد بن الحسن بالحرف الواحد "إن عذر الأئمة من قبلك واضح لعدم تمكن الوطأة فما عذرك عند الله في السكوت عن ذلك وقد تمكنت الوطأة؟".

وفي سنة 1092هـ (1681م) توفي الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم إلى رحمة الله بعد أن قضى أغلب أيام حكمه في حروب مستمرة مع خصومه من أقاربه الذين نازعوه الإمامة وكان رحمه الله هو الذي ضم دويلات جنوب الجزيرة العربية إلى اليمن، وهو أيضاً الذي بذر بذور الثورة في هذه المناطق الشافعية بسبب تعصبه الشديد للمذهب الزيدي.

أئمة الدولة القاسمية

الإمام القاسم:

بدأت الدولة القاسمية بعد فوضى انتشرت في كل أنحاء اليمن وحروب شديدة قادها أئمة اليمن ضد الحكم التركي العثماني .. واستمرت الفوضى من سنة 993 هـ (1585م) التي أسر فيها الإمام الناصر لدين الله الحسن بن علي بن داؤد بيد العساكر العثمانية في ناحية الأهنوم وأرسلوا به إلى السلطان العثماني في تركيا.

وفي سنة 1006هـ (1598م) ظهر مؤسس الدولة القاسمية في اليمن الإمام الأعظم المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد الرشيد بن أحمد ابن الأمير الحسين بن علي بن يحيى بن محمد بن يوسف الأشل بن القاسم بن يوسف الداعي بن يحيى المنصور بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ابن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

وكان هذا الإمام قطباً في العلوم الشرعية وبطلاً شجاعاً جاهد الاستعمار التركي العثماني وقاوم جنود السلطان العثماني بثبات وعزم وتصميم، فكان هو الذي مهد لجلاء العثمانيين عن اليمن فخلص بلاده ومواطنيه من استعمارهم الذي دام حوالي 115 سنة.

المؤيد محمد بن القاسم:

في سنة 1029هـ (1620م) توفي الإمام القاسم فتولى الحكم ومنصب الإمامة ابنه الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم. وفي عهده تم جلاء العثمانيين عن اليمن وعدن في سنة 1038هـ (1630م).

المتوكل إسماعيل بن القاسم:

في سنة 1054هـ (1644م) توفي الإمام المؤيد محمد وتولى بعده أخوه الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم وفي عهده استولى ابن أخيه صفي الإسلام أحمد بن الحسن بن القاسم على عدن وأبين ولحج في نفس السنة. واحتل

البيضاء ويافع وغيرهما من دويلات جنوب اليمن في سنة 1065هـ (1655م) واستولى على حضرموت في سنة 1067هـ (1657م).

المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم:

في سنة 1087هـ (1676م) توفي المتوكل إسماعيل وتولى بعده ابن أخيه الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم الذي ذكرنا تاريخ حياته في فصل سابق.

المؤيد محمد بن إسماعيل بن القاسم:

في سنة 1092هـ (1682م) توفي المهدي أحمد بن الحسن وتولى بعده ابن عمه الإمام المؤيد بالله محمد بن إسماعيل بن القاسم. وعارضه الحسين بن الحسن بن القاسم والقاسم بن محمد بن القاسم إلا أنهما اضطرا إلى التسليم له.

وفي عهد هذا الإمام ازدادت الفوضى انتشاراً في اليمن وفي المشرق - والمشرق هو عدن والسلطنات والإمارات الواقعة في جنوب اليمن ويطلق عليها اليوم "جنوب الجزيرة العربية".

المهدي محمد بن أحمد بن الحسن:

في سنة 1097هـ (1686م) توفي الإمام المؤيد محمد بن إسماعيل بن القاسم وبعد وفاته اشتدت وطأة الفوضى في اليمن، إذ أعلن أخوه يوسف في ضوران أنه الأنهض للأمة. وفي عمران ظهر الحسين بن أحمد بن القاسم ودعا لنفسه.

وفي نفس الوقت ظهر في المنصورة محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم ولقب نفسه بالإمام المهدي واشتهر باسم "صاحب المواهب". ووقعت حروب كثيرة بين المتنازعين على الإمامة انتصر فيها صاحب المواهب الذي عرف بولعه بسفك الدماء والتنكيل بخصومه كما عرف بتقريبه للعلماء .. وكان أول إمام يظهر بمظاهر ملكية.

المنصور الحسين بن القاسم وصاحب المواهب:

كان الإمام صاحب المواهب قد طعن في السن واكتنفته الأمراض وكثرت الفتن وازداد السخط من تصرفاته.

وقام المنصور الحسين بن القاسم بن المؤيد محمد بن القاسم بالدعوة لنفسه في بلاد العصيمات في سنة 1124هـ (1712م) واندلعت نيران حرب ضروس وسالت دماء اليمنيين غزيرة في كثير من أنحاء اليمن وتشتت ألوف وفقدوا دورهم وأرزاقهم واضطر عدد كبير من اليمنيين وخصوصاً من أتباع المذهب الشيعي الإسماعيلي إلى الهجرة إلى الهند وغيرها.

وذكر بعض المؤرخين أن صاحب المواهب كان قبل ذلك قد نقم على ابن أخيه القاسم بن حسين بن أحمد بن الحسن وقائد جيشه بعض الأمور وسجنه في صنعاء ثم في ذمار .. وعندما اشتد وطيس القتال أشار عليه بعض وزرائه بأن يطلق سراح ابن أخيه فأطلقه وندبه لقتال خصومه فتجهز القاسم على صنعاء واستولى عليها ثم سار إلى روضة حاتم وأقام فيها أياماً يجمع الأموال ويحشد الرجال فخمدت نار المنصور .. ثم توجه القاسم إلى عمران في سنة 1125هـ (1713م) وكان الإمام صاحب المواهب يتميز غيظاً حينما تصله انتصارات قائده ويغار من التفاف الناس حوله، وحاول أن يزيحه ولكن القاسم كان قد رتب أموره وحصن صنعاء ثم أعلن عدم الولاء لعمه صاحب المواهب وانضم إلى خصمه المنصور فأعلن الاثنان ومعهما قبائل كثيرة خلع صاحب المواهب من الإمامة وإسنادها إلى المنصور الحسين بن القاسم بن المؤيد في سنة 1127هـ (1715م).

المتوكل القاسم بن الحسين:

لم يبق المنصور الحسين بن القاسم طويلاً في منصب الإمامة ففي السنة التالية أجمع العلماء والأعيان على خلعه وتنصيب القاسم بن الحسين بن أحمد بن الحسن بن القاسم فاتخذ لقب الإمام المتوكل على الله.

المنصور الحسين بن القاسم بن الحسين:

في سنة 1139هـ (1727م) توفي المتوكل القاسم بن الحسين وتولى بعده ابنه المنصور الحسين بن القاسم، فنازعه الناصر محمد بن إسحاق بن المهدي ولكن النصر تم للمنصور.

وكان أخوه السيد أحمد بن القاسم متولياً أمر اليمن الأسفل ولحج وعدن، وكان قد أحاط نفسه بجو ملكي فخيم، وحدث الشقاق بين الأخوين فاعتبر

أحمد بن القاسم نفسه منفصلاً عن دولة أخيه المنصور فوقعت بينهما حروب مريرة ولكنهما اصطلحا حينما وجدا أن أمراء المشرق قد زادوا نشاطهم واستقلت لحج وعدن .. وبعد أن اصطلح الأخوان عاد فاستعاد لحج وعدن كما سنفصل ذلك في فصل قادم.

المهدي العباس بن الحسين:

في سنة 1140هـ (1728م) توفي الإمام المنصور الحسين بن القاسم .. وخلف عدة أبناء كان أكبرهم علي الذي كان الناس يتوقعون أن يخلف أباه على العرش، إلا أن مؤامرة كانت تحاك خيوطها في داخل القصر لإزاحته، فإن المنصور كانت له جارية سوداء أنجبت له ولده العباس .. وكانت ذات حظوة كبيرة ومقام سامي، وحينما توفي المنصور أخفت أم العباس نبأ الوفاة حتى تمكنت من الاتصال بالقاضي يحيى بن صالح الذي دعا الجند وكبار رجال الدولة لصالح العباس، وبعد أن توثق منهم ألقى القبض على علي وأعلن العباس ابن الحسين إماماً وملكاً على عرش اليمن .. واتخذ العباس لنفسه لقب المهدي وكان المهدي أسمر البشرة كأمه.

المنصور علي بن العباس:

في سنة 1188هـ (1774م) توفي الإمام المهدي العباس فخلفه ابنه المنصور علي. وكانت أيام هذا الإمام من أشد أيام اليمن فوضى وعدم استقرار، قال عنه الكبسي "كان في زي عظيم وملك عقيم، تلاشت عليه الأمور بخروج التهائم وبنادرها لما قامت الفتنة وعظمت المحنة بقيام عبد العزيز النجدي وابنه سعود فلم يبق للمنصور في التهائم ذكر، وكان ولده سيف الخلافة أحمد بن المنصور من أهل العقول الراجحة، وكان يكتب إلى سلطان الإسلام من آل عثمان ويستمد منه العون على إرجاع التهائم، فوصل يوسف القبطان من مصر بهدية فقابله بالإعظام وأكرمه غاية الإكرام، وقد صار أحمد غالباً على أمر أبيه المنصور .. فلما برز الأمر السلطاني على الباشا محمد علي نائب السلطان العثماني في الديار المصرية بالتجهيز العظيم على عبدالله بن سعود آخر أمراء النجديين كرر سيف الخلافة بن المنصور المكاتبة إلى محمد علي باشا في الاستعانة به".

المتوكل أحمد علي بن العباس:

في سنة 1224هـ (1809م) توفي الإمام المنصور علي بن العباس فخلفه ابنه المتوكل على الله أحمد .. وفي أيامه أشتد القتال بين أهل نجد والجنود المصريين بقيادة محمد علي باشا الذي تمكن من احتلال نجد والحجاز.

المهدي عبد الله بن أحمد:

في سنة 1231هـ (1816م) توفي المتوكل أحمد بن علي بن العباس فخلفه ابنه المهدي عبد الله.

وفي سنة 1232هـ (1817م) وقع اعتداء على دار المقيم البريطاني في المخا وقام حوالي ثلاثمائة عسكري يمني باغتصاب المصنع البريطاني وضرب بعض البحارة الهنود .. وكان الملازم دوميستي Domicetti ربان السفينة "برنس أوف ويلس Prince of Wales مريضاً بالحمى في الدار حينما هاجمه عدد من الجنود وسحبوه في الشارع وضربوه وبصقوا عليه ثم ساقوه إلى دار الحاكم الشيخ فتح الذي أمر بحبسه.

وفي سنة 1234هـ (1819م) طلبت حكومة بمبى من الإمام أن يعاقب حاكم المخا على تصرفاته والإهانات التي ألحقها برعايا بريطانيا .. ولكن الإمام لم يهتم بذلك الطلب. وعندئذ جهز الحاكم العام للهند فرقة من الجنود للإبحار إلى اليمن وإجبار الإمام على تنفيذ مطلب حكومة الهند التي كان من ضمنها التوقيع على معاهدة تتضمن الاحترام للرعايا وللمقيم البريطاني في المخا .. والمعاهدة تحتوي على البنود الآتية:

(أولاً) أن على المقيم أن يكون لديه حرس شبيه بالحرس الذي للمقيم البريطاني في البصرة وبغداد لضمان احترام شخصه.

(ثانياً) أن جميع خدم المصنع سيتمتعون بالحماية البريطانية ويخضعون للقضاء الذي يفرضه المقيم.

(ثالثاً) أن جميع التجار الهنود سيكونون تحت حماية الراية البريطانية وأن جميع المنازعات التي تقع بينهم ستكون من اختصاص المقيم. وإذا حصل نزاع بين أحدهم وأحد رعايا الإمام فإن المقيم سيقضي بينهما بالاشتراك مع مندوب من حاكم المخا.

(رابعاً) أن المقيم سيكون معفياً من جميع ما يعد تحقيراً وأنه سيكون حراً في ركوب الخيل متى وحيثما شاء وستكون له حرية الدخول والخروج من أبواب المخا بما في ذلك باب الشيخ الشاذلي الذي كان الأوربيون ممنوعين من استعماله.

(خامساً) أن قيمة الضريبة على الصادرات من البضائع البريطانية ستخفض من ثلاثة ونصف في المائة إلى اثنين وربع في المائة وهي القيمة التي كان الإمام والفرنسيون قد اتفقوا عليها منذ قصف الفرنسيين للمخا قبل قرن من ذلك التاريخ.

(سادساً) أن تخصص بقعة من الأرض لتكون مقبرة لرعايا بريطانيا وألا يسمح بسب أي رعوي بريطاني بسبب الديانة التي يعتنقها.

(سابعاً) أن تكون للمقيم البريطاني حرية السفر إلى صنعاء ليتصل بالإمام حينما يرى ذلك ضرورياً ويلزم على حاكم المخا أن يهيئ حرساً للمقيم في تلك المناسبات.

وفي سنة 1235هـ (1820م) أبحر الكابتن بروس Bruce إلى المخا مع بعض قطع الأسطول الحربي بقيادة الكابتن لوملي Lumley قائد السفينة توباز Topaz.

ولما رفض الحاكم الاستجابة إلى المطالب قصف الأسطول مدينة المخا ونزل الجنود إلى البر فاكتسحوها.

ووقعت اتصالات بين الإمام والبريطانيين واستنكر الإمام أعمال حاكم المخا وعزله واستبدل به حاكماً جديداً هو الشيخ فضل الله.

وفي سنة 1236هـ (1821م) صعد إلى سفينة القيادة الشيخ فضل الله ومعه الشيخ فتح ليقدم اعتذاره للقائد الإنكليزي الكابتن بروس.

وفي تلك السنة وقعت المعاهدة المذكورة بين بريطانيا والإمام .. ولاحظت بريطانيا وجود نقص في الترجمة العربية لبعض البنود فاتصلت بالإمام في صنعاء ولكن الإمام رفض المصادقة على التصحيح.

المنصور علي بن عبدالله بن أحمد:

في سنة 1251هـ (1835م) توفي الإمام المهدي عبد الله بن أحمد وخلفه ابنه علي الذي اتخذ لنفسه لقب المنصور. وقد وصف الكبسي هذا الإمام بقوله: "إنه

جاء إلى الحكم وقد تضعضعت المملكة ولم يبق إلا المدخر في خزائن بيت الأموال من آلة الحرب والذخائر فكان ينفق منها ويعول عليها وموارد البلاد انقطعت، وكان الجند يهجمون عليه ويتسلطون في المطالب ولم يكن له عليهم يد. وفي السنة التالية ثار عليه الجند وقبضوا عليه ونصبوا مقامه الإمام الناصر عبد الله بن الحسين بن المهدي العباس، وأودع المنصور وعمه محمد بن المتوكل أحمد في السجن .. وفي سنة 1256هـ (1840م) قتل الناصر في وادي ضهر وأخرج المنصور وعمه من السجن ونصبوا عمه محمد بن المتوكل أحمد إماماً فاتخذ لنفسه لقب المتوكل ثم حوله إلى الهادي واستمر في الحكم إلى سنة 1259هـ (1843م) حين توفي إلى رحمة الله، وعندئذ عاد إلى الحكم الإمام المخلوع المنصور علي بن المهدي فرجع إلى ما كان عليه من إخراج الذخائر وإتلاف بيوت الأموال".

وفي خلال سنة 1836م (1252هـ) زارت صنعاء بعثة إنكليزية برئاسة الضابط البحري مستر كروتندن Cruttenden والطبيب هرتن Hurton. ووصف كروتندن الإمام المنصور بقوله:

"كان علي المنصور حينذاك شاباً في الرابعة والعشرين من العمر ورث عن أمه الجارية البشرة السوداء وكانت عيناه تتألقان ببريق إجرامي. وفي الزيارة الأولى للإمام رآه الزائرون لابساً عباءة من الحرير القرمزي وواضعاً على رأسه عمامة بيضاء مشدودة حول كوفية مغطاة بالذهب وفي خاصرته خنجر مطعم بالحجارة الكريمة. وكان بلاط الإمام في صنعاء في حالة من الانحلال، وكانت العربدة هي الرذيلة المنتشرة بين كبار رجال الدولة، وفي زيارتين خصوصيتين للإمام رآه الزوار في حالة سكر شديدة تحيط به مجموعة من الراقصات المخمورات".

أئمة اليمن والمذهب الزيدي

المذاهب الشيعية ثلاثة: الإسماعيلية والاثنا عشرية والزيدية الإمامية.

وأتباع المذهب الزيدي لا يعتقدون كما يعتقد أتباع المذهبين الأول والثاني من أن الإمام معصوم من الخطأ وأن روح الله قد حلت فيه. والزيود معتزلة في العقائد وبعضهم غلاة كالجارودية.

ومذهب الزيدية ينتسب إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. وهو الذي قال له الشيعة: "نبايعك على أن ترفض موالاة الشيخين أبي بكر وعمر"، فأجابهم: "كيف أرفض موالاة من تولاه أبي وجدي؟"، فقالوا له: "إذا نرفض مبايعتك"، فقال لهم: "أذهبوا فأنتم الرافضة". ومن يومئذ انطلق عليهم اسم "الرافضة".

والإمام زيد هو شيخ أبي حنيفة في الفقه والحديث وله مسند مطبوع مشهور.

ولما أمر الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان بقتله وولده اختفى تلاميذه وكاد مذهبه يضيع ويذهب إلا أن الداعي الحسن بن زيد الطبرستاني -أحد بني عمومته من ذرية الحسن بن علي- قام بتجديد الدعوة للمذهب ونشره في الناس.

وبدأت الدعوة الزيدية في اليمن في سنة 280هـ (893م) حينما وصل إلى اليمن الإمام الأعظم الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم ابن الحسن بن علي بن أبي طالب سلام الله عليهم، فأذعن الناس له بالطاعة.

وفي سنة 300 هـ (912م) قدم إلى اليمن من جبل الرس بالمدينة المنورة ابنه الإمام الناصر أحمد وكان حازماً شجاعاً وعالماً فصيحاً فأشعل نيران حرب ضروس على أتباع علي بن الفضل الشهير بالقرمطي.

وأشهر الكتب المقروءة في مذهب الزيدية كتاب "الأزهار" للإمام أحمد المهدي و"المفتاح" و"التاج المذهب" للقاضي أحمد بن القاسم العنسي وكتاب "البحر الزخار".

ولعلماء الزيدية كتب نفيسة وآراء سديدة ومن المجددين منهم الأمير الصنعاني والشوكاني ومحمد بن إبراهيم الوزير والسيد الجلال.

وقد ذكرنا في فصل سابق أن الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم كان من الغلاة وكان لا يحتمل وجود فقهاء الشافعية في مساجد تعز وسماهم "كفار التأويل". ولتوضيح ذلك نذكر ما يأتي:

الكفر نوعان: عملي واعتقادي.

والكفر الاعتقادي نوعان: صريح ومؤول.

والكفر العملي لا يعامل أهله معاملة أهل الكتاب والمشركين ولكن عليهم مثل آثامهم كما في الحديث الشريف "لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض". وكقوله صلى الله عليه وسلم "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر".

وأمثلة ذلك كثيرة في الكتاب والسنة، وليس المراد أن القاتل يكون مثل عابد الصنم لا في الدنيا ولا في الآخرة ولكن يقال إنه عمل مثل عمله.

أما كفر الاعتقاد فإن كان ناتجا عن إنكار الألوهية أو النبوة والمسائل الغيبية المقطوع بثباتها في النصوص الدينية كإنكار الملائكة واستباحة الكبائر فهذا أشد الكفر وأخبثه، وهو صريحه وإن كان يتأول، وصرف الدليل إلى شيء آخر فهو كفر التأويل، ومثاله أن يقول الإنسان: "لا يجب صيام رمضان على المسلم إلا مرة واحدة" مستدلا بعموم الآية الكريمة "كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم" وما قال: "في كل عام".

ومثل ذلك حكم المعتزلة - وهم الزيود كما ذكرنا - على الأشاعرة بتعدد الآلهة لقولهم بصفات الله المعنوية ... ويقولون: إن النصارى قد جعلوا الله ثالث ثلاثة وجعلتموه ثامن ثمانية.

كما أن الأشاعرة يكفرون المعتزلي بإنكار رؤية الله يوم القيامة، لتأولهم قول الله تعالى: "لا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير".

وأتباع المذهب الزيدي يشترطون في الإمام أن يكون ذكراً مكلفاً حراً مجتهداً علوياً فاطمياً عادلا سخيا ورعا سليم العقل والحواس والأطراف ذا رأي وتدبير فارساً مقداماً.

انفصال عدن ودول جنوب اليمن عن الدولة القاسمية في اليمن

آل هرهرة في يافع:

كانت مقاطعات جنوب اليمن تعرف في الماضي باسم "المشرق" واليوم باسم "جنوب الجزيرة العربية"، وقد انفصلت عن اليمن بعد الانسحاب العثماني في سنة 1038هـ (1629م) واستمرت منفصلة حتى اكتسحتها عساكر الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم في سنة 1065هـ (1654م) بقيادة ابن أخيه صفي الإسلام أحمد بن الحسن بن القاسم الذي صار إماماً فيما بعد واتخذ لقب المهدي.

وفي سنة 992 هـ (1584م) وذلك في أواخر أيام الأسير الناصر لدين الله الحسن بن علي بن داؤد بن علي – أمر السيد العلامة الشيخ أبوبكر بن سالم مولى "عينات"، بتعيين العالم الفاضل الشيخ علي هرهرة مرشدا دينيا لبلاد يافع العليا، فلما توفي إلى رحمة الله تولى المنصب ابنه أحمد، وعند وفاته خلفه ابنه صالح بن أحمد بن علي هرهرة.

وفي عهد الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم الشهير بصاحب المواهب ازداد التذمر في دول جنوب اليمن.

ومن يافع بدأت الثورة على حكم الأئمة، فبعد أن كان آل هرهرة يعتبرون مرشدين دينيين، أجمع القوم على تنصيب الشيخ صالح بن أحمد بن علي هرهرة سلطانا على يافع العليا حتى يمكن أن يجدوا فيه الزعيم السياسي والقائد الحربي الذي يأملون أن يخلصهم مما كانوا يقاسونه من متاعب.

اتحاد السلاطين:

كان أول ما فعله السلطان صالح بن أحمد بن علي هرهرة أنه عقد تحالفاً مع السلطان معوضة بن محمد بن عفيف سلطان يافع السفلى (وتسمى أيضاً يافع القارة ويافع الساحل) ... ولما وجد بقية أمراء وسلاطين الجنوب نجاح التحالف اليافعي عقدوا مع يافع اتحاداً ليكونوا صفاً واحداً ضد حكم الأئمة وكان الاتحاد يتكون من:

1- سلطان يافع العليا صالح بن أحمد بن علي بن هرهرة.
2- سلطان يافع السفلى معوضة بن محمد بن عفيف.

3- سلطان العوالق صالح بن منصور.
4- أمير خرفة حالمين قاسم بن شعفل الحالمي.

وفي سنة 1112هـ (1701م) وجد أمير خرفة حالمين بلاده هدفاً لهجمات عنيفة قام بها جيش الإمام صاحب المواهب بقيادة الأمير عامر بن صالح، ولكنه تقهقر أمام الدفاع القوي الذي أظهره رجال الأمير قاسم.

وازدادت نية الإمام صاحب المواهب في القضاء على ثورة الجنوب بأي ثمن فأرسل بنجدات عسكرية إلى الأمير عامر بن صالح، فتمكن عندئذ من احتلال خرفة حالمين وانتشر فيها الجنود اليمنيون ينهبون ويحرقون.

وانسحب الأمير قاسم واستنجد بيافع السفلى فأسرع السلطان معوضة بجيش من يافع تدفق على خرفة وأخرج منها عسكر الإمام وطاردهم حتى أعادهم إلى المنطقة التي جاءوا منها، وفي تلك المعركة قتل قائد جيش الإمام عامر بن صالح وعدد من ضباطه.

انشقاق سلاطين الجنوب:

استمرت المناوشات بين الفريقين .. وحين رأى صاحب المواهب أن قتال أهل الجنوب لن يجديه نفعاً إزاء عزمهم وإصرارهم على الخلاص قرر أن يستعمل طريقة أجدى لتمزيق الاتحاد، فبدأ في مهادنة السلاطين وأحسن معاملتهم، ثم خطب بنت السلطان قحطان بن معوضة بن محمد بن عفيف الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه في سنة 1114هـ (1703م). وبهذا الزواج كسب الإمام سلطان يافع السفلى إلى صفه.

وأرسل الإمام حمولة عشرين جملاً من الذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان والملابس والبنادق والخناجر المغلفة بالذهب. ولما علم الأمير أحمد بن قاسم بن شعفل الحالمي بهذه الحمولة هجم على القافلة مع ابنه الأمير حسين وثلاثمئة من رجاله فاستولى عليها.

وغضب السلطان قحطان بن معوضة وكادت العصا تنشق لولا أن سارع السلطان ناصر بن صالح هرهرة إلى خرفة حالمين مع عدد كبير من رجال يافع العليا ويافع السفلى .. وتدخل بعض العقلاء وعقدوا اجتماعاً بين المتخاصمين فأعاد الأمير أحمد القافلة إلى السلطان قحطان.

تصميم السلاطين على الخلاص من الأئمة:

جاء في كتاب "مسيرات يافع" أن الإمام صاحب المواهب صاهر سلطان البيضاء أحمد بن علي الرصاص وسلطان العوالق صالح بن منصور وحاول أن يسترضيهما وبقية حكام الجنوب بالهدايا والأموال الجزيلة حتى يضمن هدوءهم لانشغاله بقتال أقاربه الذين نازعوه منصب الإمامة في اليمن، ولكن صاحب المواهب لم يستطع أن يجتذب هؤلاء الحكام إلى صفه.

وحاول صاحب المواهب أن يستميل إليه سلطان أبين (بلاد الفضلي) عبد الله بن أحمد الفضلي، وأمده بجنود ومدافع فحاصروا الطرية وقصفوها بالمدافع حتى استسلمت حاميتها .. ثم شعر السلطان عبد الله بأن معاملة نواب الإمام له ولمواطنيه كانت سيئة فاتصل بالسلطان أحمد بن علي الرصاص وبالسلطان قحطان بن معوضة وعقد معهما تحالفاً.

وفي نفس السنة اجتمع السلطان أحمد بن علي الرصاص والسلطان صالح بن منصر العولقي لإصلاح خلاف وقع بين السلطان قحطان والسلطان والرصاص يتعلق بالحدود الواقعة في أطراف أبين، وبذلك الاجتماع تم الاتفاق بين السلاطين على وجوب الخلاص من الحكم الإمامي ومتاعب نواب الأئمة.

وفي نفس السنة تجهز السلطان قحطان على لحج وعدن واستولى عليهما ولكن عساكر الإمام انتزعتهما منه.

وبعد وفاة السلطان صالح بن أحمد بن علي هرهرة خلفه ابنه ناصر الذي تجهز في سنة 1117هـ (1705م) واستولى على الرعارع في لحج وحاصر قلعة حمادي وأخرج منها العساكر الزيود الذين رتبهم الإمام صاحب المواهب .. وحاصر السلطان قلعة "الطرية" في أبين وحال بين حاميتها وبين إمدادات الإمام حتى جاع الجنود وأخلوا القلعة ليلاً فاستولى عليها رجال السلطان قحطان.

استقلال حضرموت:

لم يقنع سلاطين يافع بمحاربة الإمام في حدود يافع ولحج وأبين والشعيب وجبن والنعوة والربيعتين والظاهر وجبل حرير وحالمين بل ساروا لإنقاذ من بحضرموت من أهل السنة بعد ما استفزهم السيد علي بن أحمد بن علي بن سالم بن أحمد بن حسين بن أبي بكر بن سالم مولى "عينات" في سنة 1116هـ

(1704م) لمحاربة السلطان عمر بن جعفر الكثيري الذي انتحل مذهب الزيدية وتعصب لشعائره في حضرموت.

واستمرت كتاب "مسيرات يافع" يذكر أن بدر بن طويرق الكثيري أرسل بعقائر إلى يافع فتوجه معه السلطان عمر بن صالح هرهرة شقيق السلطان ناصر بستة آلاف مقاتل يافعي واستولى على جميع حضرموت وأزال بدعة الكثيري ورجع إلى يافع في سنة 1119هـ (1707م). وما زال بحضرموت أقوام من يافع تحت حكم سلاطين حضرموت الساحل "آل القعيطي" الذين يرجع نسبهم إلى يافع.

واستمرت الحرب سجالاً بين سلاطين يافع وعسكر أئمة اليمن حتى انتصرت يافع واستقلت عن حكم الأئمة.

انفصال لحج وعدن عن الدولة القاسمية

مشائخ لحج ونواب الإمام:

كانت العادة قد جرت على تعيين شيخ في لحج ليساعد نائب الإمام في النظر في شئون الرعايا ويكون بمثابة ضابط اتصال بين الحكام والرعايا.

ومن قرية "المجحفة" اللحجية كان اختيار الشيخ علي بن عبد الله بن سلام بن علي السلامي.

كانت تصرفات نواب الأئمة مدعاة للسخط، وحين رأى الشيخ علي قسوة نائب الإمام وتعاليه لم يخف نقمته على الأوضاع الشاذة. فغضب منه النائب وحاول إزاحته عن منصب المشيخة وتعيين بديل له، ولكن النائب فشل في مسعاه نظرا لتعلق الأهالي بمواطنهم الذي تجاوب مع مشاعرهم، فما كان من النائب إلا أن تآمر على الشيخ علي بن عبد الله الذي لم يلبث أن ذهب قتيلاً.

وأدرك آل سلام أن شيخ لحج ذهب ضحية غدر نائب الإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم بن الحسين بن أحمد بن الحسن بن القاسم.

وكان مقتل الشيخ هو الشرارة التي أشعلت نيران الحقد الكامن في النفوس فالتف الأهالي حول الشيخ فضل علي بن صلاح بن علي السلامي المجحفي واختاروه شيخا لهم بدلا من الشيخ علي القتيل.

ويظهر أن عامل الإمام حينما رأى سخط الناس وغضبهم أدرك أن قتل الشيخ علي بن عبد الله كان خطأً كبيراً فاحشاً، فحاول أن يداوي الخطأ فأقر تعيين الشيخ فضل بن علي صلاح شيخاً على لحج.

ومن النسب يظهر لنا أن والد الشيخ فضل كان من أبناء عمومة الشيخ القتيل علي بن عبد الله كما هو موضح فيما يأتي:

الشيخ علي: بن عبد الله بن سلام ابن علي السلامي.

الشيخ فضل: بن علي بن صلاح بن سلام بن علي السلامي.

مساعي الشيخ فضل وتحالفه مع يافع:

كان الشيخ فضل بن علي ذكياً في تصرفاته، فإن الذي يظهر لنا أنه حينما كان يرى البلاد المجاورة للحج تحت قيادة سلاطين وأمراء مستقلين عن سيطرة اليمن طمح إلى الانفراد بالأمر وتعيين نفسه حاكماً على لحج.

كانت السلطنات والإمارات المجاورة في ذروة ثورتها على الحكم الإمامي اليمني الذي أخذ يضعف ويتضاءل وينكمش، واستغل الشيخ فضل فورة الغضب التي عصفت في نفوس أهالي لحج فأراد أن يحقق أملين في وقت واحد: الخلاص من الحكم الإمامي اليمني، والانفراد بالسلطة.

وبدأ الشيخ مساعيه بمحالفة جاره السلطان سيف بن قحطان بن معوضة بن محمد بن عفيف سلطان يافع السفلى، وتم الاتفاق على أن يتسلم السلطان نصف مدخول عدن سنوياً مقابل مساعدته للشيخ فضل على الخلاص من حكم الإمام.

وبعد ذلك التحالف أعلن الشيخ فضل في سنة 1141هـ (1728) عداءه السافر لحكم الإمام ونائبه وانفصاله عن السيطرة اليمنية أسوة بجيرانه أهالي يافع العليا والسفلى والعوالق والضالع والبيضاء وأبين الذين تم لهم الفوز فانفصلوا عن نفوذ الإمام كما فصلنا ذلك فيما سبق.

مقتل عامل الإمام واستيلاء الشيخ فضل:

ذكر السيد شرف الدين حسين بن حسين بن صالح الأهنومي الرسي في كتابه "البراهين المضيّة في السيرة المنصورية" ما معناه:

وفي شهر ذي القعدة من سنة 114هـ (1731م) حصل الغدر من العبدلي فدخل مع جماعة على العامل المتساهل وباشروه بضرب السيوف ولم يكن معه شيء من السلاح حتى الجنبية، ثم إن العبدلي توجه إلى عدن فوجد عاملها هو وجماعة خارج عدن، وكان بينهم وبين العامل موعد للالتقاء فلم يشعر العامل إلاّ وهم يخبّطونه بالسيوف حتى برد وكل من كان عنده شرد، فاستولى الشيخ فضل على بندر عدن وعلى لحج.

ولما وصلت تلك الأنباء إلى اليمن اغتاظ المنصور وجهز جيشاً من همدان بقيادة الأمير سنبل الصادق وكتب الإمام إلى أخيه أحمد بن القاسم يأمره بأن يجهز جيشاً لمساعدة الأمير سنبل فجهز الأمير خمس مائة من رجال قبائل حاشد وبكيل.

وزحف جيش الإمام على لحج، وفي صفر من السنة المذكورة وقعت الحرب بين عسكر الإمام ورجال الشيخ فضل الذي وجد أنه لا قبل له في الاستمرار في القتال فاستسلم وسلم لحج وعدن للأمير سنبل الصادق.

ولما وضعت الحرب أوزارها أمر الأمير أحمد بن القاسم بترحيل رجال حاشد وبكيل من لحج لأنهم لن يستطيعوا البقاء طويلاً في أرض لحج الحارة وهم أبناء الجبال الشامخة في اليمن.

وبقي الأمير سنبل الصادق نائباً عن الإمام في لحج وعدن من صفر سنة 1144هـ حتى رجب سنة 1145هـ (1731 – 1732م). وأراد الإمام أن يفرض غرامة على الشيخ فضل فأمره بأن يدفع خمسة عشر ألف ريال تأديباً له على تجرئه على سلطة الإمام. وأظهر الشيخ فضل الطاعة ولكنه طلب مراجعة الإمام لأجل تخفيض المبلغ فوافق الإمام على تخفيضه إلى عشرة آلاف.

ويظهر أن الإمام أدرك بأن الشيخ فضل ربما فكر في وسيلة للثأر رغم إظهاره الخنوع فأعد تجدات عسكرية لتعزيز الحامية اليمنية في لحج التي كان الوباء قد انتشر في عساكرها.

فرار الشيخ فضل إلى يافع:

فر الشيخ فضل بن علي إلى يافع السفلى مستجيراً بسلطانها سيف بن قحطان وذبح العقائر في أسواق القارة على عادة البدو حينما يطلبون النجدة .. واجتمع الشيخ وتباحث معه في مساعدته على إخراج عسكر الإمام من لحج وعدن، وكانت من بين شروط الاتفاق المواد الآتية:

(أولا) أن يقوم السلطان سيف بن قحطان بمساعدة الشيخ فضل بن علي وذلك بإمداده بالمال والرجال والسلاح في الهجوم على لحج وطرد عسكر الإمام منها.

(ثانياً) أن تكون عدن للسلطان سيف.

(ثالثاً) أن يكون الشيخ فضل تحت طاعة السلطان سيف وأن يكون عاملاً من عماله وأن يبقى في لحج شيخاً من جملة مشائخها.

(رابعاً) أن ينساق مدخول البلاد كلها إلى السلطان سيف.

وجرد السلطان قبائل يافع وزحفوا مع الشيخ فضل نحو لحج.

جلاء عسكر الإمام من لحج وعدن:

التقى عسكر الإمام المنصور بقبائل يافع برئاسة الشيخ فضل بن علي والسلطان سيف واشتبكوا في معارك دارت رحاها في "الحوطة" عاصمة لحج ..

وانسحب السلطان إلى حصن أبين بعد أن أمر رجاله بأن ينهبوا ما يقدرون عليه في لحج. وإزاء الضغط الشديد من عسكر الإمام اضطر الشيخ فضل إلى التقهقر إلى بعض نواحي لحج ومعه خمسمائة يافعي. ووجد الشيخ أنه لن يقدر على إزاحة عسكر الإمام من لحج بهذا العدد من الرجال الذين معه .. فتوجه نحو عدن التي كان يحكمها عامل الإمام الشيخ أحمد الوادعي.

جاء في البراهين المضيّة ما يأتي:

"ولما كان في شهر رمضان سنة 1145هـ (1732م) قدم العبدلي ومن معه من أهل يافع على الرتبة الذين في عدن وهم قدر 250 من أصحاب الإمام وهم توابع من حاشد وبكيل، وكان العامل يقال له الوادعي، ولعل العبدلي كاتبه تواطأ معه، فدخل العبدلي البندر من جانب البحر في سنابيق وهم أهل خبرة ومعرفة فما عرفت الرتبة إلا وهم في المدينة والرتبة في رؤوس الجبال في محلات متباعدة لأن عدن واسعة وجبالها شامخة ... ودخل هؤلاء من البحر فما أمكن أفراد الرتبة إلا أن حافظوا على أنفسهم ودافعوا ثلاثة أيام ونالتهم المشقة من قلة الماء والطعام .. ثم إن العبدلي اشترط أن يسمح لهم بالخروج من عدن بحراً إذا هم سلموا سلاحهم، ولكن السيد العيدروس توسط لهم فتقرر أن يغادروا عدن ومعهم سلاحهم وأمتعتهم.

وغادرت الرتبة عدن بحراً إلى المخا "وهكذا خرجت عدن عن دائرة نفوذ دولة الإمام القاسمية في اليمن".

ويستمر مؤلف "البراهين المضيّة" قائلاً:

"لما كان في شهر القعدة الحرام سنة 1145هـ (1732م) لم يقر للعبدلي قرار من بقاء محطة لحج ولم يهنأه طعام ولا شراب فعزم مرة أخرى إلى السلطان سيف العفيفي وقدم له هدية كبيرة من المال واستغاثه على أن يعينه على إخراج رتبة الإمام في لحج، وقطع على نفسه عهداً أن تكون البلاد كلها للسلطان سيف.. وقبل السلطان سيف، وجمع رجاله وتوجه نحو لحج مع الشيخ فضل وقد أضمر السلطان أن يحتل عدن لنفسه. وحوصرت رتبة الإمام في لحج مدة طويلة تقرب من نصف شهر حتى قل الطعام والماء فجاعوا وجاعت معهم دوابهم، وأمر السلطان أن تطلق قنابل المدافع على الحصن فضاقت أحوال الرتبة ولم يكن أمامهم مفر من التسليم ففاوضوا المحاصرين على السماح لهم بمغادرة الحصن بكامل معداتهم، ولكن السلطان سيف والشيخ فضل رفضا ثم قبلا هذا الشرط".

شاهدت أزقة لحج عسكر الإمام حاملين بيارقهم وأسلحتهم عائدين إلى اليمن.

وهكذا خرجت لحج عن دائرة نفوذ دولة الإمام القاسمية في اليمن.

كان الإمام المنصور حينذاك منشغلاً في إخماد ثورة بلاد "يام" اليمنية فلما وصلته أنباء استيلاء الشيخ فضل بن علي على لحج وعدن أمر عامل العدين الشيخ عبدالرب بن وهيب العنفي بأن يتقدم نحو لحج ويستعيدها، ولكنه انهزم في أرض الحواشب المتاخمة للحج وعاد إلى بلاده. ويقال إنه تسلم رشوة فانسحب.

الشيخ فضل بين يافع واللحجيين:

لاحظنا استمرار اتصال الشيخ فضل بن علي بسلطان يافع ليساعده برجاله في القتال ضد حكم الدولة القاسمية في اليمن. وربما تساءل بعضنا لماذا اعتمد الشيخ فضل على قبائل يافع ولم يعتمد على مواطنيه في لحج؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل نجدها في سطرين في صفحة 155 من كتاب "ذي بريتش ستلمنت أوف إيدن" لمؤلفه الكابتن هنتر حيث يقول عند ذكره للحج وسكانها ومقارنتهم ببقية قبائل الجنوب:

"وأهالي لحج هم أكثرهم حضارة ولكنهم أقلهم رغبة في القتال".

وربما أن الشيخ فضل كان يعلم أن مواطنيه كانوا أكثر رغبة في السلام فاعتمد على قبائل يافع في كفاحه المرير للانفصال عن الدولة القاسمية، وربما أن الشيخ فضل أدرك أن الشعب في لحج لم يكن بإمكانه أن يقدم له المساعدة في كفاحه بسبب الضغط الشديد الذي كان واقعا على الأهالي من نواب الإمام وعسكرهم المنتشرين في كل مكان من لحج، فتوجه نحو يافع وسلطانها الذين كانوا قد تخلصوا من سيطرة الدولة القاسمية وصاروا أحرارا في تحركاتهم وتصرفاتهم، فساعدوا الشيخ فضل بن علي في الوقت الذي كان فيه الأهالي في عدن ولحج في حالة سلبية إما بسبب عدم رغبتهم في القتال أو بسبب الضغط من عسكر الإمام.

الفترة التي حكمت فيها الدولة القاسمية جنوب الجزيرة العربية:

لم تكن عدن ولحج وأبين تابعة لسلطة أئمة اليمن قبل وبعد انسحاب الأتراك العثمانيين من اليمن في سنة 1038هـ (1629م). ولم تدخل هذه البلاد في نطاق

الدولة القاسمية الإمامية إلا حين تمكن صفي الإسلام أحمد بن الحسن ابن القاسم من احتلالها في سنة 1054هـ (1644م).

وفي سنة 1065 هـ (1654م) احتل البيضاء ويافع والعوالق وبقية دول الجنوب.

وفي سنة 1069هـ (1658م) احتل حضرموت.

واستمرت هذه البلاد تحت حكم الإمام إسماعيل بن القاسم ثم في عهد ابن أخيه صفي الإسلام الذي صار إماماً واتخذ لنفسه لقب "المهدي بالله". وبوفاة المهدي في سنة 1092هـ (1682م) انتهت السيطرة الفعلية على عدن ولحج وأبين وبقية دول الجنوب.

مما تقدم ندرك أن هذه البلاد وقعت تحت حكم الدولة القاسمية في المدد المفصلة فيما يأتي:

عدن ولحج	من سنة 1054	إلى سنة 1092 = 38 سنة
دول الجنوب	من سنة 1065	إلى سنة 1092 = 28 سنة
حضرموت	من سنة 1069	إلى سنة 1092 = 23 سنة

وتوالى أئمة اليمن وكانوا جميعاً في حالة حرب ونضال مع أهالي الجنوب وفي داخل اليمن نفسها.

وكانت عدن ولحج وأبين قد وقعت تحت حكم سلطان يافع السفلى.

وحين انتهت البعثة الفرنسية من زيارة اليمن في سنة 1121هـ (1708م) زارت عدن وذكرها عضو البعثة المسيو لاروك بأنها مستقلة عن إمام اليمن صاحب المواهب.

وحاول صاحب المواهب أن يخضع هذه الدول ولكنها حاربته حتى تخلصت من نفوذه.

وفي عام 1139هـ (1727م) تربع الإمام المنصور الحسين بن القاسم ابن الحسين بن أحمد بن الحسن بن القاسم على عرش اليمن واستولى أخوه أحمد على عدن ولحج ولكنه لم يكن احتلالاً فقد تخللته المناوشات والمعارك حتى سنة 1145هـ (1732م) حين انسحبت العساكر اليمنية من لحج وعدن.

الدولة العبدلية في لحج وعدن

أصل العبادل:

ذكر الأستاذ سلام فارع أن أمراء لحج يعودون بنسبهم إلى بني عبد الله من أرحب، فهم همدانيون يمنيون، هناك رأي قائل إنهم من يافع، ولكن الراجح أنهم كانوا نقباء للعساكر اليمنية فأصبحوا حكاماً على لحج.

وفي صفحة 27 من كتاب "كنجز أوف أرابيا" ذكر الكرنل جيكب أن الشيخ فضل كان نائباً للإمام في لحج .. وهذا القول يؤكد الرأي القائل بأن العبادل حكام لحج كانوا نقباء في عسكر الإمام.

ولكن الأمير أحمد فضل العبدلي يذكر في صفحة 124 من كتابه "هدية الزمن" ما يأتي:

"لقد كان الشيخ فضل بن علي من أعرق الأسر اللحجية وعين أعيان القبيلة السلامية وعماد صناديد مشائخ لحج الشافعية، رث المشيخة عن أسلافه الأماجد وقام بخدمة البلاد والعباد حين صار أمر الدولة القاسمية فوضى في اليمن وأظهر بعض العمال (الحكام) الزيدية الاستقلال بعدن".

وكلام الأمير أحمد فضل يؤكد أمرين: أن مشائخ لحج شوافع لا زيود وأنهم من "أعرق" الأسر اللحجية .. ولكن الأمير أحمد فضل يذكر في صفحة 41 قوماً من آل سلام كانوا عسكراً عند الحاكم الزيدي بالمخا السيد عبد الله بن دريب. ويذكر في نفس الصفحة أن صلاح بن سلام جد الشيخ فضل بن علي وابن عمه أحمد بن صلاح كانا معاصرين لأمير لحج وعدن حسين بن عبد القادر اليافعي الذي انهزم إلى يافع بعد استيلاء صفي الإسلام أحمد بن الحسن بن القاسم على عدن ولحج.

والأمير أحمد فضل يؤكد في صفحة 143 أن آل سلام من قبيلة كلد اليافعية، وأما الحسيني فسلامي بلا شبهة وإنما أنكر سلاميته من ظن جهلاً أن السلامية انتماء إلى سلام بن علي صاحب المجحفة، وذلك خطأ، فإنما آل سلام المجحفة بيت من بيوت آل سلام اليافعي المنتشرة في لحج ويافع والمخا.

ومما تقدم ندرك أن الأمير أحمد فضل ينفي أن آل سلام مشائخ العبادل كانوا نقباء في عسكر الإمام ولكنه يؤكد أنهم كانوا عسكراً في الجيش القاسمي الإمامي في المخا.

وإذا كانوا حقيقة نقباء في عسكر الإمام فلا ريب أنهم ليسوا من يافع أصلاً لأن يافع كانت في ثورتها العارمة ضد حكم الأئمة في أيام الإمام المهدي صاحب المواهب ثم في أيام الإمام المنصور، ولا يمكن أن يعتمد الإمام على رجال لهم نسب في يافع فيجعلهم نقباء في عسكره وهم الثائرون عليه، فلابد إذن أن يكون أمراء العبادل من الزيود أنصار إمام الزيدية.

وهناك احتمال آخر وهو أن صلاح بن سلام بن علي كان يسمى صلاح السلامي نسبة إلى والده سلام بن علي، وصار أبناؤه وأحفاده يدعون آل سلام أو آل السلامي. هذا بالرغم من أن الأمير أحمد فضل قد نفى هذا الاحتمال فيما تقدم.

وتزوج الشيخ فضل امرأة يافعية أنجبت له ابنه عبد الكريم الذي خلف والده في الحكم ثم حول المشيخة إلى سلطنة وأعلن نفسه سلطاناً.

وربما أن هدف الشيخ فضل من زواجه بيافعية توثيق العلاقات بينه وبين يافع. أما الابن الثاني للشيخ فضل وهو محسن فقد كانت أمه لحجية. وأنجب عبد الكريم خمسة أبناء لم يخلفوا أولاداً فتحولت السلطنة إلى أولاد محسن فضل جد العائلة الآمرة العبدلية في لحج في وقتنا الحاضر.

شيخ لحج وسلطان يافع يحكمان عدن:

صار الشيخ فضل بن علي بن صلاح بن سلام بن علي السلامي حاكماً مستقلاً على لحج في سنة 1145هـ.

أما عدن فكان حكمها ثنائياً .. فقد كان فضل قد اتفق مع السلطان سيف على أن يسلم إليه نصف مدخول عدن مقابل مساعدته له على الخلاص من حكم الدولة القاسمية، أو أن يتسلم الشيخ مدخول سنة ويتسلم السلطان مدخول سنة، وبناء على ذلك الاتفاق، فالمفروض أن يكون للسلطان سيف الحق في الإشراف على الدخل والخرج.

ذكر الكرنل جيكب في صفحة 27 من كتابه أن الشيخ فضل بن علي (نائب الإمام - كما وصفه) نبذ طاعة الإمام في سنة 1728هـ وتمكن مع قبائل الشمال الشرقي (يافع) من احتلال عدن، وكان الاتفاق قد تم بين الطرفين على التمتع بمدخول عدن بالتناوب - سنة لشيخ لحج وسنة لسلطان يافع - ولكن الشيخ فضل نقض الاتفاق في سنة 1735م وانفرد بمدخول عدن.

لكن الأمير أحمد فضل يذكر في صفحة 117 من كتابه: أنه اطلع على وثائق قديمة بين يافع والعبادل تثبت أنهم جعلوا للسلطان خمس مائة ريال من مدخول عدن سنويا، وذكر أيضاً أنه أطلع على وثائقٍ أخرى تثبت أن آل عطية من قبائل يافع طالبوا الشيخ فضل أن يجعل لهم شيئاً من نصف مدخول عدن الذي تم الاتفاق عليه ولكن الشيخ رفض فقام محسن بن عطية مع خمس مائة من قبائل يافع بغزو لحج وأغار على العاصمة "الحوطة" ووصلوا إلى ميدان مساوا.

وذكر الكابتن بليفير في كتابه "تاريخ اليمن أو العربية السعيدة": أن السلطان سيف والشيخ فضل اتفقا على أن يتداولا مدخول عدن.

وذكر الكرنل جيكب أن جشع الشيخ فضل كان السبب في سرعة تدهور ميناء عدن والهبوط بها إلى مستوى ضئيل الشأن بعد أن كانت ميناء بحرية عظيمة الأهمية.

مقتل الشيخ فضل بن علي:

في سنة 1155هـ (1742م) توجه الشيخ فضل بن علي لإصلاح خلاف وقع بين السلطان سيف وبعض قبائل يافع، واصطحب معه ابنه عبد الكريم وثلاثمائة من العبادل .. وبالقرب من حصن خنفر كمن جماعة من قبائل آل عطية ومعهم عدد من بقايا عسكر الإمام.

ولما اقترب موكب الشيخ فضل من الحصن أطلق القناصة الكامنون رصاص البنادق فأصيب الشيخ فضل وسقط من جواده قتيلا .. وبعد انجلاء المعركة أسرع بعض عسكر الإمام يفتشون بين القتلى .. ولما وصلوا إلى جثة الشيخ فضل قطعوا رأسه ووضعوه في كيس من الجلد ورحلوا به إلى مقام الإمام المنصور الذي منح كلا منهم عشر أوقيات من الذهب.

السلطان عبد الكريم فضل بن علي:

بعد مقتل الشيخ فضل بن علي عاد ابنه عبد الكريم إلى لحج وتولى المشيخة وكان أول ما فعله عبد الكريم أنه نقض الاتفاق الذي يقضي بتسليم السلطان سيف اليافعي نصف مدخول عدن وخمسمائة ريال سنوياً، فثارت يافع على قرار

الشيخ عبد الكريم وهجمت قبائلها على عدن واحتلتها، ولكن عبد الكريم قبل أخيرا أن يستمر في تسليم المبلغ لسلطان يافع فرحلت قبائل يافع عن عدن.

ووجد الشيخ عبد الكريم أمامه مسئوليات متشعبة ومشاكل متعددة فأراد أن يجعل لنفسه مكانة أعظم وشخصية أقوى من مكانة وشخصية "شيخ" ولأجل أن يكون في مستوى واحد وسلاطين وأمراء المناطق المجاورة، فقد أعلن نفسه سلطانا بدلا من شيخ وأعلن بلاده سلطنة بدلا من مشيخة.

تحالف إمام اليمن وسلطان لحج:

جاءت سنة 1758م والحرب مستعرة الأوار بين الإمام المهدي العباس بن الحسين بن القاسم بن الحسين بن أحمد بن الحسن بن القاسم وبين أمير الحجرية الشيخ عبد الرب بن وهيب العنفي الذي كان قد انشق على الإمام واستولى على الحصون والقلاع في كثير من نواحي اليمن الأسفل ولم يستطع الإمام أن يخضعه.

وخشي السلطان عبد الكريم فضل على بلاده من هذه الحرب المريرة في اليمن فأراد أن يطمئن على بلاده فتقرب إلى الإمام وأرسل وفداً إلى اليمن يحمل هدايا ثمينة للإمام فرحب الإمام بحركة السلطان وتحالف الاثنان على أن يكونا يدا واحدة ضد أمير الحجرية القوي الجانب، وقررا أن يهجم الاثنان عليه كل واحد من الناحية التي يحكمها.

ولكن رد الفعل جاء سريعاً دل على ما تميز به عبد الرب من جرأة وشجاعة فقد جرد عساكره إلى لحج واستولى عليها، ففر السلطان عبد الكريم إلى عدن وانحصر فيها خمسة أشهر، لم يحاول الإمام خلالها أن يقوم بأي عمل لإنجاد حليفه، فتفاوض السلطان مع عبد الرب على أن يهب له مبلغاً ضخماً من المال فيأمر بسحب رجاله من لحج، فوافق عبد الرب وتسلم المال وانسحب.

السلطان عبد الهادي عبد الكريم:

استمر السلطان عبد الكريم يحكم لحج وعدن مدة خمس وعشرين سنة حتى توفاه الله سنة 1180هـ (1766م) بعد أن خلف خمسة أبناء: عبد الهادي وفضل وأحمد وعلي ومنصر. أما علي فقد توفي في عدن في حياة والده بسبب حجرة سقطت على رأسه بينما كان يسير في أحد شوارع عدن فقتلته.

وبعد وفاة السلطان عبد الكريم تولى السلطة ابنه البكر عبد الهادي.

كان الشيخ محسن فضل، أخو عبد الكريم فضل، يتوقع أن يتربع هو على عرش السلطنة خلفاً لأخيه لأنه، بعد وفاة عبد الكريم، أكبر رجل في العائلة العبدلية؛ ولكن الاختيار وقع على عبد الهادي كوريث لأبيه، فغضب محسن فضل واعتبر ذلك الاختيار إهانة له ولمقامه، ولم يكتم غيظه بل أعلن سخطه سافراً على ابن أخيه السلطان عبد الهادي.

واكتنفت الإحن والمشاكل السلطان عبد الهادي ولم يجد سلاماً وهدوءاً وهو يرى نفسه مغلولاً لا يستطيع أن يعمل، فضعف أمره وكثرت الأطماع وبات شبح الخراب يهدد السلطنة بالانهيار.

عزب مكي في عدن:

في سنة 1185هـ (1771م) هبط على بندر عدن الشيخ عزب مكي عزب العزيبي واستولى عليها وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً عن الدولة العبدلية في لحج.

وخشي عبد الهادي إن هو تقاعس أن يظهر آخرون يقتطع كل واحد منهم جزءاً من السلطنة فتتبدد ويذهب ريحها وتكون جهود الشيخ فضل بن علي والدماء الغزيرة التي سالت في سبيل تأسيس الدولة العبدلية قد ولت هباء وراحت بدداً، لذلك رأى السلطان عبد الهادي أنها فرصته ليثبت شخصيته وقوته فتوجه نحو عدن وانتزعها من الشيخ عزب مكي بعد أن كان قد تسلطن عليها يومين اثنين.

أرض العقارب:

كان الشيخ محسن فضل يقف متفرجاً متحيناً الفرص لانتزاع السلطنة مهما ضؤل شأنها وضاقت رقعتها، لكن ظنه خاب في الشيخ العزيبي الذي لم يتمكن من البقاء في عدن سوى يومين.

ورأى الشيخ محسن فضل أن الشيخ مهدي العقربي، شيخ قبيلة العقارب، كان يطمح إلى الانفصال بقبيلته عن سلطة العبادل، كما رأى أن عدداً من مشائخ آل سلام كانوا يعملون على الثورة على السلطان، فسعى الشيخ ليزيد

النار ضراماً. وأحاطت المتاعب بالسلطان وأدرك أنه يواجه خصوماً أقوياء، عمه محسن فضل وعدد من مشائخ قبيلة جده فضل بن علي.

واغتنم الشيخ مهدي العقربي الفرصة وجمع رجاله واستولى على بير أحمد التي عرفت في التاريخ باسم "الأخبه" (راجع ولاية الزنجبيلي في عدن في تاريخ دولة بني رسول من هذا الكتاب). وأعلن الشيخ مهدي الاستقلال عن السلطنة العبدلية في سنة 1186هـ (1772م)، فاستشاط عبد الهادي غضباً وجهز العساكر لغزو بير أحمد وإخضاع شيخها، لكن السلطان وجد خصماً جديداً يقف ضده في ميدان الصراع .. كان الخصم "أبين" دولة بلاد الفضلي .. وعلم السلطان عبد الهادي أن الشيخ مهدي قد تحالف مع سلطان الفضلي وطلب منه أن يمده بالمال والرجال والسلاح ليدافع عن استقلاله، فقدم له الفضلي ما أراد وبذلك ضمن الشيخ مهدي بقاءه منفصلاً ببلاده عن سلطنة العبادل.

وكظم السلطان عبد الهادي غيظه فقد وجد خصماً جديداً ينضم إلى خصومه، ولكن غيظه لم يلبث حتى ثارت حينما وجد أن عمه كان وراء كل تلك المتاعب، وأنه مازال مصراً على الاستمرار في خلق المضايقات حتى لتوشك الدولة العبدلية أن تتفرق أيدي سبأ.

ثورة السلطان على عمه:

قرر عبد الهادي أن يضع حداً للمتاعب التي كان عمه الشيخ محسن فضل يذكيها بمكائده، وكانت الخطوة التي اتخذها السلطان عنيفة رهيبة تميزت بالقسوة المتناهية، فقد رأى أن بقاء عمه على قيد الحياة قمين بأن يعجل بزوال الدولة العبدلية.

وفي أحد الأيام السوداء في تاريخ الأسرة العبدلية سقط الشيخ محسن فضل قتيلاً بيد ابن أخيه السلطان عبد الهادي.

وخلف الشيخ محسن فضل ولده فضل الذي فر مع عائلته وعائلة والده من الحوطة إلى قرية الحمراء حيث بقي منفياً يجتر آلامه لمقتل أبيه.

أهل لحج ومقتل محسن فضل:

أحس السلطان عبد الهادي بالراحة والطمأنينة بعد مقتل عمه، وضرب حصاراً شديداً حول ابن عمه فضل محسن فضل في الحمراء.

كان الناس في البلاد العبدلية لا يتوقعون أن يتجرأ السلطان عبدالهادي فيقتل شيخ الأسرة العبدلية عمه محسن فضل فأخذتهم المهابة واستولى عليهم الخوف من أن يلاقوا نفس المصير.

وكان هناك من هم أقوى من السلطان رجالاً ونفوذاً وهم آل سلام، ولكن حتى هؤلاء وقفوا مترددين، فما دام السلطان لم يتورع عن قتل عمه فليس أسهل عنده من القضاء عليهم، جملة واحدة أو فرداً إثر فرد.

وأثبت السلطان عبد الهادي وجوده وقوة شخصيته.

والحكام الذين يشعرون باهتزاز عروشهم لأي سبب من الأسباب يخلقون الحوادث الكبيرة ثم يقفون في القمة رافعي الرؤوس شامخي الأنوف يرنون إلى الناس بعيون ملتهبة والسلاح في أيديهم فلا يرفع أحد رأسه إلى مستوى رءوسهم حتى لو كانوا من أهلهم ومن أقرب المقربين إليهم.

هكذا كان حال السلطان عبد الهادي، قتل عمه وقتل معه عدداً من مشائخ قبيلة آل سلام القوية، ثم تلفت يمنياً ويساراً وخلفاً وأماماً باحثاً عمن يتجرأ فيرفع رأسه ليطيح بذلك الرأس، ولكنه وجد الكل رافعين أيديهم نحو السماء داعين له بالعمر الطويل. وسكنت الفتنة وآمن السلطان بأن الغاية تبرر الوسيلة.

كان السلطان عبد الهادي يتمنى أن يكون له ولد يورثه العرش كما ورث هو العرش عن أبيه عبد الكريم ولكنه توفي في سنة 1194هـ (1780م) دون أن ينجب أولادا بعد حكم دام أربع عشرة سنة.

السلطان فضل عبد الكريم:

بعد وفاة السلطان عبد الهادي بن عبد الكريم فضل بن علي بن صلاح بن سلام بن علي السلامي خلفه أخوه السلطان فضل عبد الكريم الذي توفي في سنة 1207هـ (1792م) بعد حكم استمر اثنتي عشرة سنة دون أن يخلف أولادا.

السلطان أحمد عبد الكريم:

بعد وفاة السلطان فضل عبد الكريم تولى الحكم أخوه السلطان أحمد عبد الكريم.

ذكر الكابتن بليفير أن السلطان أحمد كان يرحب بالوافدين الإنكليز وأنه كان جميلاً بشوشاً محبوباً من قومه مولعاً بالزراعة، صادق الإنكليز فسلك أحسن سلوك الأصدقاء.

كان السلطان أحمد عبد الكريم متسامحاً مع المسيحيين الزائرين لبلاده بعكس غيره من الحكام في اليمن، وبهذه المناسبة ذكر المستر سولت الزيارة التي قام بها لسلطان لحج بصحبة نائبه في عدن الشيخ أبوبكر، فبعد الغداء وقف أبوبكر وألح إلى أنه يعرف أن من عادة المسيحيين أن يتناولوا الخمر بعد الطعام وأنه لذلك سيغادره فترة قصيرة حتى ينتهي من التمتع بها.

وقال المستر سولت إن من الصعب أن نجد شخصا يعيش رعاياه متمتعين بالخيرات التي يحسدهم عليها الغير مثل رعايا هذا السلطان، فإن سلوكه في الجرأة والعدل رفعه إلى مقام محترم عال بين حكام المناطق في اليمن .. وكان هذا السلطان لا يدخر وسعاً في سبيل رفع مستوى رعاياه ورفاهيتهم حتى أطلقوا عليه لقب "أبو البلاد". وكانت زيارة المستر سولت في سنة 1809م.

احتلال الإنكليز لمدينة ميون:

كانت أيام السلطان أحمد عبد الكريم حافلة بالأحداث الدولية المهمة.

كانت أنظار فرنسا نحو الهند والقائد الفرنسي نابليون بونابرت، عدو بريطانيا التقليدي كان قد احتل مصر ثم بدأ يصبو إلى انتزاع الهند من بريطانيا.

وكانت بريطانيا حينذاك تدرك خطر نابليون وهو في قمة أمجاده العسكرية وخشيت على الهند من أن تذهب لقمة سائغة للفرنسيين.

تذكر سجلات حكومة بمبي أن الحكومة الإنكليزية في الهند أرسلت في سنة 1799م حملة بحرية من بريطانيا بقيادة أمير البحر بلانكت Admiral Blanket ليطوف البحر الأحمر، وفي نفس الوقت صدرت الأوامر إلى حكومة الهند بأن تحتل وتحصن جزيرة بريم (ميون) الكائنة في باب المندب لتضع الباب تحت سيطرتها لتمنع أي اتصال ربما قام به الفرنسيون مع المحيط الهندي عن طريق البحر الأحمر. وفي إبريل سنة 1799م أبحرت قوة من ثلاثمائة جندي بريطاني وهندي، وفي ماي من نفس السنة المذكورة احتلت هذه القوة الجزيرة بقيادة الكرنل موريه Col. Murrey ولكنه، بعد بقائه أربعة أشهر لم يتمكن من الحصول

على الماء فيها رغم الجهود المتواصلة، قرر الانسحاب منها أول سبتمبر من السنة المذكورة.

ذكر الكابتن بليفير أن السلطان أحمد عبدالكريم وافق على أن يستقبل هذه القوة المنسحبة من ميون، وأن يسمح لرجالها بالبقاء في ممتلكاته المدة التي يرغبونها، فوصلت القوة إلى ميناء عدن فاستقبلهم السلطان بحفاوة وترحيب لم يعهده الإنكليز من قبل في أحد من الحكام.

وذكر الكرنل جيكب أن السلطان بلغ به الكرم حداً جعله يعرض تسليم عدن للإنكليز.

أما الأمير أحمد فضل العبدلي فقد ذكر "ثم نفدت من عندهم المياه وسمح لهم السلطان أحمد بالإقامة في عدن إلى أن تسمح الأنواء بسفرهم".

سفير بريطانيا في الدول العربية يزور اليمن:

بعد وفاة الإمام المهدي العباس بن الحسين بن القاسم بن الحسين بن أحمد ابن الحسن بن القاسم في سنة 1186هـ (1774م) تولى الحكم في اليمن ابنه الإمام المنصور علي.

وفي شهر مايو 1801هـ (1215هـ) زار اليمن الدكتور برينجل D. Pringle بناء على أوامر صدرت إليه من الحاكم العام للهند، واستقبلته السلطات اليمنية بترحاب، وأمر الإمام المنصور نوابه في اللحية والحديدة والمخا بأن يقدموا للسفن الإنكليزية جميع التسهيلات.

وفي سنة 1217هـ (1802م) وصل إلى المخا الكومودور السر هنري بوفم Sir Henry Popham الذي كانت بريطانيا قد عينته سفيراً لدى الدول العربية.

وفي يوليو من السنة المذكورة بعث بسكرتير السفارة المستر إيليوت Elliot ومعه الملازم لامب Lamb والدكتور برينجل Dr. Pringle إلى صنعاء ليضعا أمام الإمام مشروع معاهدة يقترح عقدها بين اليمن وبريطانيا.

وأراد السر هنري بوفم أن يسافر إلى جبلة وتعز ليكون على مقربة من صنعاء في حالة الحاجة إليه، ولكنه اضطر إلى العودة إلى المخا بعد أن لقي متاعب وإهانات متكررة من بعض المشائخ والحكام، وكتب تقريراً عما صادفه وبعث به إلى سكرتير السفارة ليقدمه إلى الإمام .. ومن ثم غادر السر بوفم المخا إلى عدن .. وغضب الإمام من المعاملة السيئة التي لقيها السفير ووعد بمعاقبة من تسببوا

فيها. وتوفي المستر إيليوت بالحمى في صنعاء. وعاد الملازم لامب والدكتور برينجل إلى المخا في 15 سبتمبر يحملان رسائل من الإمام إلى الحاكم العام في الهند وإلى السر بوفم تذكر أنه يرفض مشروع المعاهدة المقترحة.

أول معاهدة بين بريطانيا وسلطان لحج:

استقبل السلطان أحمد عبد الكريم السر هنري بوفم استقبالاً كريماً أنساه الأيام العصيبة التي قضاها في اليمن .. ولما عرض على السلطان رغبته في عقد معاهدة بين السلطان وبريطانيا اطلع السلطان على مشروعها ووافق عليها.

وفي اليوم السادس من سبتمبر سنة 1802م (1217هـ) جرى التوقيع على المعاهدة على ظهر السفينة "راني" في ميناء صيرا.

واحتوت المعاهدة على سبعة عشر بنداً ينص الأول منها على أن العلاقات التجارية ستجري بين شركة الهند الشرقية ورعايا بريطانيا الذين يسمح لهم حاكم الهند العام من جهة، ورعايا السلطان من جهة أخرى.

ويتضمن البند الثاني نقطتين:

(الأولى) أن يجعل السلطان ميناء عدن مفتوحة أمام جميع البضائع الواردة على السفن البريطانية.

(الثانية) ألا يزيد ما يأخذه السلطان من عشور على 2٪ بنسبة ما هو مسجل في قوائم البضائع وذلك لمدة عشر سنوات، وليس للسلطان أو نوابه أن يطلبوا أي عشور أخرى أو رسوم جمركية أو موازين أو رسوم رسو السفن.

أما البند الثالث فيمكن اعتباره امتداداً للبند الثاني، فهو ينص على أن السلطان يمكنه أن يزيد الرسوم إلى ثلاثة في المائة بعد انتهاء مدة المعاهدة وتجديدها مدة أخرى، وألا يفرض السلطان أو خلفاؤه أي نوع آخر من الرسوم الجمركية أو الموازين وغيرها .. وإذا حدث وخالف السلطان أو خلفاؤه هذا الشرط فسوف يعتبر ذلك العمل إخلالاً بالصداقة مع بريطانيا وخرقاً للمعاهدة التجارية بين البلدين.

والبند الرابع يقضي بضرورة دفع الاثنين في المائة لمدة عشر سنوات ثم الثلاثة في المائة بعد انقضاء المدة المذكورة على جميع البضائع الصادرة من حاصلات بلاد السلطان أو البلاد المحيطة بها. والجملة الأخيرة تحرم خزينة السلطان من مبلغ غير قليل من المال، فإن البند الخامس يذكر أنه إذا اشترى أحد رعايا

بريطانيا من عدن أو من مينائها بضائع ليست من حاصلات بلاد السلطان أو البلاد المحيطة بها وأراد أن يصدرها إلى الخارج فلا يحق للسلطان أن يتسلم عشوراً عليها، لأنها ما دامت ليست من حاصلات بلاد السلطان أو البلاد المحيطة بها فإن عشورها تكون قد دفعت عند دخولها إلى عدن.

ويعطي البند السادس رعايا بريطانيا الذين يستعلمون ميناء عدن الحرية الكاملة في مباشرة أعمالهم دون ضغط من جانب السلطان ومن نوابه ودون وسطاء أو دلالين إلا باختيارهم.

ونجد في البند السابع أن السلطان كان قد وافق على أن يكون في عدن "مقيم" بريطاني يرعى المصالح البريطانية والرعايا البريطانيين. فقد جاء في هذا البند أنه يحق لرعايا بريطانيا أن يسلموا أموالهم لمن يختارون من غير ضغط سواء كانوا أصحاء أو مرضى، وأنه إذا مات أحد هؤلاء الرعايا فليزم أولاً أن تسدد من مخلفاته جميع الديون التي عليه لرعايا السلطان، وما تبقى من المخلفات يسلم للمقيم البريطاني لإرساله إلى عائلة المتوفى في الهند أو في أي بلد آخر.

والبند الثامن يقضي بأن يجري تسجيل جميع رعايا بريطانيا الساكنين في عدن، وأن يحمل كل واحد منهم شهادة مسجلة في دائرة القاضي ودائرة المقيم البريطاني في عدن .. أما إذا ادعى شخص لنفسه الحماية البريطانية سواء كان أوروبياً أم من رعايا السلطان فلا يحق له أن يتمتع بالامتياز المذكور في البند السابع.

ويعد البند التاسع امتداداً للبندين السابع والثامن، فإننا نرى الامتيازات المذكورة فيه تشمل التجار المسافرين والضباط المشرفين على السفن البريطانية وبحارة تلك السفن، إذا هم قدموا شهادات من قواد السفن التي يعملون بها، سواء أوصوا، أم مات أحدهم دون أن يوصي.

وفي البند العاشر يتعهد السلطان بأن يسعى في استرداد الديون التي على رعاياه لرعايا الدولة البريطانية، وإذا لم يدفع المديون الدين الذي عليه بعد أن يسجل الرعوي طلبه ويقدم دعواه إلى القاضي فللقاضي الصلاحية في إصدار الحكم بحجز مال المديون وبيعه لصالح الدائن، وذلك بعد ثلاثة أشهر من تقديم الدعوى. أما إذا كان المديون لا يملك مالاً فعلى القاضي أن يأمر بحبسه حتى يتم بشأنه تدبير يرضي الدولة البريطانية.

والبند الحادي عشر يعطي المقيم البريطاني سلطة قضائية ويستطيع أيضاً أن يشير على القاضي بأن يصدر أمراً بالحبس على من يحكم عليه المقيم .. يقول هذا البند إنه في حالة وقوع نزاع بين رعايا الدولة البريطانية في بلاد السلطان يلزم أن ترفع القضية لا إلى القاضي نائب السلطان بل إلى المقيم البريطاني لينظر في الدعوى ويحكم ويقوم بإجراءات الحبس طبقاً للإجراءات السارية في البلاد التابعة لبريطانيا، ويكون حكمه نافذاً في أي دعوى لا تتجاوز ألفي ريال .. وإذا زاد المبلغ على ذلك يرفع استئناف إلى الهند. وفي حالة رفض أحد الفريقين المتنازعين لحكم المقيم البريطاني فيمكن للمقيم أن يشير على القاضي بحبسه.

والبند الثاني عشر يقضي بإحالة المنازعات بين رعايا بريطانيا ورعايا السلطان إلى محاكم البلاد المحلية.

وفي البند الثالث عشر يقبل السلطان أن يعطي الدولة البريطانية بقعة أرض معينة المساحة في غرب مدينة عدن (الخساف) مقابل مبلغ من المال. ويمكن لشركة الهند الشرقية أن تقيم على تلك البقعة أي بناء، وأن تشيد سوراً حوله إلى مسافة تقررت مساحتها في هذه المعاهدة.

ويعطي البند الرابع عشر رعايا بريطانيا الحرية في دخول مدينة عدن من أي ناحية، وأن يركبوا الخيل والبغال والحمير أو أي حيوان آخر يرغبون فيه دون أي معارضة أو إهانة.

أما البند الخامس عشر فيقضي بألا يقبل القاضي أي جندي بريطاني يلجأ إليه راغباً في اعتناق الدين الإسلامي إلا إذا وافق المقيم البريطاني. وإذا لم يطلب المقيم إعادة الجندي الهارب خلال ثلاثة أيام فللقاضي أو أي نائب للسلطان أن يتصرف بمقتضى رأيه في معاملة الجندي.

وفي البند السادس عشر يعطي السلطان مجاناً بقعة أرض لتكون مقبرة لرعايا بريطانيا الذين يموتون في حدود السلطان.

وفي البند السابع عشر والأخير يقبل السلطان والدولة البريطانية أنه إذا اقترح أي من الطرفين مادة غير مذكورة في هذه المعاهدة فستعد ملحقة بهذه المعاهدة.

السلطان يحمي الإنكليز ضد الوهابيين:

كانت الجزيرة العربية تئن تحت وطأة الحروب الأهلية بعد قيام الشيخ عبد العزيز النجدي وابنه سعود ونشرهما لمذهب الوهابية الذي أسسه جدهما الشيخ عبد الوهاب في سنة 1691م. وانتشر المذهب الوهابي بعد كفاح طويل مرير في نجد والحجاز والعراق ووصل إلى التهائم اليمنية التي أخذت بلدانها تنفصل عن اليمن الواحدة بعد الأخرى.

وفي سنة 1804م ظهر لبريطانيا مقدار ما يكنه لها السلطان أحمد عبد الكريم من صداقة ووداد. ففي أحد تلك الأيام العصيبة وصل إلى ميناء ضيرة الأسطول الوهابي بقيادة الجوشمي. وكانت ترسو في الميناء سفينة هندية كبيرة تحمل العلم البريطاني .. وخشي السلطان من قيام العسكر الوهابي بالهجوم على السفينة فأرسل عسكره إلى ظهرها للدفاع عنها .. وأرسل الجوشمي إلى السلطان يغريه بأن يهبه نصف حمولة السفينة إذا هو سمح له بالاستيلاء، عليها ولكن السلطان رفض العرض وطلب منه أن يغادر الميناء بسفنه.

انقراض سلالة السلطان عبد الكريم:

كانت أيام السلطان أحمد عبد الكريم فضل أحسن فترات تاريخ الدولة العبدلية، فقد كان شجاعاً حازماً وسياسياً مدبراً وحاكماً عادلاً، شجع التجارة في بلاده ودعا تجار الهند ومصر ليستوطنوا بلاده .. وكان قد نظم قوة من العسكر المدربين وعمل جاهداً على إعادة بعض أهمية ميناء عدن السالفة.

وفي سنة 1243هـ الموافقة سنة 1827م توفي السلطان أحمد عبد الكريم فضل بعد حوالي 36 سنة من الحكم دون أن يخلف أولاداً.

وتقول قصة: إن دعاء حل بالسلطان عبد الكريم فضل وأبنائه عبد الهادي وفضل وأحمد. ففي أحد الأيام كان السلطان عبد الكريم جالساً في ديوانه وحوله رؤساء القبائل والعلماء والأعيان وبينهم أحد أبناء ولي الله الصالح السيد أبوبكر عبد الله العيدروس.

ووقع جدال ونقاش بين العيدروس وأحد أبناء السلطان، التفت العيدروس ناحية السلطان وطلب منه أن يؤدب ابنه، لكن السلطان صمت فتشجع الابن وشتم العيدروس وأهانه.

واستشاط العيدروس غضباً ورفع يديه نحو السماء واستنزل غضب الله على السلطان وأبنائه وطلب من الله أن يقطع نسلهم. واستجاب الله لدعاء وليه الصالح وانقطع نسل أبناء السلطان ولم ينجبوا أولادا.

آل محسن فضل:

حين قتل مؤسس الدولة العبدلية فضل بن علي في حصن خنفر خلف ولدين، عبد الكريم ومحسن، وصار عبد الكريم شيخاً ثم سلطاناً .. وبعد وفاته خلفه ابنه عبد الهادي الذي قتل عمه محسن بسبب المتاعب التي كان يسببها لعبد الهادي طمعاً في السلطنة.

وخلف محسن ولداً أسمه فضل اضطر إلى الهرب إلى قرية الحمراء حيث رزق بولد سماه محسن. وبينما السلطان أحمد عبد الكريم فضل على فراش المرض دعا ابن عمه محسن فضل بن محسن فضل وصالحه وولاه الأحكام.

ولما توفي أحمد عبد الكريم تولى الحكم محسن فضل بن محسن فضل المذكور.

ويظهر أن حياة المنفى القاسية الطويلة قد جعلت من السلطان محسن رجلاً حذرا مخادعاً متقلباً جشعاً محباً للمال إلى جانب كونه رجل قتال ومراس.

وهذا السلطان هو جد العائلة العبدلية التي تحكم لحج في وقتنا الحاضر والمعروفة باسم آل محسن فضل.

الاحتلال الإنكليزي لجزيرة سقطرى

في سنة 1245هـ (1829م) أرسلت حكومة الهند بناء على أوامر من مجلس المديرين التابع للبحرية البخارية بين إنكلترا والهند بالسفينتين" بنارس "Benares

و " بالينورس "Palinurus لتطوفا البحر الأحمر، وكانتا تحملان كميات من الفحم لإفراغها في جزيرة صيرة لتموين السفينة "هيولندسي Hugh Lindsay" أول سفينة تبنى في الهند .. وأهدت حكومة الهند السلطان محسن فضل ستة مدافع مقابل تقديمه المساعدة للسفن.

وقدمت هيولندسي إلى ميناء صيرة، ولكن لم يكن بالإمكان تموينها إلا بمائة وثمانين طناً من الفحم في خلال ستة أيام ونصف نظرا إلى قلة العمال.

وكان هذا هو الذي حول أنظار حكومة الهند عن عدن والتركيز نحو ساحل حضرموت للبحث عن محطات صالحة لتفريغ وشحن الفحم، فأصدرت أوامرها إلى الكابتن "هينس S.B. Haines" الضابط في الأسطول الهندي بالطواف على طوال ساحل حضرموت عله يجد المحطة المناسبة في المكلا أو في جزيرة سقطرة.

وقام هينس بطواف على طول مائة ميل من الساحل الحضرمي في شهر واحد، ثم أبحر إلى "قشن" الواقعة على الساحل إلى شمال جزيرة سقطرة ليطلب من رؤساء قبائل "المهرا" الإذن له بالطواف حول الجزيرة، لأن سلطان سقطرة عمرو بن سعد هو في نفس الوقت سلطان الساحل العربي الممتد من حدود الساحل الحضرمي إلى حدود سلطنة مسقط وعمان، وحصل هينس على الإذن فأبحر في سنة 1834م إلى تماريدا في الجانب الشمالي.

وبعد انتهائه من مسح الساحل عاد هينس إلى بمبي .. وفي أكتوبر من نفس السنة رجع إلى قشن على السفينة بالينورس ليفاوض السلطان عمرو بن سعد في شراء سقطرة.

ووافقت حكومة الهند على أن تدفع عشرة آلاف ريال تمسوي ثمناً للجزيرة، وأضافت الحكومة أنها تعتمد على هينس في أن ينجح في تخفيض المبلغ. وقبل أن يصل هينس سبقه إلى الجزيرة عدد من الجنود الإنكليز.

ووجد هينس السلطان عنيداً مستمسكاً ببلاده لا يبغي التفريط فيها. ولما رأى السلطان تهديداً باحتلال الجزيرة غصباً قال لهينس: "حقاً إن بلادي خالية لا فائدة مادية كبيرة منها وبإمكانكم أن تأخذوها منا قهراً ومع ذلك فإنني أرفض أن أبيعها أو أسلمها لكم". وإزاء ذلك الرفض وصلت فرقة من الجنود الإنكليز والهنود على السفينة "تيجرس Tigris" بقيادة الكماندر روبرت لو Robert Lowe والسفينة "شانن Shannon" بقيادة الملازم واوي Waooy. وكانت الحملة بقيادة الكابتن بايلي Bayly واحتلت الحملة تماريدا، وبقي الجنود هنالك عدة أشهر، ثم أجبر السلطان على التوقيع على معاهدة يسمح بموجبها بنزول الفحم أو أي مواد أخرى في جزء من جزيرة سقطرة إلى حين.

الاحتلال الإنكليزي لعدن

كان الميجر جنرال باجنولد Major General M.E. Bagnold مقيماً بريطانيا ومعتمداً سياسياً في ميناء المخا اليمنية قبل إلغاء هذا المنصب في سنة 1838م.

وذكر باجنولد في تقرير له رفعه إلى حكومته أنه كان مقتنعاً بأن عدن هي الميناء الطبيعية المناسبة لخزن الفحم وأنه سافر إليها في سنة 1827م متفقدا وزار عاصمة لحج، وتمكن من إقناع السلطان محسن فضل بأن يعرض ميناء عدن وقلعتها على الحكومة البريطانية مقابل شروط مغرية. ولكن السر جون مالكوم John Malcolm رفض ذلك فكتب باجنولد للسر جون قائلاً: إنهم سوف يضطرون إلى تضحية مئات الأنفس ومئات الألوف من الأموال ويعودون إلى عدن ويحاربون في سبيل بقعة كان سلطانها قد قبل أن يقدمها هدية لنا.

وعلق هارولد جيكب في كتابه "ملوك العرب" على كلام باجنولد بقوله بأنه نظرا إلى سلوك السلطان محسن فضل فإنه يعتقد بأن السلطان لم يكن مخلصاً في عرضه عدن على الإنكليز.

كان الكابتن هينس يواصل طوافه على سواحل البحر الأحمر، وفي سنة 1251هـ (1835م) أرسى سفينته في ميناء عدن. وهبط اثنان من ضباطه إلى عدن لمقابلة السلطان محسن فضل فرحب بهما وطلب منهما أن يقنعا حكومتهما بأن تساعده في حملة ينوي القيام بها ضد قبائل أبين (الفضلي) انتقاماً منهم لهجومهم على عدن في تلك السنة. ولكن الإنكليز اعتذروا عن المساهمة في ذلك. وفي السنة التالية هاجمت قبائل أبين مدينة عدن ونهبت أموالاً بلغت قيمتها حوالي ثلاثين ألف ريال (ماريا تيريزا).

السفينة داريا دولت:

في صباح 14 رمضان سنة 1251هـ (4 يناير سنة 1836م) كانت السفينة الهندية "داريا دولت" تقترب من ميناء صيرة ترفرف عليها الراية البريطانية. وكانت تملك هذه السفينة السيدة أحمد النساء بيجم بنت أخي أمير مقاطعة كارنتيك الهندية. وكانت تحمل بضائع ثمينة وعدداً كبيراً من الحجاج المتوجهين إلى الأراضي الحجازية لتأدية فريضة الحج.

وعلى مقربة من صيرة، عند ساحل أبين، انغرست مقدمة السفينة في رمال الشاطئ فلم تتمكن من الحراك .. ولما رآها البدو هاجموها ونهبوا كل حمولتها من البضائع واعتدوا على الحجاج الهنود فسقط بعضهم في الماء فتعلقوا بالأخشاب التي وقعت في البحر وغرق منهم أربعة عشر حاجاً بينهم بعض النساء. فهاجمهم البدو ونزعوا عنهم ملابسهم ولم ينقذهم إلا أحد السادة آل العيدروس فتفرق البدو وهم يهتفون:

روّحنا من السعدية   بلا سيف ولا جنبية

أي أنهم لم يستعملوا لا سيفاً ولا خنجراً في هجمتهم تلك التي سموها "السعدية".

كانت حادثة السفينة داريا دولت هي الفرصة التي تطلعت إليها بريطانيا بصبر وتربص، فقد حاولت مراراً الحصول على عدن أو أي منطقة أخرى في الساحل العربي لتستعملها محطة لخزن الفحم، ويظهر أن بريطانيا كانت تحجم عن القيام بهجوم دون سبب قد يثير عليها النقمة ويصمها بالعدوان فكانت حادثة السفينة العذر الذي أرادته حتى تظهر أمام العالم بمظهر المدافع عن حق مشروع .. ولا يستبعد أن تكون بريطانيا هي التي دبرت إرسال السفينة إلى تلك المنطقة حيث يسكن البدو الفقراء لإغرائهم على نهبها.

الإنكليز يطلبون التعويض من السلطان:

لم ترسل بريطانيا جنودها في الحال، بل مهدت لذلك بمفاوضات فعينت حكومة بمبي الكابتن هينس ليذهب إلى عدن ليحصل على الترضية من السلطان محسن فضل، وأمرته حكومته بأنه في حالة نجاحه فعليه أن يجتهد في مفاوضة السلطان على شراء عدن لأجل تأمين التجارة البريطانية في البحر الأحمر في المستقبل ولأجل تأسيس مخزن للفحم.

وأبحر هينس على السفينة "كوت Coote." ووصل إلى عدن في أول شوال سنة 1252هـ (28 ديسمبر سنة 1837م) وفي 6 شوال قابل السلطان واحتج على المعاملة القاسية التي لاقاها رعايا الدولة البريطانية في حادثة السفينة داريا دولت. وأنكر السلطان أي علم له أو مساهمة في ذلك الحادث ولكن الجانب

البريطاني لم يتقبل ذلك الإنكار مع وجود البضاعة المنهوبة معروضة للبيع في أسواق عدن ولحج.

وقدم هينس طلباً رسمياً للسلطان بأن يدفع تعويضاً مقداره أثنا عشر ألف ريال (ماريا تيريزا) أو إعادة البضاعة المنهوبة كلها .. وبعد مفاوضات كثيرة أعاد السلطان ما قيمته سبعة آلاف وثمانمائة وثمانية ريالات، وسلم لهينس تعهداً بأن يدفع بقية قيمة البضاعة ومقدارها أربعة آلاف ومائة واثنان وتسعون ريالاً في خلال اثني عشر شهراً.

وبعد نجاحه تمكن هينس من إقناع السلطان بأن يكتب تعهداً آخر في 13 يناير سنة 1838م بأنه سوف يسلم شبه جزيرة عدن للإنكليز في شهر مارس من السنة المذكورة مقابل ثمانية آلاف وسبعمائة ريال تقدمها له حكومة الهند سنوياً كما تفعل مع راجات الهند.

ذكر الكرنل جيكب أن "تلك المفاوضات تطلبت كثيراً من اللباقة، لأن السلطان امتاز بمكره وحذره كشرقي أصيل، وكان خوف السلطان من رجال قبيلته هو الذي منعه من تسليم عدن بصورة مكشوفة لأن رجال القبيلة ربما طالبوه بحصتهم من الثمن".

الأمير أحمد محسن يهدد الكابتن هينس:

قبل أن تتم المصادقة على تعهد السلطان بتسليم عدن للإنكليز كان الكابتن هينس يتنزه على السفينة كوت بالقرب من التواهي، وبينما هو في نزهته تلقى إشارة من الساحل، فرأى ترجمانه العربي ممتطياً حصاناً ويلوح له بالنزول إلى الشاطئ. ولما هبط هينس قال له الترجمان إن إحدى جواري السلطان محسن فضل أفادته بأن الأمير أحمد محسن فضل بن السلطان يدبر مؤامرة للاستيلاء على الوثائق بعد التوقيع والمصادقة عليها ثم خطفه هو وجميع رفاقه وقتلهم.

وألغى هينس المقابلة التي كان ينوي عقدها مع السلطان للتوقيع على وثيقة التسليم وعاد إلى بمبي.

ذكر الكرنل جيكب أن عربياً قال للكابتن هينس فيما بعد "لو لم يكن الله في جانبك طول الوقت لما أمكنك أن تحكم عدن"!!

وفي شهر سبتمبر 1838م عاد هينس بالسفينة كوت إلى عدن يصحبه الملازم وسترن.

وبعد أن ركز خيامه في رأس الفراشين (طارشين) في التواهي طلب من السلطان أن يسلم عدن كما وقع الاتفاق بينهما في يناير من نفس السنة. وجاء الأمير أحمد ليقول لهينس: إن والده يرفض تسليم عدن كما يرفض أن يعيد بقية البضاعة المنهوبة من السفينة داريا دولت إلا إذا أرجع هينس الوثائق التي سلمها له والده.

ولما رفض هينس طلب منه الأمير أحمد أن يقدم له أوراق اعتماده التي تخوله فيها حكومة الهند بأن يتسلم عدن، فقدم هينس أوراق الاعتماد فأخذها الأمير أحمد وذهب إلى والده في الحوطة ليبلغه نتيجة مقابلته.

وفي 27 أكتوبر قدم إلى عدن الكابتن دنتن Captain Dunton ليشتري مواد غذائية وماء للسفينة كوت ولكن الأوامر كانت قد صدرت للأهالي بالامتناع عن التعامل مع الإنكليز في أي شيء، فكتب هينس إلى نائب السلطان في عدن يقول له بأنه سوف يعتبر ذلك العمل بمثابة إعلان حرب.

وفي 30 أكتوبر كتب السلطان رسالة يقول فيها إن وجعاً في قدميه منعه من مغادرة الفراش وإنه يفوض أبنه أحمد ليبحث جميع المشاكل لصالح الطرفين.

وكتب الأمير أحمد رسالة إلى هينس يطلب منه أن يكون على حذر لأن والده لا يملك أي سلطه، وأنه وحده الكل في الكل وصاحب السلطة المطلقة على البدو وأن أية أشارة منه سوف تجعل البدو يعصفون بالإنكليز. وقال أحمد "أنا فوق والدي وفوقك وإذا اقتربتم من باب عدن فإنني سأسمح لكم بالدخول ثم نقطع رقابكم، وهذه هي شريعة البدو".

وأعلن هينس الحصار على عدن ومنع سفن التمر من الدخول إلى الميناء واستمر الحصار شهراً وقعت خلاله مناوشات بين الفريقين، وأطلقت مدفعية صيرة قنابلها على السفينة كوت فأصابت جنديين بجروح، ولم ينقض الشهر حتى طلب السلطان هدنة مدتها ثلاثة أيام وافق هينس عليها. ثم ذهبت كوت إلى زيلع في الساحل الصومالي لتحصل على التموين فأرسل السلطان سنبوقاً وراءها يطلب من قبائل التاجورا الصومالية أن تمتنع عن تموين السفن الإنكليزية بالماء والمواد الغذائية.

تصميم الإنكليز على احتلال عدن:

وفي 18 ديسمبر سنة 1838م وصلت إلى ميناء صيرة السفينتان الإنكليزيتان "ماهي Mahi" وآن كريشتن Anne Crichton تحملان الفحم .. وكان وصولهما إنذاراً بأن الإنكليز مصممون على احتلال عدن.

وفي 11 يناير 1839م وقعت مناوشة بين ماهي ومدفعية صيرة. وكان العسكر الذين يطلقون مدافع صيرة على الإنكليز مصريين، كانوا جنوداً في جيش إبراهيم باشا في اليمن ثم قدموا إلى عدن وعملوا مع السلطان. وانتهت المناوشة بمقتل ما بين عشرين وثلاثين من عسكر السلطان وجرح جنديين من بحارة السفينة الإنكليزية.

في تلك الأثناء كان هينس على اتصال مستمر مع حكومة بمبي، وكان يرى أنه ليس من الضروري أن يستعمل القوة في تحقيق غرضه كما ذكر هو في تقرير له .. واقترح هينس أن يتصل برجال القبائل المجاورة في بلاد يافع وأبين مؤكداً لهم صداقة بريطانيا وتشجيعها للتجارة معهم .. واستعمل هينس الصبر والأناة والحكمة والبرود والعزم في معاملته في سبيل إقناعهم .. وقال هينس في تقرير له "إن البدو لن يتفقوا حتى على تقسيم قوصرة تمر واحدة دون أن يصرفوا ساعات كثيرة في المجادلة، وأنه من حسن السياسة أن نتركهم يتصارعون فيما بينهم، وفي الوقت المناسب سوف يهدأون وينصتون لصوت العقل".

وفي خلال ذلك كان عسكر السلطان قد وضعوا ثلاثة مدافع عند باب عدن ومدافع أخرى عند جزيرة صيرة وباب حقات وفوق جبل الخضراء من جهة رأس معاشيق. وكان سبب تحصين معاشيق أن الإنكليز ربما اضطروا إلى الانسحاب للاحتماء بذلك الرأس من نيران صيرة وحقات.

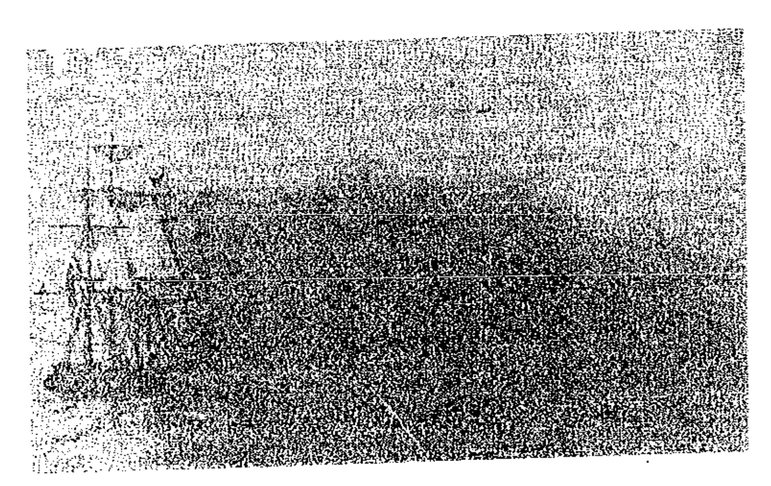
وكان السلطان في تلك الأثناء على اتصال مستمر بقائد الجيش المصري في اليمن إبراهيم باشا طالباً منه أن يمده بالنجدة.

الكابتن هينس يطلب تعزيزات من الهند:

اختار هينس بقعة رملية لاستعمالها محطة لخزن الفحم تجاه قبر الولي الشيخ أحمد. وتعرف هذه البقعة اليوم باسم "دكة البرنس أو ويلز"، وتمتاز بعمق المياه فتتمكن السفينة من إلقاء مراسيها على بعد مائة ياردة من الساحل.

وهذه الدكة مواجهة لجزيرة الشيخ أحمد المعروفة اليوم بجزيرة الكرنتينة لأنها كانت تستعمل مصحاً ينزل فيه المسافرون قبل السماح لهم بالهبوط إلى البر.

وطلب هينس مقابلة مندوب عن السلطان فلما أقبل المندوب قال له هينس: إنه مستعد أن يدفع ثمانية آلاف ريال للسلطان مقابل تسليم عدن. فذهب المندوب إلى السلطان وقال له إن هينس يعرض ستة آلاف ريال، فرفض السلطان، ولا يعرف أحد لماذا ذكر المندوب ستة آلاف بدلاً من ثمانية، فهل كان وطنياً أراد من السلطان أن يرفض التسليم، أم أنه كان يتلقى التعليمات من الأمير أحمد محسن، أم أنه كان نصاباً أراد أن يستولي على الألفين لنفسه؟ ولكن من المحتمل أن يكون أحد الرأيين الأولين هو الأصح لأنه لو أراد أن ينصب فلاشك أن أمره كان سينكشف للسلطان.



الهجوم الإنكليزي على عدن

إحدى السفن الحربية الإنكليزية تتقدم نحو صيرة

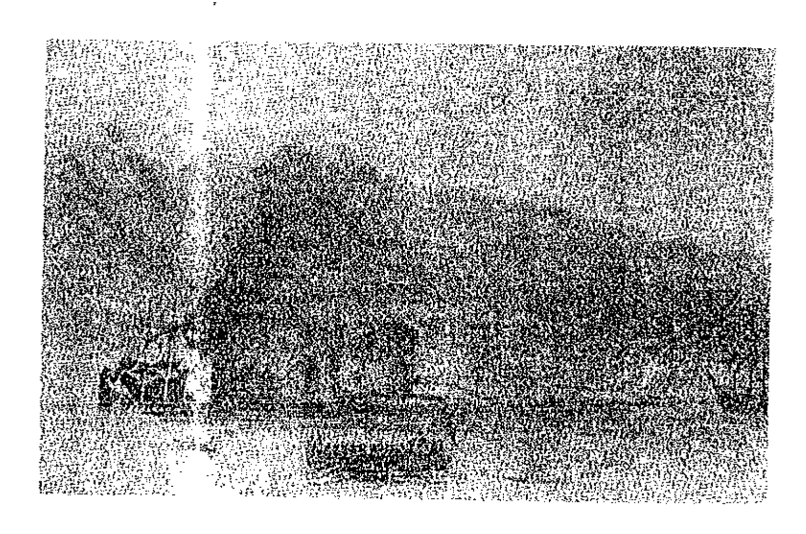
وطلب هينس تعزيزات من الهند تتألف من:

- قوة من ستمائة وخمسين جندياً من رجال المدفعية.
- قوة من مائة بحار من فرقة العاصفة.
- قوة من أربعة وعشرين جندياً هندياً "سيبويز".
- سفينة سلوب تحمل ثمانية عشر مدفعاً.

- سفينة بريج تحمل عشرة مدافع.
- سفينة سكونر.
- أربعة وعشرين أو ثمانية وعشرين مدفعاً تطلق قنابل زنة 12 أو 14 رطلاً ليستعملها في الدفاع عن عدن بعد احتلالها. قوة احتياطية من خمسمئة جندي هندي وأوروبي ليستعملها حالة قيام الأهالي بثورة مسلحة بعد الاحتلال.

الإنكليز واللصوص العالميون:

كان الكابتن هينس يعتقد أن عدن سوف تتوسع بعد الاحتلال وسوف يشعر الأهالي بالأمان فتصبح مستودعاً ضخماً للتجارة. وكان يرى أن للمظاهر تأثيراً كبيراً على الأهالي العرب أو كما يقول المثل العدني "الهنجمة نص القتال" لذلك فقد كان هينس يحث حكومته على أن ترسل إليه سفن حربية .. إنه كما يقول لم يكن يرغب في استعمالها فإن مجرد ظهورها سوف يجعل الناس يدركون مدى قوة بريطانيا وعظمتها.



سفن الغزو الإنكليزي تتبادل إطلاق المدافع مع حصن جبل صيرة
والجنود الإنكليز والهنود في الزوارق للنزول إلى البر
(بإذن من المتحف العدني)

وكان السلطان يؤمن بهذه النظرية، ولذلك فقد وافق على تسليم عدن إذا وصلت السفن تحمل قوة من الجنود الإنكليز .. "لقد كان استيلاء الإنكليز على عدن مثلاً من أمثلة اللصوصية ولكن موافقة السلطان على تسليمها مقابل راتب سنوي كان مثلاً من أمثلة الحقارة" كما قال جيكب.

لقد وصف هينس السلطان بهذه الكلمات "التفاوض مع رجال لا يحترمون ربهم ولا أنفسهم ولا يقولون الصدق ولو بطريق الخطأ والذين لا يتورعون عن بيع أقرب أقربائهم لإرضاء مطامعهم الشخصية".

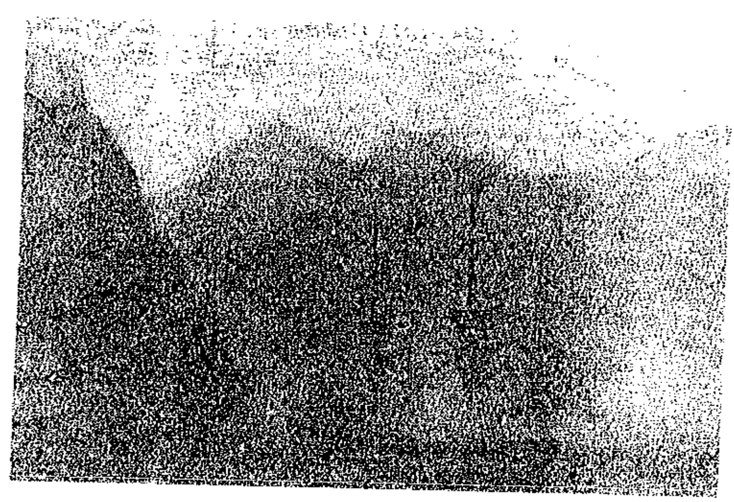
وعلق جيكب على كلام هينس قائلاً "إن هينس كان متجنياً على السلطان ورأيه فيه رأي غير كريم، فقد نسي هينس تجاربه الشخصية في سقطرة حينما رفض سلطانها عمرو بن سعد أن يسلم بلاده أو يبيعها للإنكليز فاستولى عليها هينس بقوة السلاح والرجال والضغط والإرهاب". وقال جيكب: "إن تاسيتس Tacitus ذكر أن البريطانيين في أيامه وصفوا الغزاة الرومان بأنهم لصوص عالميون Raptors Orbis. ألم نقتف نحن في العصر الحديث أثر الرومان في ذلك العصر الغابر ونفعل مثلما فعلوه؟".

استعداد للهجوم على عدن:

رأى السلطان محسن فضل عدن محاطة بالسفن الإنكليزية الحربية المحملة بالجنود. وربما أنه قدر أنه لا قبل له بالصمود أمام قوة تفوق ما يملك، وأنه سوف يفقد عدن قريباً وسيفقد الثمن الذي عرضه عليه الإنكليز والراتب السنوي الذي وعدوه به، فعرض على هينس استعداده لتسليم نصف عدن، فرفض هينس أن يبحث ذلك العرض وأمر بتشديد الحصار على عدن.

وفي 16 يناير سنة 1839م اقتربت من ميناء صيرة السفينة "فولاج Volage" ذات الثمانية وعشرين مدفعاً بقيادة الكابتن سميث Cuptain Smith والسفينة "كروزر Cruizer" ذات الستة عشر مدفعاً بقيادة الملازم دانيال Lt, Daniell وثلاث مائة جندي أوربي وأربعمائة هندي بقيادة الميجر بيلي Major Baillie.

كان السلطان حينذاك في عدن ومعه سبع مائة بدوي، فكتب إليه هينس طالباً منه تسليم عدن دون إراقة دماء، ولكن السلطان رفض تسليمها وصمم على الدفاع عنها.



الهجوم الإنكليزي على عدن

السفينتان الحربيتان فولاج وكروزر تطلقان مدافعهما على حصن في جبل صيرة

ووصلت رسالة سرية إلى الكابتن هينس يقول كاتبها الذي كان عميلاً لهينس: إن السلطان يقوي مراكزه الدفاعية وأن ألفي بدوي من قبائل أبين في طريقهم إلى عدن.

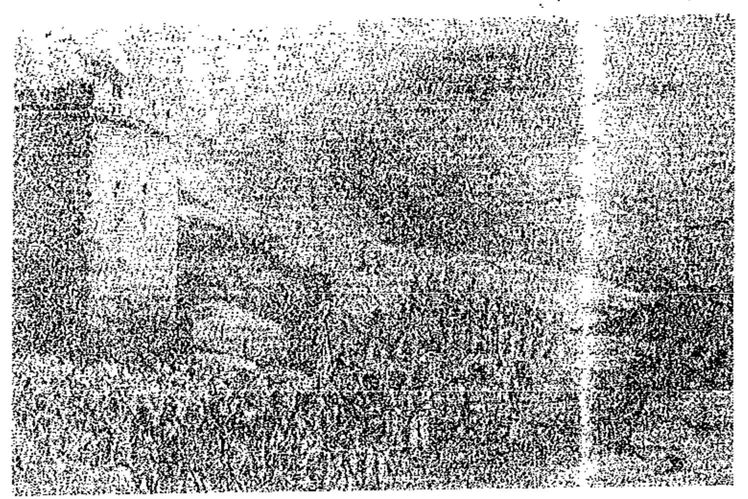
وعزم هينس على الإسراع بقصف الساحل، فكتب رسالة إلى الكابتن سميث يذكر فيها أنه خبير بالمنطقة وأنه سيسعده أن يقدم له كل المعلومات التي لديه وأن من دواعي فخره أن يرافق قائد أي سفينة لتحطيم أقوى مراكز دفاع الساحل العدني. وقدم هينس رسماً تخطيطاً مفصلاً للساحل.

ثم أمر السفينة ما هي بالاقتراب من مركز مدفعية صيرة، وقسم جنود العاصفة إلى فرقتين لإنزالهما إلى البر بعد تخريب القلاع والحصون. ثم صعد هينس إلى السفينة "فولياج" وأمر "كوت" بأن تلقي مراسيها على مقربة من ساحل حقات .. وهبط الجنود إلى الزوارق تحت حماية السفن. ووقف الجنود الاحتياطيون مستعدين في السفينتين فولياج وكوت.

احتلال الإنكليز لعدن:

في الساعة التاسعة والنصف من صباح 16 يناير سنة 1839م تقدمت فولياج ببطء نحو أقوى مراكز الدفاع الساحلية. وبعد عشر دقائق تقدمت كوت نحو موقعها. أما "ما هي" فقد وجهت مدافعها نحو حقات .. وفي لحظة واحدة انطلقت القنابل تزأر من أفواه المدافع.

وسكتت مدفعية الساحل وتساقطت أبراجها إلى الأرض. وتفرق الجنود المدافعون في صيرا وبقوا في حماية جبل صيرة مستعدين لإطلاق بنادقهم على الإنكليز حين هبوطهم إلى البر.



احتلال الإنكليز لعدن

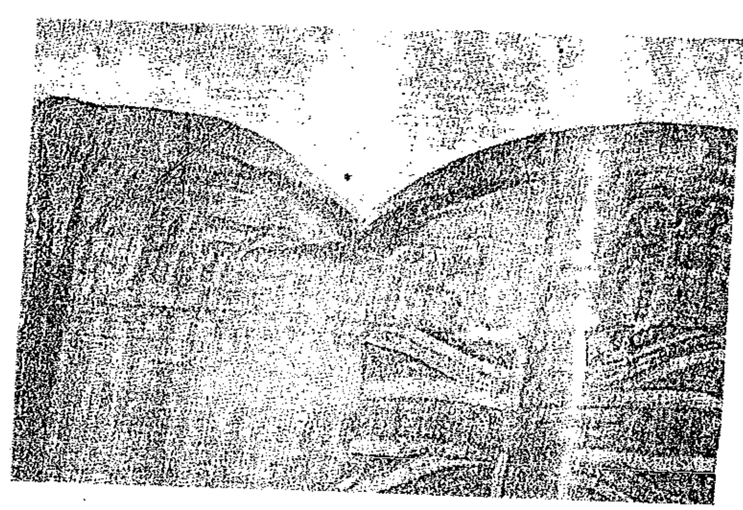
المدافعون يخرجون من قلعة صيرة ليستسلموا لجيش الاحتلال

(بإذن من المتحف العدني)

ودارت ماهي نحو صيرا واقتربت حتى صارت على بعد خمسين ياردة. وأطلقت مدفعية صيرا قنابلها فاهتزت "ماهي" ولكنها لم تصب، بل ردت على النيران بنيران شديدة مركزة فدكت تحصينات صيرة واضطر عسكر السلطان إلى التقهقر وهم يطلقون رصاص بنادقهم.

وأخذت السفن "كروزر" و"فولياج" و"ماهي" وسفينة أخرى تطلق القنابل والرصاص بقوة وسرعة حتى خشي العسكر أن يظهروا أنفسهم فاختفوا وراء الصخور.

وفي الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً غادر الجنود الزوارق وهبطوا إلى الشاطئ، ولم يقابلوا سوى مقاومة ضعيفة. وفي الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق استولى جنود السفينة "كوت" على قلعة صيرة وأسروا المائة وتسعة وثلاثين بدويا المختفين فيها. وفي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ارتفعت الراية البريطانية على دار السلطان محسن فضل الذي فر مع أبنائه وحاشيته والأعيان وكثير من السكان إلى لحج.



أول علم بريطاني يرتفع فوق عدن بعد الاحتلال الإنكليزي
(بإذن من المتحف العدني)

وبلغ عدد الضحايا خمسة عشر جندياً إنكليزياً قتيلاً وجريحاً ومائة وخمسين بدوياً قتيلاً وجريحاً.

الأهالي يلجأون إلى مسجد العيدروس:

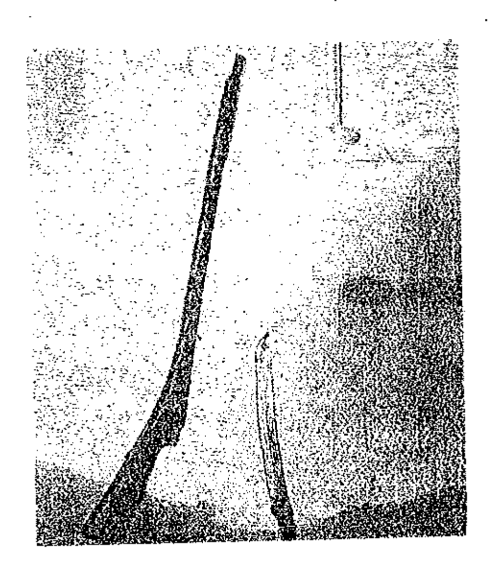
ذكر الكابتن هينس في تقريره الذي رفعه إلى حكومة الهند: أن عدد سكان عدن المدنيين كان حوالي ستمائة بينهم 180 يهودياً و30 أو 40 من الهندوس البانيان وبعض الهنود المسلمين والصومال والإفريقيين.

ويعني هذا التقرير أن عدد الأهالي العرب كان أقل من ثلاثمائة. ولست أشك في أن عدد سكان عدن العرب كان أكثر بكثير من العدد الذي سجله هينس وذلك لسببين.

(أولاً) أن خوف الأهالي من الاحتلال الإنكليزي جعلهم يفرون إلى لحج وإلى القرى القريبة.

(ثانياً) حينما سجل هينس أسماء الأهالي كان العرب يسجلون أسماء البنين ويهملون أسماء البنات، وربما أنهم لم يكونوا يقدمون العدد الحقيقي لأبنائهم خوفاً عليهم من أن يجندوا أو أن يؤخذوا رهائن أو ما شابه ذلك. والدليل على ذلك: أن الأهالي بعد التوقيع على معاهدة السلطان والإنكليز في شهر يونيو من نفس السنة شعروا بالاطمئنان وعادوا إلى عدن. ولم يأت شهر سبتمبر من السنة المذكورة حتى كان عدد الأهالي قد بلغ 2850 نفساً.

وكان الخوف من الاحتلال قد جعل الأهالي يلجأون إلى مسجد العيدروس حيث بقوا إلى إن أرسل الكابتن هينس منادياً يؤمنهم على أرواحهم وممتلكاتهم ويدعوهم إلى العودة إلى بيوتهم.



بندقية وسيف استعملا في الدفاع عن عدن

(بإذن من المتحف العدني)

عدن القديمة:

كتب هينس إلى حكومة الهند تقريراً قال فيه: "لقد هبطت هذه القرية الصغيرة المسماة عدن التي كانت فيما مضى مدينة عظيمة، هبطت إلى أدنى مستوى من الفقر والإهمال. لقد كانت عدن في أيام الإمبراطور قسطنطين ذات شهرة لا مثيل لها في قوة التحصينات وفي ازدهار التجارة وفي سلامة الميناء التي كانت تزورها السفن من كل أنحاء الدنيا، ولكن، كم هو محزن هذا الفرق العظيم، فلم يعد يظهر من عدن غير علائم من غابر مجدها الفخم الرائع، وإن السائح ليحتقر جشع تلك الدولة التي هبطت بعدن إلى هذا المستوى الواطئ المهين".

عدن بعد الاحتلال الإنكليزي

عدن بين الإنكليز والعثمانيين والمصريين:

في السادس عشر من شهر يناير سنة 1839م احتل الإنكليز عدن فكانت أول بلد تستولي عليها بريطانيا في عهد الملكة فكتوريا.

كانت تركيا في ذلك العصر ما زالت مهد الخلافة العثمانية تعد نفسها راعية للبلدان الإسلامية ومن بينها عدن، ولها حق التصرف فيها كيف شاءت بالرغم من أنها كانت في طريقها إلى الانحلال والزوال.

وكان محمد علي باشا الكبير والي مصر قد أعلن استقلال مصر وانفصالها عن الدولة العثمانية ومن ثم انفصال جيوشه التي كانت تسيطر على نجد والحجاز والشام وأجزاء من اليمن عن الجيش العثماني.

وفي خلال السنة السابقة لسنة احتلال الإنكليز لعدن كان رئيس وزراء بريطانيا اللورد بالمرستون Lord Palmerstone قد اتصل بالخليفة العثماني عبد المجيد وعقد معه معاهدة تخول للإنكليز الإتجار في الممالك العثمانية والبلدان التابعة لها. وأراد السلطان عبد المجيد أن يتقرب إلى الإنكليز ويستمد منهم العون ضد محمد علي باشا ويستعيد مصر والشام إلى حظيرة الدولة العثمانية، فأصدر مرسوماً خليفياً يمنح فيه عدن لبريطانيا لتستعملها مركزاً تجارياً ومستودعاً لخزن الفحم.

وكتب رئيس الوزراء البريطاني إلى محمد علي باشا يقول له إنه ليس له الحق في البلدان العربية، وإن عليه أن يسحب جنوده منها. ووافق محمد علي باشا على احتلال الإنكليز لعدن.

وكان إمام اليمن في ذلك الحين يقاوم الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا. وكان القتال مريراً قاسياً فاستولى إبراهيم باشا على اليمن الأسفل واشترى تعز.

وبعد أن تم للكابتن هينس احتلال عدن كتب إلى الإمام في صنعاء وإلى محمد علي باشا يفيدهما باستيلائه على عدن وضمها تحت العلم البريطاني. وبعث محمد علي باشا برسالة ودية إلى هينس وقال فيها: "إنك قد أخذت عين اليمن في يوم واحد بينما قضيت أنا أعواماً كثيرة أحاول امتلاكها دون جدوى".

أما الإمام فلم يجب على رسالة هينس.

تحصين عدن:

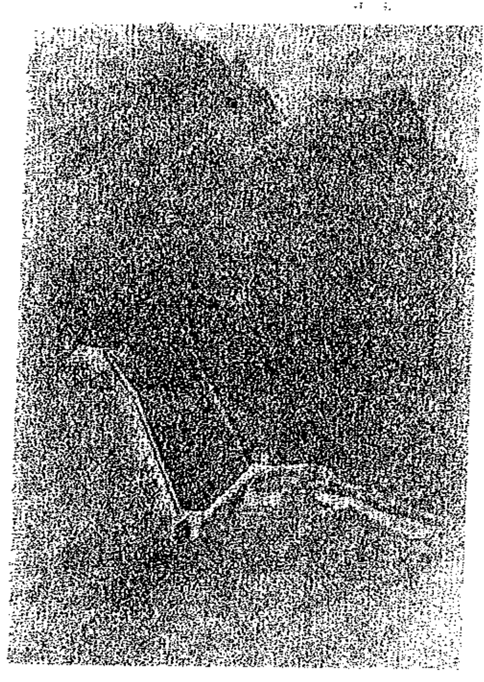
كان هينس بعد احتلاله لعدن يهدف إلى إبقاء سلاطين وأمراء المناطق المجاورة في حالة هدوء حتى يتم تحصين عدن ضد أي غزو يأتي من البر.

كانت جبال عدن محصنة بقلاع وأبراج قديمة بعضها يحتاج إلى ترميم وبعضها أطلال وخرائب غير صالحة للاستعمال. وكان من بين الضباط الإنكليز الملازم جون وسترن خبير التحصينات فكلفه هينس بمهمة التحصين فنجح وسترن في تدعيم وتحصين درب الحوش (أو درب الحريبي) الذي يقع فوق باب عدن إلى يسار الداخل من الباب، كما قام بتحصينات سريعة على طول السور التركي القديم (الخندق) المواجه لساحل أبين.

أول معاهدة بين الإنكليز وسلطان لحج:

في شهر فبراير سنة 1838م قدم إلى عدن السلطان محسن فضل بن محسن فضل وسلاطين وأمراء أبين والصبيحة والحواشب والعقارب وعقدوا معاهدات مع بريطانيا.

وفي 9 مارس التالي كان أحد الجنود الإنكليز يسير وراء خطوط التحصينات فكمن له بدوي من رعايا السلطان وقتله. وفي اليوم الثالث قدم السلطان إلى عدن ليعتذر عن مقتل الجندي وليؤكد صداقته لبريطانيا.



باب عدن بعد ترميم الإنكليز لتحصيناته القديمة

وفي 18 يونيو من السنة المذكورة (6 ربيع الثاني سنة 1255م) وقع السلطان على معاهدة صداقة مع الحكومة البريطانية تتضمن النقط الآتية:

(أولاً) يتعهد السلطان وأولاده أحمد وعلي وعبد الله وفضل بحماية الضعيف والفقير وسلامة قبائلهم وتأمين الطرق، وأن يكونوا مسئولين عن أي اعتداء يقع على الطرق وألاّ يحصل منهم أي نوع من المقاومة ضد الدولة البريطانية وأن تكون مصلحة الطرفين واحدة.

(ثانياً) تتعهد الدولة بأن تدفع رواتب لسلاطين أبين والحواشب والأميري (الضالع) وتتعهد بأن تعطي السلطان محسن فضل وأولاده ونسلهم راتباً مقداره 6500 ريال (ماريا تيريزا) سنوياً ابتداء من ذي القعدة سنة 1254م.

(ثالثاً) تبقى الأرض الممتدة من المجراد (خورمكسر) إلى لحج وإلى جميع حدود العبادل المعروفة تحت سيطرة السلطان. وإذا وقع أي اعتداء على حدود السلطان أو على العساكر البريطانية فإن الطرفين يكونان يداً واحدة.

(رابعاً) إذا دخل أحد رعايا السلطان إلى عدن فعليه أن يطيع قوانين الدولة البريطانية، وإذا دخل أحد رعايا بريطانيا إلى لحج فعليه أن يطيع أحكام السلطان. وإذا دخل أحد أولاد السلطان إلى عدن فإنه لا يدفع أي رسوم أو عوائد.

وبعد التوقيع على المعاهدة استلم السلطان أول راتب قررته له حكومة عدن وبلغ 541 ريالا شهرياً.

معاهدات بريطانيا ورؤساء القبائل:

في نفس الفترة التي وقعت فيها أول معاهدة بين سلطان لحج والحكومة البريطانية وقعت معاهدات مشابهة بين الحكومة البريطانية ورؤساء القبائل المجاورة لعدن.

ففي تاريخ 31 يناير وقعت معاهدة صداقة وسلام بين الحكومة وشيخ قبيلة العزيبي العبدلية.

وفي 2 فبراير وقعت معاهدة صداقة وسلام بين الحكومة والسيد محمد جعفر بن عيدروس شيخ الوهط العبدلية.

وفي 4 فبراير وقعت معاهدة بين الحكومة والشيخ حيدرة بن مهدي بن علي شيخ قبيلة العقارب.

وفي 18 فبراير وقعت معاهدة صداقة وسلام بين الحكومة ومشائخ قبائل الصبيحة.

وفي 20 فبراير وقعت معاهدة أخرى بين الحكومة ومشائخ قبائل الصبيحة.

وفي 21 فبراير وقعت معاهدة صداقة وسلام بين الحكومة وسلطان يافع السفلى علي غالب.

والتعهد الآتي يقدم لنا فكرة عن نوع تلك المعاهدات. وقد وقع على هذا التعهد الشيخ عون بن يوسف الشرجبي والكابتن هينس:

"إن هذه الورقة التي حررها الشيخ قاسم بن سعيد الشرجبي والترجمة الصحيحة تشهد بأنني صديق حميم للإنكليز وإنها لصداقة صادقة ودائمة لا تنقطع. إن ثقتي بالله وبأن هذه الصداقة لن تنقلب إلى الضد وأن أي ضرر لن يقع ولا حتى أصغر الحوادث وأقلها شأناً. إن رعاياي سيدخلون منطقتكم ورعاياكم سيدخلون منطقتنا كأصدقاء وكل ما يسر الإنكليز سيكون نافذاً

وسأعمل على الدوام بموجب تعليماتكم مهما كانت. إن صداقتنا يعلم بها الله وهو خير الشاهدين."

وكانت بريطانيا تخصص رواتب شهرية لهؤلاء الرؤساء.

سلطان لحج يهاجم عدن:

يظهر أن السلطان محسن فضل بعد أن رأى ازدياد سكان عدن وازدهار تجارتها وظهور أهميتها، أدرك مؤخراً أهمية عدن، فاتصل بسلطان أبين أحمد بن عبد الله الفضلي واتفقا على غزو عدن واسترجاعها من الغزاة الإنكليز.

وفي 11 نوفمبر سنة 1839م جهز السلطان خمسة آلاف مقاتل زحف بهم على عدن .. وفي مواجهة السور (خندق جبل حديد) وقعت معركة حامية بين الفريقين، فانهزم المهاجمون أمام المدافع المركزة على السور وفقدوا مائتي رجل بين قتيل وجريح. وقطعت حكومة عدن الراتب الذي قررت إعطاءه للسلطان محسن فضل وضربت حصاراً بحرياً على طول ساحل أبين ومنعت السفن من دخول ميناء شقرا.

ذكر هينس أن السلطان كتب إليه رسالة يقول فيها: "لقد قذفتم التراب في عيوننا، وبكلماتكم المعسولة وهداياكم أعميتم أبصارنا في الوقت الذي كنتم فيه تشيدون الحصون لتهديمنا "وذكر هينس أن السلطان في تلك الرسالة ذكر أن الخطأ لم يكن صادراً منه بل من قبيلته وأنه لذلك يعتذر عما جرى ويطلب إعادة الراتب إليه.

وكيل بريطانيا في لحج:

في 21 مايو سنة 1840م قام السلطان محسن فضل والقبائل التي تحت إمرته وعددهم بين 4000 و5000 مقاتل بهجوم ثان على عدن. وتمكن المدافعون من صد الهجوم، فتراجع السلطان ورجاله بعد أن فقدوا كثيراً من القتلى والجرحى.

كانت حكومة عدن قد عينت الشيخ حسن الخطيب وكيلاً لها في لحج. وقد كان الشيخ حسن من كبار المقربين إلى سلطان لحج وكان أحد الذين وقعوا على المعاهدة الأولى بين بريطانيا والسلطان فقد كان أحد ممثلي السلطان. وبعد الاحتلال البريطاني لعدن عين الكابتن هينس الشيخ حسن الخطيب ليكون

وكيلاً لبريطانيا في لحج. ويذكر الكابتن بليفير أن معلومات عن استعدادات السلطان في الهجومين قد وصلته إلى عدن ومن وكيلها في لحج، وأن تلك المعلومات كانت السبب في سهولة صد المهاجمين وفشلهم .. ولما علم السلطان بالدور الذي قام به وكيله السابق الشيخ حسن الخطيب حاصر بيته في لحج بالعسكر ثم أمر بقتله ونهب بيته وبيوت أقربائه التي بلغت ستة عشر بيتاً ومصادرتها.

وعلم السلطان أيضاً أن أحداً يهود لحج كان الواسطة في نقل رسائل الشيخ حسن الخطيب من لحج إلى عدن، وأن عدداً من يهود لحج كانوا يعملون في التجسس لحساب بريطانيا، فأمر السلطان بنهب جميع بيوت اليهود اللحجيين وبيوت اليهود الذين كانوا في لحج ثم انتقلوا إلى عدن. وقدرت خسائر التجار في تلك العمليات بخمسة عشر ألف ريال.

وقام السلطان محسن فضل والسلطان أحمد بن عبدالله الفضلي بمهاجمة مشيخة العقارب ومحاصرة حصن بير أحمد لأن العقارب رفضوا الاشتراك في الهجوم على عدن.

وأراد الكابتن هينس أن يفرض عقوبة على السلطان محسن فضل فأمر بإغلاق باب عدن أمام المؤن التي تصل من لحج إلى عدن .. والحقيقة أن عدن كانت في أشد الحاجة إلى تموينات لحج، ولكن هينس، بعمله ذاك، أراد أن يشعر السلطان بأن عدن تستطيع الحصول على محتاجاتها من مصادر أخرى غير لحج.

معاملة رعايا بريطانيا في التهائم اليمنية:

في أوائل سنة 1840م (1256هـ) أمر والي مصر محمد علي باشا الكبير ابنه الكبير إبراهيم باشا بالجلاء عن اليمن بناء على رغبة الدولة العثمانية باتفاق مع بريطانيا.

وكانت اليمن حينذاك في أزمة خانقة وفوضى عنيفة، فزاد جلاء الجيش المصري من توتر الأحوال في اليمن، وحاول كل شيخ وكل نائب أن يستقل بالمنطقة التي يحكمها وينفصل بها عن دولة الإمام في صنعاء.

كان إبراهيم باشا يرغب في تسليم التهائم اليمنية لحليفه شريف مكة محمد ابن عون، ولكن شريف "أبو عريش" الحسين بن علي حيدر، بإيعاز من

الدولة العثمانية، اتصل بقبائل عسير وجهز جيشاً يتكون من عشرين ألف مقاتل. وأرسل الشريف الحسين أخاه أبا طالب على رأس جيش من ثلاثة آلاف مقاتل ودخل الحديدة في 22 إبريل سنة 1840م وهو نفس اليوم الذي انسحب فيه المصريون عن اليمن. وفي شهر مايو التالي احتل أمير عسير عايض بن مريع ميناء الحديدة وقبض على تجارها وأجبرهم على أن يدفعوا له مائة وعشرين ألف ريال، وأصدر أمره بمنع المسيحيين من ركوب الخيل، وكان كثير منهم من رعايا الدولة البريطانية. وفي شهر يونيو التالي دخل الشريف الحسين بن علي حيدر المخا بعد أن اتفق مع والي مصر على أن يدفع له تسعين ألف ريال سنوياً حتى لا يعترض على بقائه سيداً على التهائم اليمنية.

وحين وصلت تلك الأنباء إلى عدن أرسلت الحكومة بالملازم جوردن Lt' Gordon على السفينة "زنوبيا" "Zenobia" لحماية رعايا بريطانيا في المخا وللتأكد من شعور الشريف الحسين نحو البريطانيين ورعاياهم في تلك البلاد والمناطق الواقعة تحت سيطرته.

وقوبل جوردن بمهانة وتحقير وسموه "الكافر". وأمر الشريف بإنزال الراية البريطانية من ساريتها في دار وكيل بريطانيا في المخا السيد عبد الرسول الهندي، ثم تمزيقها ونهب بيت الوكيل الذي اضطر إلى الهرب إلى عدن.

وزاد الشريف الحسين في تشديده فأمر برفع العشور على البضائع التي يصدرها رعايا بريطانيا من اثنين وربع في المائة إلى تسعة في المائة.

وأرسل الشريف إلى حكومة بمبي يأمرها بأن تشرع بتسليم عدن إليه وإلا استعان بقبائل عسير في غزوها.

وفي شهر نوفمبر سنة 1840م تمكن الإمام الناصر عبد الله بن الحسين بن المهدي العباس من احتلال تعز، ثم أرسل إلى الشريف يطلب منه أن يسلم التهائم اليمنية، فرفض الشريف.

وازداد الشريف عتواً وجبروتاً وفرض الضرائب الشديدة على التجار في المخا واستنزف منهم الأموال بحجة مساعدته في التجهيز لغزو عدن. فاضطر كثير من الأهالي والتجار إلى الهرب من المخا إلى عدن بمعدل ألف ومائتي شخص في الشهر حتى بدأت المخا تخلو وتفقد أهميتها كميناء عظيم.

وكان الشريف يأمر ربابنة السفن بأن يحملوا المرضى من أهالي المخا ويبحروا بهم نحو عدن بدلاً من نقل البضائع.

الإمام يطلب مساعدة بريطانيا:

في 22 أبريل سنة 1841م أرسل الإمام وفداً من صنعاء يحمل هدايا ثمينة لحكومة عدن ولمفاوضة المعتمد البريطاني الكابتن هينس لأجل تقديم المساعدة البحرية للإمام حتى يتمكن من انتزاع التهائم اليمنية من الشريف الحسين بن علي حيدر.. ولكن المعتمد البريطاني شرح للوفد اليمني أن الدولة البريطانية عاقدة العزم على عدم التدخل في الشئون السياسية العربية ولذلك فإنها لا يمكنها أن تحقق طلب الإمام.

لم يقم الإمام بأي عمل إيجابي لأخذ التهائم اليمنية، بل بقي منزوياً في مدينة "إب" ظناً منه أن الإنكليز لابد قائمون بمساندته في طلبه. وفي شهر يوليو من السنة المذكورة أرسل الإمام وفداً ثانياً برياسة حاكم تعز خوّله الإمام سلطة الدخول مع الإنكليز في معاهدة كثمن لمساعدتهم له.

ووضح المعتمد البريطاني لعامل تعز عطف حكومته على موقف الإمام، ولكن القرار الصارم الذي اتخذته حكومة الهند وحكومة لندن في اتباع سياسة الحياد التام إزاء الشئون الداخلية لليمن يمنعه من تقديم النجدة للإمام ضد الشريف الحسين بن علي حيدر.

سلطان لحج وسلطان أبين يهاجمان عدن للمرة الثالثة:

كان السلطان محسن فضل ما زال موتوراً من فقده لعدن. وكان يدبر طريقة لاسترجاعها رغم أنه كان قد شاخ وطعن في السن، إلا أنه كان فتياً في نشاطه لا يهاب القتال والنضال.

وفي عصر الخامس من يوليو سنة 1841م - في نفس الشهر الذي زار فيه الوفد اليمني الثاني عدن - تقدم السلطان محسن فضل والسلطان أحمد بن عبدالله الفضلي على رأس خمسة آلاف مقاتل لغزو عدن للمرة الثالثة، ولما اقتربوا من الخندق فاجأتهم الزوارق الراسية في جزيرة العبيد بقنابل مركزة بينما انهمرت عليهم القنابل من خط الدفاع في خندق السور التركي فاضطربت صفوف المهاجمين وانسحبوا تاركين وراءهم ثلاثمائة قتيل وجريح.

والتجأ السلطان محسن ورجاله إلى بئر حميد في خورمكسر حيث بنى حصناً سماه "نوبة الشيخ مهدي" وبدأ سلسلة من الإغارات على القوافل المتسللة بالتموينات إلى عدن.

وفي 21 يوليو تقدم السلطان أحمد بن عبد الله الفضلي وثلاثة من إخوانه وجماعة من رجاله إلى مقربة من باب السلب حيث توقف وطلب من الحراس التحدث مع ترجمان الحكومة السيد أحمد بن عيدان. وكانت الأوامر المشددة قد صدرت من حكومة عدن بعدم خروج أحد من باب السلب، ولكن الفضول دفع أحمد بن عيدان إلى معرفة ما يريده السلطان الفضلي، ولم يكد يتخطى حاجز باب السلب حتى أرداه السلطان قتيلاً وهرب مع إخوانه ورجاله إلى نوبة الشيخ مهدي.

وفي ظلام إحدى ليالي شهر سبتمبر زحفت جماعة من المغيرين على خندق السور وأطلقت نيرانها على الحراس الذين ردوا على النيران بمثلها فقتلوا أحد عشر مغيراً وثلاثة جمال.

هجوم الإنكليز على الشيخ عثمان وحصار ساحل أبين:

لم تنتظر حكومة عدن مزيداً من المضايقات بعد الهجمات التي قام بها السلطان محسن فضل العبدلي وحليفه السلطان أحمد بن عبد الله الفضلي فجهزت في 11 أكتوبر فرقة من ثلاثمائة جندي إنكليزي ومائتي جندي هندي تصحبهم بطارية مدفعية .. ونجحت الفرقة في تهديم نوبة الشيخ مهدي ثم تقدمت نحو الشيخ عثمان وأطلقت مدافعها على الحصن فهدمته. وضربت الحكومة حصاراً بحرياً على طول ساحل أبين.

وظهرت نتيجة تلك العمليات بسرعة فقد وصل إلى عدن السلطان الفضلي ووعد الحكومة بأن يكون ودياً في علاقاته مع الدولة البريطانية في المستقبل. وبعده وصل إلى عدن السلطان محسن فضل ووقع معاهدة صداقة وحسن جوار مع حكومة عدن ووافق على إرجاع أملاك عائلة الشيخ حسن الخطيب وأقاربه التي كان قد صادرها. وقررت حكومة عدن معاشاً لعائلة حسن الخطيب وعائلة أحمد بن عيدان لأنهما قتلا وهما يؤديان الخدمة.

المعتمد البريطاني في عدن يسافر إلى الحديدة:

كانت حالة رعايا بريطانيا في التهائم اليمنية تزداد سوءاً من جراء معاملة شريف "أبو عريش" الحسين بن علي حيدر لهم، فقدمت الحكومة البريطانية شكواها إلى الخليفة العثماني.

وفي شهر مارس سنة 1842م أرسل الباب العالي العثماني مندوبه أشرف بك ليعمل على عزل الشريف وإجباره على دفع تعويضات لرعايا بريطانيا للخسائر التي كبدهم إياها.

وبعثت حكومة عدن بالمستر كروتندن Cruttenden المعتمد السياسي البريطاني إلى الحديدة ليشرح لأشرف بك أسباب شكوى بريطانيا. وفي سبتمبر وصل أشرف بك إلى زبيد ثم غادرها إلى الحديدة.

يقول الكابتن بليفير: إن الذي يظهر أن أشرف بك تسلم رشوة من شريف "أبو عريش" لأجل أن يتجنب أي فرصة للاجتماع بالمستر كروتندن.

وأرسل أشرف بك تقريره إلى الباب العالي العثماني قائلاً فيه: إنه وجد الشريف مخلصاً للباب العالي، وإنه ينكر أي تهمة بإهانة الراية البريطانية وإنه مستعد أن يسمح بإرجاعها إلى الصارية ولكن في غير بيت الوكيل السيد عبد الرسول الهندي.

إمام اليمن يرسل وفداً ثالثاً إلى عدن:

كان الإمام الهادي في "إب" في حالة سلبية لا يستطيع أن يقوم بأي عمل إيجابي ضد الشريف الحسين بن علي حيدر لاسترجاع التهائم اليمنية، فقد كان الإمام يفتقر إلى المال ليجهز به جيشاً يحارب به الشريف.

وفي أوائل سنة 1843م أرسل الإمام وفداً يمنياً ثالثاً إلى عدن يلح في طلب المساعدة من بريطانيا ويطلب من حكومة عدن أن ترسل إليه في صنعاء بضابط بريطاني ليشير عليه إلى خير السبل لطرد الأشراف من التهائم اليمنية. ولكن حكومة عدن اعتذرت عن الاستجابة لرغبة الإمام كما تذكر المصادر البريطانية.

قنصل بريطانيا في المخا:

طلبت الحكومة البريطانية من حكومة الباب العالي العثماني بأن ترسل قنصلا لبريطانيا إلى المخا لحماية المصالح البريطانية في التهائم اليمنية فوافقت حكومة الباب العالي على ذلك الطلب.

ووصل أشرف بك إلى عدن ليقابل الشخص المختار لمنصب القنصل قبل إبحاره إلى المخا. ولكن يظهر أن حكومة عدن أرادت أن تنتقم من أشرف بك

بنفس الأسلوب الذي عامل به المستر كروتندن في الحديدة، فقد بقي أشرف بك خمسة أشهر في عدن دون أن يقابل القنصل المختار .. وربما أن أشرف بك أدرك السبب فغادر عدن إلى الحديدة.

الإمام يتصل بسلاطين الجنوب وبحكومة عدن:

في 18 ذي الحجة سنة 1259هـ (8 يناير سنة 1844م) توفي الإمام الهادي محمد بن المتوكل أحمد وقام بالأمر بعده الإمام المنصور علي بن المهدي الذي كان إماماً فخلعه الإمام الناصر عبد الله بن الحسين كما شرحنا في فصل سابق.

وأراد المنصور أن يثبت أنه جدير بالعرش فكان أول أعماله محاولة استرجاع التهائم اليمنية من شريف "أبو عريش"، فجهز جيشاً من عشرين ألفاً من المشاة والفرسان، وكان في سيره يستولي على أقوات الجيش ومصروفاته من المدن والقرى التي يمر بها.

وفي يوليو وصل المنصور إلى قعطبة من حيث أرسل إعلاناً يأمر فيه جميع حكام وسلاطين وأمراء المناطق المجاورة بزيارته وتقديم فروض الطاعة له. واستجاب لندائه كثيرون ولكن الأكثر رفض أو اعتذر. وكان بين المعتذرين السلطان محسن فضل العبدلي.

وأرسل المنصور وفداً إلى المعتمد البريطاني في شهر أغسطس ليشرح له رأي الإمام، وليستعلم منه إذا كان الإنكليز سيمانعون من احتلاله لحج وأكد أن هذا الاحتلال لن يؤثر على صداقة الإمام لبريطانيا.

في الوقت ذاته كتب الإمام إلى السلطان محسن فضل معلناً رغبته في إعلان الحرب على الإفرنج الذين يحتلون عدن. وطلب منه أن يساعده في مهمته المقدسة.

وبينما الإمام المصور غائب عن صنعاء وصلته الأنباء بأن عمه القاسم نائبه في صنعاء يدبر مؤامرة للقضاء عليه وتنصيب نفسه إماماً، فعاد المنصور إلى صنعاء وحبطت المؤامرة وهرب القاسم إلى مكة حيث توفي بعد وقت قصير.

وفي نفس السنة انتشر وباء الجدري في اليمن ووصلت العدوى عدن. وبقي المنصور في "يريم" وتزوج هناك وأقام الاحتفالات الكبيرة بتلك المناسبة.

الإمام المتوكل محمد بن يحيى:

في سنة 1259هـ (يوليو سنة 1845م) تمكن السيد محمد بن يحيى بن علي ابن المهدي العباس بن الحسين بن القاسم بن الحسين بن أحمد بن الحسن بن القاسم من الزحف على صنعاء بخمسة عشر ألف مقاتل .. وعند أبواب صنعاء طلب من المنصور علي بن المهدي أن يتنازل عن العرش ولكنه رفض. وثار أهل صنعاء على المنصور وأعلنوا الولاء لمحمد بن يحيى بشرط ألا يمس المنصور بأي ضرر، فوافق محمد بن يحيى ودخل صنعاء وأعلن نفسه إماماً واتخذ لقب المتوكل.

وأعلن المتوكل الجهاد على أشراف "أبو عريش" وجرت بين الفريقين معارك دامية تداولا فيها المخا والحديدة وزبيد وحيس واللحية مرارا. وبينما الإمام المتوكل يوشك على الانتصار؛ رأت الدولة العثمانية أن من الضروري السيطرة على اليمن فأرسلت أسطولاً من جدة بقيادة توفيق باشا وفرقة من العسكر بقيادة محمد بن عون شريف مكة ليحتل الحديدة.

وحين وصل توفيق باشا إلى اليمن طلب من المتوكل أن يسلم اليمن إلى الباب العالي العثماني فرفض في أول الأمر، ولكنه إزاء القوة التركية المنظمة رأى أنه غير قادر على الصمود في القتال فاضطر إلى الذهاب إلى المخا لمقابلة توفيق باشا ومحمد بن عون حيث أجبره على التوقيع على المعاهدة الثانية:

(أولاً) أن البلاد الواقعة تحت نفوذ الإمام يمكن أن تبقى كذلك على أن يكون ممثلاً للباب العالي العثماني.

(ثانيا) أن مدخول البلاد يقسم إلى جزأين؛ واحد يذهب إلى خزينة الباب العالي والثاني يبقى في حوزة الإمام ليصرف في صالح البلاد.

(ثالثا) أن تبقى في صنعاء قوة من ألف جندي تركي.

(رابعاً) يجب أن يحصل الإمام على مبلغ سبعة وثلاثين ألف ريال شهرياً لمصروفاته الشخصية تخصم قبل تقسيم المدخول إلى جزأين.

وبعد الانتهاء من ذلك الاتفاق رحل توفيق باشا بعدد كبير من الجنود الأتراك يصحبه الإمام إلى صنعاء للاحتفال بالنظام الجديد. وحين وصلوا إلى العاصمة احتل الأتراك حصن القصر.

ولما سمع الأهالي بذلك وأن الأتراك قد ألغوا الدعاء للإمام في خطبة الجمعة وجعلوه للسلطان عبد المجيد العثماني، ثارت ثائرة أتباع المذهب الزيدي الذين

يعتبرون الإمام زعيمهم الروحي وحملوا السلاح وهاجموا الحصن وقتلوا كثيراً من الأتراك.

وبلغ الغضب بالأهالي حداً جعلهم يقبضون على الإمام المتوكل محمد بن يحيى ويلقون به في السجن. وأعادوا الإمام المعزول المنصور علي إلى العرش.

وأمر المنصور بذبح المتوكل محمد بن يحيى وأمه وابنه غالب، ولكن الجنود رفضوا فما كان من المنصور إلاّ أن أمر بقتل المتوكل وهو في السجن في سنة 1266هـ (1849م).

الهادي غالب بن محمد بن يحيى:

بعد مقتل المتوكل محمد بن يحيى هرب ابنه غالب إلى قبائل ذي محمد وذي حسين وجمع منهم جيشاً زحف به نحو صنعاء وتمكن من قهر المنصور الذي اضطر إلى تسليم نفسه. ولم ينتقم غالب من قاتل أبيه، بل اكتفى بمصادرة ممتلكاته ثم أطلق سراحه. وأعلن غالب بن محمد بن يحيى نفسه إماماً واتخذ لقب "الهادي".

وفي عهده انتشرت الفوضى في اليمن وخاصة في صنعاء ونواحيها، وصار السلب والنهب والقتل من الأمور اليومية العادية. ولم تعد له غير سلطة اسمية وحكم صنعاء أحد تجارها واسمه أحمد الخيمة. وبدأ تدهور الدولة القاسمية وفقدت عظمتها ومجدها وقوتها السابقة.

الشريف إسماعيل بن الحسن يهاجم عدن:

كان السيد إسماعيل بن الحسن شريفاً من أهل مكة ومنها بدأ زحفه البطيء معلناً الجهاد في سبيل الله وفي رأسه يدور أمل السيطرة على كل البلاد العربية ووصل إلى المخا داعياً رجال القبائل إلى صفوفه وواعدا إياهم بالنصر المبين على النصارى الذين يحتلون عدن.

ودخل السيد أرض السلطنة العبدلية وقد بلغ عدد رجاله ألفين من قبائل عسير وياجل ويام. وكتب إلى سلطان لحج محسن فضل وإلى سلطان أبين أحمد ابن عبد الله الفضلي وإلى سلطان الحواشب وشيخ العقارب يدعوهم إلى إعلان الجهاد ويعدهم بمساعدة الله وعدم الإصابة أثناء القتال. وقال إنه في الوقت المناسب يستطيع أن ينتزع عدن من الإنكليز في نصف ساعة.

وكتب السلطان محسن فضل إلى الكابتن هينس شارحاً الموقف وواصفاً السيد وأقواله وقوته، فرد عليه هينس بأنه مطمئن إلى أن خطوط دفاعه تستطيع أن تصدّ قوة الشريف المكي.

وتسامع الناس بقوة الشريف الروحية وآمن به كثيرون، ولم يكد يصل إلى قرية "طهرور" اللحجية حتى كان قد انضم إليه ألف عبدلي وخمسمائة أبيني ومائتا حوشبي ومائة عقربي.

وكتب السلطان محسن فضل إلى السيد إسماعيل يعرض عليه المساعدة وأمر أهالي لحج بأن يقدموا لجيشه القوت والملابس والمال حتى فاضت المؤن أمام الشريف، فكتب مرسوماً شريفياً مسجوعاً يمنح فيه السلطان بركاته، قال: "الحمد لله الذي ألف قلوب العباد بعد التنافر وجعل المخالطة في الله سبيلاً لا ينقطع في الوداد، والسلام على من قال: ارحموا عزيز قوم ذل وغنياً افتقر، وقوله صلى الله عليه وسلم: "أنزلوا الناس منازلهم" ممن كان للإسلام افتخر. أما بعد اعلموا أيها الناس أن الله أزال عنكم الوسواس والبأس. إن الله عز وجل قدر المقادير حتى ساقنا من أقصى البلاد إلى هذه البلدة بقدرة العزيز القدير، فوجب علينا أن نقر أولي الفضل والرياسة، في أحكامهم المعلومة من غير بخس ولا خساسة، وهو فخر الأمراء المكرمين، وإرث العز المكين، خلفاً بعد سلفه الأولين السلطان، محسن فضل بن محسن فضل بن علي بن سلام، أدام الله عليهم سجال الفضل والإنعام، ولا يرتاب ولا يشك في هذا الأمر بعيد أو قريب، وأن المذكور لا يعارض في سوح بلاده، ولا يتجرأ عليه أحد في رعيته ومواشيه وأتباعه ومن كان في معاملته وزروع لزاده، وأن المذكور عدوه عدونا وصديقه صديقنا، ويعلم الواقف عليها والناظر إليها أن هذا الحكم حسبما اقتضاه الشرع الشريف الذي عليه المدار، ويجب أن يؤكد غاية التأكيد، والكف الكريم والختم الفخيم عليهم الاعتماد من الشريف الإمام العارف بالله فرع الشجرة الزكية، وسلالة السلسلة المصطفوية، الغوث الجامع، والغيث الهامع، معصب الشريعة جده مولانا الشريف الحسن ابن مولانا الشريف الحسن ابن مولانا أحمد سلطان مكة ابن مولانا الشريف سعيد سلطان مكة ابن مولانا الشريف زيد سلطان مكة بتاريخ شهر شعبان سنة 1262هـ".

ثم كتب السيد إسماعيل إلى السادة أهل الوهط وأهل الفيوش وبقية القبائل يذكر لهم أن علم الحساب والفلك كشف له أن النصر حليفه فردوا عليه باستعدادهم للزحف معه على عدن.

وأصاب الرعب أهالي عدن واستولى عليهم الفزع بعد أن انتشرت الشائعات بأن الإنكليز في عدن أضعف من أن يقفوا أمام معجزات الشريف وأفعاله الخارقة المدهشة فبدأوا يتسللون هاربين حتى بلغ عدد الذين هجروا عدن أكثر من ألف شخص.

وانقطعت المواصلات بين عدن والبر ولم تصل المؤن من المناطق المجاورة. وأخيراً كتب السيد إسماعيل رسالة إلى الكابتن هينس في شهر شعبان سنة 1262هـ (أغسطس سنة 1846م) قال: "اسمع يا كابتن هينس، سلم لي عدن وما فيها فإنك لن تستطيع الوقوف أمام طريقي مهما كانت قوتك. إنك يا هينس إن استمعت إلى نصيحتي وسلمت نفسك تسليماً شريفاً فإن الله جل وعلا سيضاعف أجرك وسيمنحك بركاته ونكون أصدقاء حتى ولو أن ديانتينا قد وضعتانا في وضعين مختلفين، وسيكون لك ما لنا وعليك ما علينا، أما إذا أبيت أن تفعل ما آمرك به فلا تلومن إلا نفسك على النتائج. وأؤكد لك أن قدومي من بلد قصي لم يكن في سبيل المال بل من أجل الجهاد في سبيل الله وعلى الله الاتكال".

وبعث السيد إسماعيل بهذه الرسالة مع ثلاثين صومالياً من أتباعه فاستلم هينس الرسالة وأمر بترحيل الصومال إلى بلادهم.

وفي 17 أغسطس سنة 1846م تقدم أربعمائة من جيش الشريف نحو عدن للاستكشاف ولكنهم لم يكادوا يقتربون من الخندق حتى اشتبكوا في معركة مع المدافعين الذين أجبروهم على الانسحاب تاركين وراءهم ستة قتلى وسبعة عشر جريحاً وثلاثة أسرى. ثم وقعت مناوشات عديدة كان رجال الشريف ينسحبون في كل مرة، وفي 21 أغسطس زحف الشريف إلى الشيخ عثمان ووقف هناك وأمر ألفاً ومائتين من رجاله بالتقدم نحو جسر خورمكسر. وفي 26 أغسطس زحف ألفان نحو عدن ولكنهم قوبلوا بوابل من الرصاص من خندق السور.

لما رأى الشريف فشل محاولاته وحين أحس أن رجاله بدأوا يتشككون في مقدرته أمر بالزحف العام على عدن فتقدمت فرقة نحو خندق السور وسارت أخرى نحو باب عدن.

وانتظر الكابتن هاملتن Hamilton قائد السفينة "سيزوستريس Cesostris" في ساحل أبين حتى حان حين المد فتقدم نحو الشاطئ وأطلق مدافع السفينة نحو الجيش الزاحف فحطم جسر خورمكسر. وانطلقت مدافع السور ورصاص البنادق فاضطر الجيش إلى الانسحاب إلى مستنقعات الملاح.

ومن الناحية الأخرى تمكن فرسان أبين من الوصول إلى باب عدن وصعدوا الجبل واقتربوا من درب الحوش (الحريبي). وتقدم المشاة نحو الباب بعد أن خاضوا البحر. وعلى حين فجأة انفتح باب عدن وانطلقت منه مدافع تزار فتساقط القتلى والجرحى وفر الباقون إلى قريتي الوهط والفيوش.

في ذلك الجو المضطرب انتشر وباء الكوليرا بين المنهزمين ففتك بهم فتكاً ذريعاً، وتفرق الباقون في كل مكان وهم لا يجدون ما يسد رمقهم، فمضوا يبحثون عن لقمة العيش فكان بعضهم يبيع سيفه أو بندقيته برغيف خبز.

ورأى الشريف إسماعيل أن جيشه قد ذاب فطلب من السلطان أحمد بن عبدالله الفضلي أن يرافقه إلى أبين ليقضي شهر رمضان.

ولما وصل السلطان إلى أبين حاول أن يقفل طريق المواصلات مع عدن ولكن حكومة عدن حاصرت ساحل أبين فاضطر الفضلي إلى فتح الطريق.

وكتب الشريف إلى الإمام يطلب منه النجدة فرد عليه الإمام أنه مندهش كيف أن رجلاً يدعي أنه يملك قوة سماوية خارقة ثم يطلب مساعدة أهل الأرض. وفي سنة 1848م (1264هـ) مات الشريف إسماعيل قتيلاً بيد بدوي من أهل أبين.

السلطان أحمد محسن فضل:

في آخر ذي الحجة سنة 1263هـ (30 نوفمبر سنة 1847م) توفي السلطان محسن فضل بن محسن فضل بن علي بن صلاح بن سلام بن علي السلامي فخلفه ابنه السلطان أحمد الذي كان قد قاوم مطالب الإنكليز قبل احتلالهم لعدن وهددهم بقطع رقابهم إذا هم حاولوا دخول باب عدن. وبعد وفاة والده تغير شعوره وصار صديقاً لحكومة عدن. وتفاوض السلطان أحمد مع حكومة عدن لعقد معاهدة ولكنه قبل إتمامها مات بالجدري في صفر سنة 1265هـ (18 يناير 1849م).

السلطان علي محسن فضل:

بعد وفاة السلطان أحمد محسن فضل خلفه أخوه السلطان علي محسن فضل الذي كان مختلفاً عن أخيه في كل شيء وخاصة في شعوره نحو الإنكليز. فقد كان السلطان علي محسن متخلقاً بصفات والده في الحذر والمكر والدهاء ولكنه كان أقل رغبة في القتال من والده.

كان السلطان علي محسن يصادق الإنكليز ويظهر لهم الود وفي نفس الوقت يعمل على إثارة السلطنات المجاورة ضدهم حتى يثبت لحكومة عدن أنه الوحيد بين حكام المناطق المجاورة الجدير بثقتهم. وقاست حكومة عدن الكثير من المتاعب نتيجة أعماله وتصرفاته.

أول معاهدة بين سلطان لحج علي محسن وحكومة عدن:

في مايو سنة 1849م (14 جمادى الآخرة سنة 1265هـ) جرى التوقيع على المعاهدة التالية بين السلطان علي محسن فضل وحكومة عدن وهي كما يلي كما نقلناها من الأصل الإنكليزي:

"من أجل الحصول على فوائد تجارية بالطرق الودية والنية الحسنة والسلام الدائم لكلا السلطتين، فإن هذه المعاهدة جرى تحريرها والاتفاق عليها وختمها والتوقيع عليها من قبل أولئك الذين يمتلكون السلطة والنفوذ الكاملين وهما: السلطان علي بن محسن فضل بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن ورثته وخلفائه وأيضاً عن قبائل العزيبي والسلامي وجميع القبائل الأخرى الذين تحت حكمه ونفوذه، والمحترم ستافورد بتسورث هينس الكابتن في الأسطول الهندي والمعتمد السياسي في عدن الذي خولت إليه جميع السلطات لأن يفعل ذلك من قبل صاحب الشرف الرفيع الحاكم العام للهند، وهذه المعاهدة ستكون عرضة للمصادقة عليها من قبل حكومة الهند.

بالنظر إلى الحاجة إلى السلام والتبادل التجاري والرخاء بين جميع الشعوب وعلى الخصوص لفائدة السلطتين المذكورتين أعلاه وهما: السلطان علي محسن فضل سلطان لحج باسمه وبالنيابة عن ورثته وخلفائه وجميع القبائل التي تحت إدارته ورقابته وسلطته، والكابتن ستافورد بتسورث هينس بالنيابة عن صاحب الشرف الرفيع الحاكم العام للهند، عملت هذه الاتفاقية لغرض تأسيس

صداقة دائمة وطيدة الأركان لا يجوز خرقها. واتفق الطرفان وصادقا وختما ووقعا على المواد التالية:

المادة الأولى:

بالنظر إلى الاحترام الواجب للحكومة البريطانية فإن السلطان علي محسن فضل يتعهد بأن يحصل للمالكين الشرعيين كل الأراضي والممتلكات المنزلية وغيرها التي في داخل حدود بلاده والتي يمتلكها رعايا بريطانيا الساكنون في عدن، وأن أشخاصهم ووكلاءهم سيكونون في أمان ويتمتعون بالاحترام إذا هم ساروا إلى بلاد السلطان ليجمعوا إيجار تلك الممتلكات أو لأي غرض آخر.

المادة الثانية:

يقبل السلطان علي محسن فضل أن يسمح لرعايا بريطانيا وجميع سكانها بزيارة لحج وأي جزء من بلاده إما لأغراض تجارية أو لرحلات ترفيهية، وسيضمن لهم الحماية والتسامح الديني الكامل ما عدا إحراق الموتى.

المادة الثالثة:

إذا اقترف أحد رعايا بريطانيا ما يجعله مسئولاً أمام القانون فإنه يرسل إلى سلطات عدن للمحاكمة والعقاب.

المادة الرابعة:

بموافقة سلطان لحج يمكن لرعايا بريطانيا أن يحصلوا على أراضٍ لمدد معينة في لحج أو أي مدن أو قرى في بلاده تبعاً لقوانينه، وبنفس الأسلوب يمكن لرعايا السلطان أن يحصلوا على أراضٍ في عدن تبعاً للقوانين والإجراءات البريطانية.

المادة الخامسة:

إن جسر خورمكسر والأرض الفضاء الواقعة بينه وبين جبال عدن التي تكون البرزخ (أسمس) ممتلكات بريطانية ولا شيء إلى الشمال.

المادة السادسة:

يتعهد السلطان علي محسن فضل بأن يطهر الطريق المؤدية إلى عدن من عصابات النهب وأن يحمي جميع المواد التجارية المارة ببلاده وأن يعاقب، إذا كان في سلطته، جميع الناهبين والمؤذين والمسببين للأضرار.

المادة السابعة:

المواد التي يحتاجها سلطان لحج شخصياً لأغراضه المنزلية ستمر من عدن دون أن تفرض عليها أي عشور، وبنفس الأسلوب ستمر ممتلكات الحكومة في بلاد السلطان دون أن تفرض عليها رسوم المرور .. إن سلطان لحج يتعهد بأن يأخذ رسوم المرور في داخل أراضيه على جميع البضائع المارة إلى عدن من الجبال وهي البضائع التي يمتلكها رعايا بريطانيا:

البر - الطعام - الدقيق - السمن - العنب وكل أنواع الفواكه - العسل - الفوة - الدال - السنة مكي - اللبان - الورس - البن - القات - سيفرض على سعرها الأساسي 2٪.

الخضروات - الخشب - القصب والحشيش (لن يفرض عليها شيء من العشور لأنها من منتوجات بلاد السلطان). وتفرض 2٪ على المواد التي لم تذكر في القائمة أعلاه أما المواد التي تدخل إلى بلاد السلطان من عدن فتفرض عليها 2٪ وهي:

القطن - النشوق "الشمة" - الفلفل - الملابس البيضاء والقطنية - الحديد - الرصاص - التمر - المدائع "النارجيلات".

وأيضاً 2٪ على المواد المذكورة في القائمة أعلاه.

المادة الثامنة:

إن السلطان علي محسن فضل يتعهد بأن يشجع زراعة جميع أنواع الخضروات الأوربية والمحلية لسوق عدن.

المادة التاسعة:

إن السلطان علي محسن فضل يؤكد بكل قوة الإخلاص الديني لهذه الاتفاقية، وزيادة على ذلك يعلن أن سيقدم أقصى معونة لتأييد المصالح البريطانية في جميع الأمور المتعلقة بسلام وتقدم ورفاهية عدن، وأنه سيستمع وأيضاً سيمتثل، إذا كان بإمكانه، إلى نصائح ممثل الحكومة البريطانية في جميع الأمور.

المادة العاشرة:

إن السلطان علي محسن فضل يتعهد أيضاً ويقسم يميناً إنه إذا حدث إخلال أو خرق للارتباط المذكور أعلاه فيما يخص نفسه أو أولاده أو أقرباءه أو رؤساء دولته أو أي شخص أو أشخاص آخرين من رجال قبيلته أو أولئك الذين يملكون السلطة تحته أو المأجورين أو بأي وسيلة مرتبطة بحكومته أو دائرة قضائه، أو إذا

كان أحد أو أي واحد من الأشخاص المذكورين أعلاه قد صار بأي طريقة مسئولاً عن كونه قد عمل سرياً أو كان أداة للإخلال بالارتباط أو لخرق المعاهدة، أو إذا اقترف أي عمل للنهب في الطرقات المؤدية إلى عدن بواسطة بلاده فإن السلطان يتحمل كل المسئولية وعليه أن يقدم الإجابة المرضية المقنعة للحكومة البريطانية، وبالإضافة إلى ما تقدم: إذا عمل السلطان أو أي شخص أو أشخاص من المذكورين أعلاه إما بصورة علنية أو سرية على حماية أي مذنب دون تقديم التقرير المرضي المقنع للبريطانيين، أو قام بأي خرق للمواد المذكورة أعلاه فإن السلطان بحرية وتأكيد، يقسم بأن يلغي أي مطلب له في الماهية (المذكورة أدناه) التي منحها له صاحب الشرف الرفيع الحاكم العام للهند وأن يعلن نفسه حانثاً بالعهد.

<u>المادة الحادية عشرة:</u>

إن ستافورد بتسورث هينس الكبتن في الأسطول الهندي والمعتمد السياسي في عدن الذي منحت له السلطة يعد رسمياً باسم صاحب الشرف الرفيع الحاكم العام للهند بأن يدفع للسلطان علي محسن فضل وورثته وخلفائه مبلغ 541ريالاً (ماريا تريزا) شهرياً طالما استمر هو أو ورثته وخلفاؤه على العمل بإخلاص وصدق نحو البريطانيين، وبكل الأحوال يحافظون على شروط هذه المعاهدة.

حررت هذه المعاهدة ووفق عليها في اليوم السابع من شهر مايو سنة 1849م.
وللشهادة على ذلك وضعنا أختامنا وتوقيعاتنا.

ختم سلطان لحج: إمضاء علي محسن فضل

ختم سلطان لحج: إمضاء ستافورد بتسورث هينس
(الكابتن في الأسطول الهندي والمعتمد السياسي)

ختم: (لورد دالهاوسي (حاكم الهند العام)

وقد صادق على هذه المعاهدة صاحب الشرف الرفيع الحاكم العام للهند في 31 أكتوبر سنة 1849م.

متاعب حكومة عدن:

جاءت سنة 1850م بأعمال عدائية سببت كثيراً من القلق والإزعاج لحكومة عدن. وأول تلك الأعمال وقعت في 29 مايو سنة 1850م، فقد استقل عدد من بحارة السفينة أوكلند Auckland زورقاً وساروا نحو الساحل ليجمعوا أصداف البحر من الشاطئ. وعلى حين فجأة انقض عليهم بدو من أهالي بير أحمد وقتلوا أحد البحارة وجرحوا واحداً وتفرق بعضهم هاربين سباحة نحو أحد الزوارق بينما فر اثنان جرياً إلى باب السلب... وبعد هذه الحادثة بأيام اعتدى بدوي اسمه السيد أبو بكر على عسكري هندي مدراسي وجرحه ولكن حرس باب السلب أطلقوا الرصاص على السيد أبي بكر فقتلوه.

وفي 28 فبراير كان جمع من ضباط الحامية قد نظموا رحلة إلى البر وكان بينهم الكابتن ميلن Mylne والملازم مكفرسن Mc' Pherson والملازم أوجيليفي Ogilvie والملازم هنكي Henchy والمستر سوليز Saulez ورافقهم إلى لحج الملازم كروتندن مساعد المعتمد السياسي، وحصل لهم على حرش من السلطان علي محسن فضل. وقضى أولئك الضباط الليلة التالية في الوهط التي يسكنها السادة، وهناك صرفوا الحراس، وعند منتصف الليل تمكن رجل اسمه السيد حسين من الدخول إلى حوش المنزل الذي ينام فيه الضباط وأصاب الكابتن ميلن بجروح مات من تأثيرها في اليوم التالي، وأصاب مكفرسن بجروح خطيرة والمستر سوليز بجروح طفيفة. وهرب السيد حسين إلى أرض الحواشب ولكن سلطانها طرده فالتجأ إلى سلطان أبين أحمد بن عبدالله الفضلي.

وفي 7 مارس نزل بدوي مسلح من أهالي بيرأحمد إلى التواهي لغرض قتل الكابتن هينس، وكان الملازم دليسر Delisser يسير على حصانه حينما أوقفه البدوي مدعياً أنه يريد أن يقدم له عريضة ثم أسرع فقطع عنان الحصان فهبط دليسر وتصارع الاثنان بالأيدي وتمكن البدوي من إصابة دليسر بعدة طعنات ولكن الملازم انتزع الخنجر من يده وطعن البدوي في مقتل فسقط البدوي صريعاً. وعلقت جثته على باب السلب ليراها كل العرب القادمين إلى عدن من البر.

وفي 4 يونيو اعتدى بدوي من أهالي بير أحمد على عسكري هندي خارج باب السلب وأصابه بجروح وهرب.

وفي 12 يوليو تحطمت السفينة سنس أوف كمرس Sons of Commerce عند أحد الشواطئ، فاعتدى رعايا السلطان علي محسن على الحطام ونهبوا الحمولة وقتلوا اثنين من البحارة. وكان المحرض على هذه العملية بدوي اسمه (الصوملي) فقبض عليه السلطان وأمر بشنقه في 27 أكتوبر.

كانت تلك هي بعض متاعب الكابتن هينس، وقد حاول مراراً أن يضع حداً لها بالقيام بأعمال عنيفة ضد سلطنة الفضلي وحاصر موانئ ساحل أبين التابعة لها.

وقدر هينس أن عواقب الامتناع عن تغريم أو معاقبة أحد حكام القبائل سوف تكون باعثاً على مزيد من المتاعب في الطرق التجارية المؤدية إلى عدن... وبعد مراسلات متعددة مع حكومة الهند وافقت على إنزال العقاب بسلطان أبين أحمد ابن عبد الله الفضلي. وكتبت حكومة الهند رسالة عنيفة إلى هينس تأمره بألا يكتفي بتهديم مدينة أو اثنتين بالقرب من الساحل بل عليه أن يحمل السلاح إلى داخل البلاد وينزل بقبائل أبين، أهل فضل، أشد أنواع العقاب في أشخاصهم وممتلكاتهم على ألا يكون ذلك التصرف منافياً للأعمال الإنسانية! وقالت حكومة الهند إنها لا تستطيع أن ترسل إليه بتعزيزات من الجند قبل مضي شهرين، ولذلك فعليه أن يستخدم الجنود الموجودين في عدن.

وبينما هينس يعد العدة لتنفيذ الأمر وصلته رسالة من اللجنة القومية بلندن ترفض فيها القيام بأي تقدم إلى البر إلا في حالة الضرورة القصوى. وعبّرت اللجنة عن رغبتها في تحسين العلاقات مع سلطان أبين من دون استخدام العمليات العسكرية. وبناء على ذلك توقف هينس عن تنفيذ الأمر السابق.

ومع ذلك فقد كتب هينس رسالة إلى سلطان أبين يهدد فيها بإنزال العقاب الرادع إن امتنع السلطان عن تسليم قاتل الكابتن ميلن الذي لجأ إلى بلاده. وتسلم هينس معلومات تفيد بأن السلطان الفضلي اعتبر هينس متفاخراً لا يستطيع أن ينفذ تهديده. وكان هينس إزاء ذلك يحس بأن ذلك التباين في سياسة حكومة الهند وحكومة لندن يضر بكرامة بريطانيا في هذه البلاد. وبالرغم من مقدرة هينس العسكرية والسياسية فقد أخطأ بإصراره على تسليم قاتل الكابتن ميلن لأن شهامة العربي تمنعه من تسليم الشخص الذي يلتجئ إليه فمثل هذا اللاجئ يعتبر ضيفاً لا يجوز تسليمه مهما كان ذنبه.

لم يسع هينس إلا أن ينفذ ما تخوله له السلطات فشدد الحصار على بيرأحمد ونواحيها من أرض العقارب وعلى ميناء شقرة التابع للسلطان الفضلي كما أمر بطرد أهل فضل والعقارب من عدن.

وفي ذات الوقت قام هينس بتأسيس علاقات ودية مع القبائل المجاورة لسلطنة الفضلي وهي قبائل يافع والعوالق في سنة 1854م. واتبع سياسة فرق تسد فسلط السلطنات بعضها على بعض وأشعل الفتنة بينهم. وفي نهاية سنة 1855م وصل سلطان لحج علي محسن فضل والسلطان الفضلي إلى اتفاق لإزالة سوء التفاهم بينهما. وعبر الفضلي عن رغبته في مسالمة حكومة عدن وأعلن أنه قد طرد قاتل الكابتن ميلن من بلاده ووعد بالمحافظة على الأمان في الطرق المؤدية إلى عدن.

وكانت حكومة عدن ترغب في إنهاء حالة التوتر القائمة بينها وبين السلطان الفضلي فأسرعت بالموافقة على عقد الاتفاق، فرفعت الحصار عن ميناء شقرة وسمحت لأهل فضل بالدخول إلى عدن. أما مسألة إعادة الراتب للسلطان فقد تأجل البحث فيها حتى تشعر حكومة عدن بأن السلطان كان حريصاً على الوفاء بتعهداته.

وكان السلطان علي محسن فضل العبدلي هو الباعث والمسبب لذلك الاتفاق ولكنه حينما أحس بتحسن العلاقات بين حكومة عدن وأهل فضل استولت عليه الغيرة، وعمل سرياً على عرقلة الأمور، أما في العلن فكان يتظاهر بالعمل على تحسين العلاقات.

وفي سنة 1856م كانت العلاقات بين العبادل وأهل فضل سيئة وكان كل فريق يغير على أراضي الفريق الآخر، إلا أن السلطان الفضلي لم يتعرض للطرقات المؤدية إلى عدن رغم أنه لم يتسلم راتبه من حكومة عدن... وفي النصف الأخير من السنة المذكورة وقعت معاهدة بين السلطانين وجاء السلطان علي محسن فضل إلى عدن ليحيط حكومتها علماً بمواد الاتفاق.

في يناير سنة 1858م كتب السلطان علي محسن فضل رسالة بعث بأنقال منها إلى مساعد المقيم السياسي وإلى عدد من ضباط الحامية وأيضا إلى قسيس إنكليزي اسمه بادجر Rev, Badger وفي تلك الرسالة اتهم السلطان حكومة عدن بخرقها لمواد المعاهدة بينه وبين الإنكليز وبالظلم والضغط ومساعدة أعدائه، وأختتم السلطان رسالته قائلاً: (بعد أن شرحت لكم كل هذا فإنني أشهدكم

على أنني لست الملوم أمام حكومتكم، وبما أنني قد كتبت رسالة إلى صديقنا اللورد إلفنستون Lord Elphinstonè وإلى حكومة بمبي دون أن أتسلم رسالة مباشرة فقد قررت أن أمنع رعاياي من دخول عدن وأن أغلق حدودي حتى تعود الحكومة إلى رشدها.

وفي أوائل شهر فبراير قدم سلطان أبين الفضلي ثلاث شكاوى لحكومة عدن مفادها أن رعايا السلطان علي محسن فضل نهبوا رعاياه في الطريق وأن أحد أهل فضل قد قتل في إحدى تلك المناسبات.

وطلبت حكومة عدن تعويضاً من سلطان لحج وإعادة المواد المنهوبة، وفي حالة الرفض ستضطر حكومة عدن إلى قطع جميع علاقاتها. وكانت إجابة السلطان علي محسن فضل أنه أطلق سراح قاتل الرجل الفضلي كما أنه أعتبر هجمات رعاياه على رعايا الفضلي تصرفات عادلة انتقاماً من أهل فضل على الهجمات السابقة التي قاموا بها ضد رعاياه.

وبعد أيام قلائل وصلت إلى حكومة عدن شكوى من أن السلطان علي محسن فضل قد استولى على حمولة من البن يقدر ثمنها بستمائة روبية يملكها أحد رعايا بريطانيا بينما كانت الشحنة في طريقها إلى عدن من البر، وكانت حجة السلطان على ذلك العمل أن مالك الشحنة كان مديناً للسلطان، ورأت حكومة عدن أن السلطان كان ملتزماً بموجب شروط المعاهدة بأن يحيل مثل تلك الأمور إلى المقيم البريطاني.

واعتبرت حكومة عدن تصرفات السلطان تعدياً صارخاً على الممتلكات البريطانية وسخرية بالسلطات البريطانية، ولذلك فقد أرفق المقيم السياسي طلبه بمذكرة نهائية تقضي بأنه مالم تجر إعادة الشحنة فإن الحكومة ستتوقف عن الاتصال به مرة أخرى. ورفض السلطان أن يعيد الشحنة وغيرها من الشحنات التي سبق نهبها، فنفذت حكومة عدن تهديدها وقطعت جميع المواصلات وامتنعت عن دفع راتب السلطان.

ومنع السلطان رعاياه من إرسال أي تموينات إلى عدن واستولى على عدة قوافل تحمل شحنات من البن يملكها تجار من أهل عدن بعد أن كان السلطان قد حصل على الضرائب عليها.

هجوم الإنكليز على الشيخ عثمان:

في شهر مارس سنة 1858م قدم السلطان علي محسن فضل إلى الشيخ عثمان وأمر بردم آبارها حتى جعلها لا تخرج من الماء إلا ما يكفي أهالي الشيخ عثمان.

ذكر الكابتن بليفير أن هذه التصرفات لم يعد في الإمكان احتمال المزيد منها وأن المقيم السياسي الذي لم يأل جهداً في سبيل الوصول إلى حالة سلام لم يجد بدا من اتخاذ إجراءات حازمة، وعليه فقد تقدمت في 18 مارس حملة مكونة من المدفعية والمشاة تصحبها فرقة من بحارة الأسطول الحربي الراسية في الميناء بقيادة المقيم السياسي والحاكم البريجادير كوجلان. ولم تصادف الحملة أي مقاومة حتى وصلت إلى مسافة ميلين من القرية حتى أطلق المدافعون النيران من وراء الشجيرات. فتوقفت الحملة ثم قامت فرقة بتطويق المدافعين من الجناحين تساندها المدفعية والفرسان... وكشفت هذه العملية حوالي خمسمائة رجل بقيادة الأمير فضل بن محسن شقيق السلطان علي محسن. وكان بعضهم مشاة وأغلبهم يمتطون الجمال. ودافع هؤلاء الرجال عن مواقعهم بشجاعة ومهارة ولكنهم اضطروا إلى الانسحاب بعد ساعة واحدة بسبب النيران المركزة التي كانت تنفجر بينهم... ثم تقدم كوجلان نحو الحصن والقرية فوجدهما خاليين.

وتركز المدافعون على مبعدة من القرية، وفي حوالي الساعة العاشرة وصلت إمدادات من لحج فانتشروا ليصدوا أي هجوم قام به الإنكليز. وبعد قليل طلبوا هدنة للتفاوض. ولما استجاب المقيم السياسي لذلك الطلب وصل إليه ثلاثة من رجال السلطان وتكلموا بالنيابة عنه طالبين بأن تتوقف جميع الأعمال العدائية وأكدوا للمقيم بأن جميع مطالبه ستكون مستجابة وأنهم مستعدون للقدوم إلى عدن لتثبيت ذلك التأكيد.

وافق المقيم السياسي على رجاء العبادل، وبعد أن أمر الجند بقصف الحصن والقرية بالبارود الموجود فيها أمر بالانسحاب إلى عدن... ولم تفقد الحملة أي فرد من رجالها بينما فقد السلطان بين ثلاثين وأربعين رجلاً.

وفي اليوم التالي وصلت كميات وافرة من التموينات إلى عدن من لحج، وقدم الأمير فضل محسن ليضع أسس الاتفاق التي كان من بينها قبول مطالب المقيم السياسي.



أحد مساجد مدينة الشيخ عثمان

وصف الأمير أحمد فضل العبدلي في كتابه (هدية الزمن) هذه الوقعة بقوله: (وفي سنة 1274هـ حدثت حوادث مكدرة بين حامية الشيخ عثمان من طرف السلطان علي وحكومة عدن، فأرسلت حكومة عدن فرقة من جيشها في سنة 1275هـ وهدمت دار السلطان في الشيخ عثمان. وكان السلطان فضل محسن يومئذ أمير الشيخ عثمان من قبل أخيه، وبعد معركة قصيرة انهزم إلى جهة الرباط، وأغار السلطان والعبادل، ولما التقى بأخيه ومن معه جعلوا محطتهم بالقرب من الشيخ عثمان، فتخابر السلطان والقائد البريطاني فتهادنوا ثم تصالحوا واستدامت الصداقة والمصالحة من تلك السنة.

ثم قال الأمير أحمد فضل العبدلي في كتابه: (حدثني السيد علوي بن حسن الجفري قال حدثني السلطان فضل بن علي قال: كنت يومئذ شابا في عسكر عمي فضل محسن في الشيخ عثمان فلما تراجعنا منهزمين جاء والدي والعبادل ومعهم السادة أهل الوهط، وبعد سويعات جاءنا صلاح العزيبي رسولاً من قبل

القائد البريطاني يعرض علينا المسالمة والهدنة ، فلما بلغ السادة الأوحاش (الأوحاش لقب السادة الذين ينتمون إلى السيد أبوبكر بن محمد الوحش الوهطي) ذلك صاحوا في الناس بالجهاد الديني وتحمسوا جداً واستنكروا رأي والدي في قبول الصلح سراً وأظهر أنه رده، وأشار على صلاح العزيبي أن يرجع إلى القائد البريطاني رفض المسالمة وأن القائد أمر الجنود البريطانية والهندية بالزحف على الوهط غداً . ففعل صلاح العزيبي ذلك واجتمعوا حول والدي وقالوا: (يا سلطان إن في الوهط نساء شريفات وأطفالاً للسادة، قم واسع في طلب الصلح والمهادنة مع هؤلاء النصارى فإن الله يأخذ بيدك إن شاء الله. وعند ذلك أعلن والدي الهدنة وانتهى الأمر.

فوضى السلطنة في لحج:

في شهر ربيع الأول سنة 1279هـ (1862م) توفي محسن فضل فخلفه أبنه السلطان فضل علي محسن. وفي عهده اشتد النزاع بين أعمامه عبد الله محسن وفضل محسن ومحمد محسن وابن عمه فضل بن أحمد محسن. ولم يحتمل السلطان تلك الخلافات فاضطربت الأمور فاستولى على الحكم عمه فضل محسن وهنا وقع النزاع بين الأخوين السلطان فضل محسن وأخيه عبد الله محسن وحدثت بعض المعارك بين أنصار الفريقين ولكن الأمر استتب لفضل محسن.

معاهدة بين حكومة عدن ومشيخة العقارب:

في سنة 1279هـ (1863م) وقعت اتفاقية بين حكومة عدن والشيخ عبدالله بن حيدرة بن مهدي العقربي شيخ مشيخة العقارب هذا نصها:

[illegible]

إن الغرض من كتابة هذا التعهد الشرعي أنه قد جرى التعهد والاتفاق بين الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي شيخ قبيلة العقارب من الجهة الأولى والبريجادير وليم مرقس كوجلان والي عدن بالنيابة عن صاحبة الجلالة ملكة إنكلترا من الجهة الأولى، بأن الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي تكفل بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن ورثته وخلفائه بهذه الاتفاقية بأن لا يبيع أو يرهن أو يؤجر

إلا للحكومة البريطانية أي جزء من شبه جزيرة جبل إحسان بما في ذلك خور بير أحمد والغدير وبندر فقم وكل الساحل التابع والمداخل.

وكثمن لهذا العمل الودي فإن المذكور الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي استلم من البريجادير وليم مرقس كوجلان والي عدن دفعة نقدية مقدارها ثلاثة آلاف ريال وأيضاً سيتسلم من المذكور البريجادير وليم مرقس كوجلان أو خلفائه في المستقبل راتباً شهرياً مقداره ثلاثون ريالاً، وليكن معلوماً أن هذا الراتب يتطلب ارتباط الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي وخلفائه بحماية التجار ورعايا بريطانيا الذين يعبرون أو يسكنون في منطقته، وأيضاً المحافظة على شروط السلام والصداقة بين قبيلة العقارب ووالي عدن ممثل صاحبة الجلالة ملكة إنكلترا.

وللشهادة على هذه المعاقدة فإن البريجادير وليم مرقس كوجلان والشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي يوقعان منفردين على هذا في يوم الجمعة 23 يناير سنة 1863م الموافق لليوم الثالث من شعبان سنة 1279هـ.

إمضاء: عبد الله بن حيدرة مهدي

إمضاء: و. م. كوجلان، بريجادير

المقيم السياسي في عدن

بحضور

إمضاء: محمد بن حيدرة

إمضاء: علوي بن زين العيدروس

إمضاء: عيدروس بن زين

إمضاء: هـ. رسام (مساعد المقيم السياسي في عدن)

هجوم الإنكليز على أبين:

في سنة 1282هـ الموافق سنة 1865م قام السلطان أحمد بن عبد الله الفضلي بأعمال عدائية ضد حكومة عدن وضد سلطنة لحج. فجهزت حكومة عدن قوة تتألف من أربعة مدافع وعشرين أوروبياً وثلاثين هندياً من رجال المدفعية ومئتي جندي من الفرقة رقم 109 الإنكليزية وثلاثمائة هندي من المشاة بقيادة الكرنل ولكومب Col. Wolcombe وتقدمت هذه القوة يرافقها المقيم السياسي السر وليم ميرويذر Sir Wiliam Mereweather نحو بير سعيد حيث كان يعسكر

رجال السلطان أحمد بن عبدالله فتمكنت من قهرهم ثم سارت نحو العصلة والكور وعمودية وهدمتها ثم عادت القوة إلى عدن بعد أحد عشر يوماً. أما شقرا فقد حاصرتها سفن الأسطول وقصفت حصونها. واضطر السلطان إلى التوقيع على معاهدة في شهر مايو سنة 1867م التزم فيها بأن يمتنع عن القيام بقطع الطرق ونهب القوافل وأن يحافظ على السلام مع جيرانه وأن يقدم رهينة!

ذكر الأمير أحمد فضل (أن السلطان فضل محسن ورجاله العبادل رافقوا العساكر البريطانية إلى أبين ونال السلطان من الدولة البريطانية ثمانية آلاف ريال مكافأة له على تقديمه العلف ووسائل النقل للعساكر البريطانية التي خرجت لقتال الفضلي. وفي سنة 1287هـ (1870م) توفي السلطان أحمد بن عبد الله الفضلي.

جلب الماء من الشيخ عثمان إلى عدن:

في سنة 1284هـ (1867م) وقع اتفاق بين سلطان لحج فضل محسن وحكومة عدن على بناء قناة تمتد من اثنتين من أحسن آبار الشيخ عثمان إلى عدن فيتدفق الماء في القناة ليصل إلى صهاريج كبيرة في المعسكرات ثم يوزع على فرق الجيش والهيئات. وكان الأهالي يحصلون على كميات محدودة من ذلك الماء بسعر ربية واحدة لكل مائة جالون، وكان الماء الذي يوزع على الأهالي لا يصلح إلا للغسيل.

وكان السلطان يحصل على نصف الفائدة من ثمن الماء وتبلغ حصته ألفا ومائتي روبية في الشهر، وكان السلطان فضل محسن لذلك حريصا على حماية البئرين. وكلفت القناة حكومة عدن مبلغ 933 و 296 (مائتين وستة وتسعين ألفا وتسع مائة وثلاث وثلاثين روبية).

شراء الإنكليز لأرض العقارب:

لم تقتنع الحكومة البريطانية بالمعاهدات والارتباطات السابقة مع شيخ العقارب، فبعثت بتعليمات للمقيم السياسي في عدن ليعمل بدون تحفظ على الحصول حصولاً كاملاً على شبه جزيرة عدن الصغرى التابعة لمشيخة العقارب، فأجرى المقيم السياسي مفاوضات استعمل فيها الترغيب والترهيب حتى اضطر الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي إلى الرضوخ فوقع على المعاهدة التالية:

إن سبب كتابة هذه الاتفاقية هو ما يلي:

إن معاهدة وتعاقداً قد وقعا بين الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي شيخ قبيلة العقارب من الجهة الأولى، والجنرال السر إدوارد رسل المقيم بعدن بالنيابة عن الحكومة البريطانية الموقرة من الجهة الأخرى.

وذلك أن المذكور أعلاه الشيخ عبدالله بن حيدرة مهدي من جهته يلتزم بموجب محتويات هذا الاتفاق بأنه قد باع وسلم مؤبداً للحكومة البريطانية شبه الجزيرة المسماة جبل إحسان التي تشمل جبل إحسان وخور بير أحمد والغدير وبندر فقم وكل ما يحتويه الساحل من مراسٍ وموانئ بين خور بير أحمد المذكور وبندر فقم.

وبالإضافة إلى ذلك فإن المذكور عبد الله بن حيدرة مهدي يربط نفسه وورثته وخلفاءه بهذه الاتفاقية بأن لا يبيع أو يرهن أو يسلم لأي أحد للسكن فيما عدا للدولة البريطانية أي جزء من جبل رأس عمران أو الأرض الواقعة في حدود الخور بين رأس عمران وجبل إحسان أو حسان.

وكثمن لما هو مذكور أعلاه فإن الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي استلم من الجنرال السر إدوارد رسل المقيم السياسي بعدن مبلغ ثلاثين ألف ريال (كراون ألماني) وذلك قيمة البيع الذي وافق عليه الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي، وهذا المبلغ وقدرة ثلاثون ألف ريال هو زيادة على مبلغ الثلاثة آلاف ريال التي قدرها وسلمها البريجادير وليم مرقس كوجلان للشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي بتاريخ 23 يناير سنة 1863م بموجب المعاهدة المعقودة في ذلك التاريخ وقد جرى التسليم الوافي للثلاثة آلاف ريال للمذكور الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي.

وللشهادة على شروط هذه المعاهدة التزم الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي بوفاء وإخلاص بالنيابة عن نفسه وورثته وخلفائه بخصوص البيع والجنرال السر إدوارد رسل المقيم في عدن بالنيابة عن الحكومة البريطانية الموقرة بخصوص الشراء فإن الطرفين يضعان إمضاءيهما وختميهما في عدن في اليوم الثاني من أبريل سنة 1869م الموافقة 21 ذي الحجة سنة 1285هـ.

إمضاء: عبد الله بن حيدرة مهدي

إمضاء: أ. ل. رسل، ميجر جنرال

(المقيم في عدن)

بحضور الشهود:
إمضاء: علوي بن زين العيدروس
إمضاء: الكابتن ج. ر. جودفيلو
(مساعد المقيم في عدن)

مواد معاهدة ومعاقدة بين الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي والسر إدوارد رسل المقيم في عدن بأن الاحترام والتشريف اللائقين لعبد الله بن حيدرة مهدي يجب استمرارهما وأنه ابتداء من التاريخ الحالي فإن مبلغ عشرة ريالات سيضاف إلى الثلاثين ريالاً الراتب الحالي فيكون المبلغ أربعين ريالاً في الشهر. وأن عبد الله بن حيدرة مهدي سيسمح له بتحصيل عوائد النقل على كل ما يفرغ من البنادر التي باعها اليوم بناء على معاهدة مع السر إدوارد رسل بالنيابة عن حكومة بريطانيا إذا كانت البضائع بعد تفريغها تعبر في أراضيه - أي بير أحمد وأيضاً إذا كانت هنالك أي مطالب للسلطان فضل أو للسلطان أحمد الفضلي بخصوص بير أحمد فإن المقيم سيبحثها بنفسه. وقد جرى الاتفاق على هذا في 2 أبريل سنة 1869م الموافقة 21 ذي الحجة سنة 1285هـ.

إمضاء: أ. ل. رسل، ميجر جنرال
(المقيم في عدن)
إمضاء: عبد الله بن حيدرة مهدي

بحضور الشهود:
إمضاء: علوي بن زين العيدروس
إمضاء: عيدروس بن زين العيدروس
إمضاء: الكابتن ج. ر. جودفيلو
(مساعد المقيم في عدن)

بحضور الشهود:
إمضاء: علوي بن زين العيدروس
إمضاء: عيدروس بن زين العيدروس
إمضاء: ج. ر. جودفيلو (مساعد المقيم السياسي في عدن)

بين العقارب والعبادل:

كان مدخول أرض العقارب من العوائد والعشور يبلغ حوالي ألفي ريال في السنة، وستمائة ريال على الأموال التي تعبر في أرض العقارب بطريقة الترانزيت.

ثم وقعت منازعات بين العقارب والعبادل وألقى الشيخ عبدالله بن حيدرة مهدي القبض على عدد من رعايا سلطان لحج، واشتبك الفريقان في معارك دامت أشهرا.

وأخيراً ركز سلطان لحج عساكرة في أمعوجة والسيلة وبير نعمة وبير جامع وبير رباك وأمدريمية وبير هادي وبير فضل، وبهذا تم حصار بير أحمد، ثم اقتحم فرسان العبادل بير أحمد وأحرقوا جانباً منها. ورغم ذلك فقد ثبت العقارب وقاوموا عسكر السلطان.

وأخيراً رأى سلطان لحج أن يحارب العقارب بطريقة أخرى غير القتال، وهي الحرب الاقتصادية، فسلط عليهم قبائل الأصابح الذين نهبوا أموال العقارب ومواشيهم ومنعوا عنهم المراعي. وحول السلطان ماء الوادي الكبير عن بير أحمد كما حول طريق القوافل من بير أحمد إلى الوهط. وكانت تلك الطريقة أشد على العقارب من القتال فقد رأوا أنهم فقدوا أموالهم ومواشيهم وأحرقت بلادهم وصرف عنهم الماء وحولت عنهم طريق القوافل، فحرموا من العشور التي كانوا يحصلون عليها فساءت أحوالهم، واضطر الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي إلى طلب الصلح وأرسل إلى السلطان بالرهائن الذين كان من بينهم بعض أعيان العقارب.

واستمر عساكر السلطان في البقاء في بير أحمد حتى توسطت حكومة عدن بين الفريقين فانتهت حالة الحرب وانسحب العبادل من بير أحمد.

بين الحواشب والعبادل:

في سنة 1285هـ (1868م) كانت الأحوال متوترة بين الحواشب والعبادل، وجهز السلطان فضل محسن أخاه محمد محسن إلى (الراحة) فاستولى عليها وهدم دار الدولة فيها كما استولى على (زايدة) و (الشقعة) ثم جاء السلطان علي مانع الحوشبي إلى لحج واصطلح مع السلطان فضل محسن وباع عليه زايدة والشقعة بسبعة آلاف ريال.

بين الإنكليز وقبائل الصبيحة:

في سنة 1287هـ (1870م) قامت جماعة من قبيلة المناصرة وهي فرع من قبائل الصبيحة بنهب القوافل، فتوجهت سرية من الفرقة العدنية (أيدن تروب) Aden Troop نحوهم وتمكنت من إيقاع الهزيمة بهم بعد أن قتلت ثمانية وأسرت اثنين.

وبعد أيام قليلة من وقوع ذلك الحادث قدم إلى عدن ثلاثة من رؤساء الصبيحة وعقدوا اتفاقاً مع حكومة عدن على أن تدفع لثلاثتهم مبلغ خمسة وتسعين ريالاً في الشهر مقابل تأمينهم للطرق التي تمر في أراضيهم، وأن تكون القوافل المارة بتلك الطرق معفية من الضرائب.

قدوم الأتراك على اليمن:

في أواخر سنة 1872م (1289هـ) كان الأتراك العثمانيون قد توغلوا في داخل اليمن ووصلوا إلى مقربة من نواحي عدن حيث بدأوا يستحثون الأمراء والسلاطين والمشايخ على الثورة على الإنكليز والتسليم للباب العالي العثماني. وكان سلطان الحواشب يرغب في استعادة الأراضي التي كان السلطان فضل محسن قد انتزعها منه بطريق الشراء وهي زايدة والشقعة، وكان واثقاً من أن حكومة عدن لن تقف في جانبه فاتصل بالعثمانيين أملاً منه في استعادة أراضيه بواسطتهم، واستجاب العثمانيون لرجائه واستولوا على زايدة.

وفي الحال اتصلت الحكومة البريطانية بالباب العالي العثماني، فأكد الباب بأن الأوامر ستصدر للجنود العثمانيين بالانسحاب. ولكن مضت الأيام ولم ينسحبوا.

وأجبر العثمانيون سلطان منطقة العلوي على الخضوع لهم. وألقوا القبض على أمير الضالع علي بن مقبل وبعثوا به أسيراً إلى اليمن.

الأتراك في لحج:

كان الأمير عبد الله محسن فضل يطمح إلى السلطنة فأرسل إلى الأتراك في تعز ولده فضل وابن أخيه فضل عبد الكريم داعياً إياهم إلى احتلال داره الحصينة (دار عبد الله) في الحوطة. وقبل الأتراك الدعوة. ولما علم السلطان فضل محسن بذلك أمر ابن أخيه فضل بن علي بأن يترصد مكامن الطرق التي

يظن أن الأتراك سيمرون بها فإذا أقبلوا فعليه أن يقتلهم جميعاً. وأدرك الأمير عبد الله محسن الأمر فاتصل بالأتراك ليلاً من طريق آخر ووصل بهم إلى الحوطة فدخلوا دار عبد الله وتحصنوا بها، ثم طلبوا من السلطان فضل محسن أن يعلن ولاءه للباب العالي العثماني. وأرسل السلطان إلى حكومة عدن طالباً النجدة.

وبعثت حكومة عدن إلى حكومة الهند بتقرير وطلبت التعليمات، فأمرت حكومة الهند والي عدن بأن يقدم المساعدة للسلطان ولكن على ألا تشترك حكومة عدن بالهجوم على الأتراك، فجهزت الحكومة ثلاثمائة وخمسين جندياً تصحبهم المدفعية وفرقة الفرسان والمشاة بقيادة الكرنل مكنزي Col. Mackenzie ورافقهم المقيم البريطاني البريجادير جنرال شنايدر. Brigdier – General. J. W. Schneider.

واحتلت هذه الحملة سلطنة لحج، ولكن الأتراك رفضوا الانسحاب من دار عبد الله.

وفي نفس الوقت وصلت إلى ميناء عدن سفينتان حربيتان تركيتان تحملان ألفا ومائتي جندي لتدعيم القوة التركية الموجودة بجوار عدن، ولم تغادر السفينتان الميناء إلا بعد قدوم السفينة الحربية البريطانية (وولفراين Woolverine).

وبعد اتصالات بين الحكومة البريطانية والباب العالي انسحب الأتراك من الحوطة. وسلم الأمير عبد الله محسن وابنه وأخوه عبد الكريم أنفسهم، فأرسل بهم السلطان إلى عدن فسمحت لهم حكومة عدن بالسفر إلى المخا.

وتقدمت الحملة البريطانية في أرض الحواشب ففر السلطان علي بن مانع وأعادت حكومة عدن منطقة زايدة إلى سلطنة لحج. وبعد أيام قدم السلطان علي بن مانع إلى عدن وسلم نفسه فأطلقت الحكومة سراحه.

وأعاد سلطان منطقة العلوي علاقاته الودية مع حكومة عدن، فألقى الأتراك القبض على ابنه وقيدوه وأبقوه رهينة عندهم عدة أشهر ولم يطلقوا سراحه إلا بعد اتصالات جرت بين الحكومة البريطانية والباب العالي.

معاهدة زايدة:

في سنة 1291هـ (1874م) توفي السلطان فضل محسن فضل فتولى السلطنة ابن أخيه فضل بن علي محسن.

وعاد النزاع بين السلطان علي مانع الحوشبي والسلطان فضل بن علي حول زايدة، وتوسطت حكومة عدن بين الفريقين فعقد الطرفان معاهدة زايدة في 7 جمادي الآخر سنة 1298هـ (1881م) رضى فيها السلطان علي مانع بأن تكون له ولورثائه وخلفائه ثلاثمائه ضمد من أرض زائدة لزراعتها، وأن يبني لنفسه دارا في العند ويقبل السلطان فضل بن علي محسن بأن يعطيه خمسمائة ريال لذلك الغرض.

أمير الضالع:

كان أمير الضالع علي مقبل قد تمكن من الفرار من أسر الأتراك، ولكنه حينما عاد إلى بلاده وجد الأتراك قد نصبوا مكانه الأمير محمد مساعد بالرغم من تأكيدات الباب العالي بعدم التدخل في شؤون الضالع في سنة 1275م.

وفي أواسط تلك السنة أعلن محمد بن مساعد خروجه عن طاعة الأتراك وفر من الإمارة، فأعادت السلطات التركية الأمير علي مقبل إلى الحكم.

حكومة عدن تشتري الشيخ عثمان من سلطان لحج

في سنة 1295هـ (1878م) كتبت حكومة عدن رسالة إلى سلطان لحج فضل ابن علي محسن فضل استهلته بالجملة التقليدية (إلى قدوة الأمراء الكرام وعمدة النجباء الفخام محبنا وصديقنا الجناب العالي السلطان فضل بن علي محسن). ثم ذكرت حكومة عدن في رسالتها ما يأتي:

(إن الضرورة داعية الآن أن نفاوض السلطان فضل بن علي محسن وعمه الوزير النافذ الكلمة محمد محسن بأن الضرورة كلفتنا أن نشغل بالكم بطلب هذه الشقة الصغيرة الضرورية لصيانة المرسى فيلزم أن يمتد خط الحدود من الحسوة إلى العماد، ولو لا أن ذلك ضروري جداً لصلاحية الميناء لما أزعجنا أصدقاء مثلكم بهذا الطلب، ولا بد أن جنابكم وجناب عمكم تعلمون هذه الضرورة، وأن هذه المحلات من حدود بندر عدن اللازمة والتابعة للمرسى في كل

آن، غير أن سياسة الدولة اختارت مسايرة أسلافكم نظراً لعدم اختبارهم بحسن نوايا الدولة بخلاف ما لسموكم وجناب عمكم من الإدراك الكلي).

كان السلطان فضل بن علي محسن يفوض عمه محمد محسن ليمثله وينوب عنه في المباحثات، وكان نفوذ محمد محسن على ابن أخيه عظيماً.. وحين وصلت رسالة حكومة عدن كان السلطان مريضاً - أو متمارضاً - فبعث بعمه على رأس وفد يتألف من:

1- السيد عمر بن حسين بن محمد الوحش قاضي لحج.
2- الأمير أحمد بن علي محسن.
3- الأمير أحمد فضل محسن.
4- الأمير منصر بن محسن فضل.

وكان وفد حكومة عدن يتألف من والي عدن الميجر جنرال السر فرانسيس لاك Sir Francis Lack ومساعد والي عدن الميجر إف. إم. هنتر Major F. M. Hunter.

وكانت المفاوضات طويلة وودية وانتهت بعقد معاهدة بين الفريقين يبيع الجانب اللحجي بموجبها منطقة الشيخ عثمان للحكومة البريطانية. وهذه هي صيغة المعاهدة:

بسم الله الرحمن الرحيم

شروط معاهدة واقعة بين السلطان فضل بن علي محسن سلطان لحج ونواحيها من طرف نفسه وأعمامه وورثائه وورثائهم وخلفائه وخلفائهم من جهة، والميجر جنرال فرانسيس لاك - كوماندر أوف ذي موسنت أونرابل أوردر أوف ذي باث - والي عدن من طرف حكومة الهند من الجهة الأخرى.

حيث في الشرط الخامس من المعاهدة المعقودة في تاريخ 7 مارس سنة 1849 ميلادية بين ستافورد بتسورث هينس قبطن من الرؤساء البحرية الهندية ووكيل بعدن من طرف حكومة الهند، والسلطان علي محسن من طرف نفسه وورثائه وخلفائه، حصل التراضي بينهما أن قنطرة خورمكسر والميدان الذي في وسطه وجبال عدن وهي جبل حديد ملك للدولة البريطانية ولا زيادة إلى الشمال.

وحيث إن مبلغ دراهم وقدرها خمسمائة وواحد وأربعون ريالاً بموجب المعاهدة السابقة تسلم للسلطان علي محسن فضل المذكور وورثائه وخلفائه ما داموا

يسيرون بالإخلاص والصدق والمحبة نحو الدولة البريطانية ومتمسكين بكل تأكيد بشروط المعاهدة المذكورة.

وحيث إن السلطان فضل بن علي محسن لأجل نفسه وأعمامه وورثائه وورثائهم وخلفائهم رضوا أن يبيعوا للدولة البريطانية بمبلغ وقدره خمسة وعشرون ألف ريال وزيادة فوق المشاهرة الحاضرة التي هي خمسمائة وواحد وأربعون ريالاً شهرياً مبلغ ألف ومائة ريال شهرياً، من ذلك ستمائة ريال مقابلٍ محصول الماء وخمسمائة ريالٍ مقابل محصول الملح، وتكون الجملة للجميع ألفاً وستمائة وواحداً وأربعين ريالاً قيمة جميع الأرض الممتدة إلى شمال جزيرة عدن يحدها خط يبدأ من محل ساحل البحر ميلا واحداً وخمسة أقسام الميل من 16 قسماً إلى جهة الشرق رأساً من شمالٍ آخر جسر خورمكسر، ويمتد من شمال شرقي الشمال سبعة أميال وربعاً إلى طرف خط الساحل، فمن هذا المكان يمتد الحد من البحر إلى جهة الغرب ثلاثة أميال وربعاً إلى محل قريب العماد، ومن هذا المحل بعد ما يمر الحد وسط الطرف الخيالي بميل واحد من جهة الشمال من ولي الله الشيخ عثمان يمتد إلى العلامة التي على شاطئ وادي تبن الكائنة على بعد منٍ جهة البر، ومن هذه العلامة يمتد الحد إلى جنوبي غربي طرف الجنوب بحرا.

فلذلك، هذا يثبت أن السلطان فضل بن علي محسن المذكور بموجب شروط هذه المعاهدة وبسبب الخمسة وعشرين ألف ريال التي قد سلمت، وزيادة المشاهرة شهرياً ألفاً ومائة ريال رضيت الدولة البريطانية بتسليمها له، ولذلك لأجل نفسه وأعمامه وورثائه وورثائهم وخلفائه وخلفائهم يعطي ويثبت التمليك إلى يد الدولة البريطانية جميع أقسام تلك البلدة التي ذكر وصفها أعلاه أن تبقى بيد الدولة البريطانية مؤبداً كقسم من بلدانها، والمذكور السلطان فضل بن علي محسن يربط نفسه وأعمامه وورثاءه وورثاءهم وخلفاءه وخلفاءهم ألا يقيموا دعوى من الآن وصاعداً على الأرض المذكورة وأي محصول منها.

البند الثاني: والميجر جنرال فرانسيس لاك سي. بي. أي. والى عدن المذكور مفوض تفويضاً كلياً، فلذلك يشهد عهد الله باسم سعادة والى الهند. ورأى المجلس العالي أن للسلطان فضل بن عليٍ محسنٍ المذكور وورثائه وخلفائه مبلغاً قدره ألف وستمائة وواحد وأربعون ريالاً شهرياً المجملة كما ذكر أعلاه.

البند الثالث: والسلطان فضل بن علي محسن المذكور من جهة والميجر جنرال فرانسيس لاك سي. بي. أي. والى عدن من الجهة الأخرى مفوضان تفويضاً كلياً بأن المعاهدة الواقعة والمصححة في سابع يوم من شهر مارس سنة 1867 ميلادية الخاصة بالعتم الذي بين الشيخ عثمان وعدن من السلطان فضل محسن من جهة واللفتننت كرنل وليم ميرويذرمن جهة أخرى، أن تلك المعاهدة صارت غير ذات مفعول.

البند الرابع: مادام لسلطان لحج أن يأخذ المكوس على الأموال الداخلة إلى عدن من جهة البر كما كان فسيرخص له أن يجمع مكوسه كما هو الآن مستمراً عليها في حد الدولة البريطانية بالقدر المذكور في المعاهدة الواقعة سنة 1849 ميلادية.

البند الخامس: إذا فر أحد من عساكر السلطان إلى حدود الدولة البريطانية ثم طلبه السلطان فإن والي عدن سيرسل به إلى لحج، وإذا فر أحد من رعايا السلطان بعد ارتكابه المعصية العظمى التي تعتاد الدولة البريطانية في مثل هذه الأحوال أن توافق على تسليم لاجئين كهؤلاء إذا كانوا في الشيخ عثمان والعماد أو عدن عند طلب السلطان وإذا كانت الدولة البريطانية قد اقتنعت بصحة ارتكابه للجريمة فوالي عدن سيرسل به أيضاً، والسلطان يوافق من طرف نفسه أن يرجع عساكر الدولة البريطانية أو رعاياها الذين يلتجئون من عدن وتوابعها إلى لحج ونواحيها إذا طلب رجوعهم.

البند السادس: إذا احتاج الوالي إدخال أحد في الخدمة من العبادل يكون إدراجه بمعرفة السلطان، وإذا استعفى العبدلي أو العبادل أو رفتوا من الخدمة وإذا رغب الوالي استبدالهم بغيرهم من العبادل فإن الوالي سيطلب ذلك من السلطان.

البند السابع: تكون حدود السلطان فضل بن علي محسن فضل المذكور وورثائه وخلفائه من الآن وصاعداً بحماية الدولة البريطانية كما هي الآن.

حررت في الشيخ عثمان في نهار الاثنين تاريخ 6 من شهر فبراير سنة 1882م المطابق 17 من شهر ربيع الأول سنة 1299هـ.

إمضاء: فضل بن علي محسن فضل

(سلطان لحج، وتوابعها)

- بحضور: ميجر إف. إم. هنتر، معاون والي عدن.

- بحضور: عمر بن حسين بن محمد الوحش، قاضي لحج.
- بحضور: فرانسيس لاك ميجر جنرال، والي عدن.
- شريط وختم نائب جلالة الملك ووالي ولاة الهند.

الحماية على لحج:

لم تكن قد وقعت بين حكومة عدن وسلطنة لحج معاهدة حماية كما هو المتبع عادة في معاهدات الحماية التي تعقدها بريطانيا، إلا أن معاهدة بيع الشيخ عثمان قد أثبتت أن الحماية موجودة فعلا رغم عدم وجود معاهدة بذلك فإن البند السابع من المعاهدة ينص بصراحة على أن حدود السلطان من الآن وصاعداً ستكون (محمية بالحماية البريطانية كما هي الآن).

النزاع في العائلة العبدلية:

وصل السلطان فضل بن علي محسن إلى عدن. ولما علم بشروط المعاهدة غضب وقرر العودة إلى لحج فحاول عمه محمد حسن أن يثنيه عن عزمه وطلب منه البقاء في عدن للتداوي، ولكن السلطان رفض وعاد إلى الحوطة عاصمة بلاده لحج.

وكان محمد حسن قد شرط لنفسه ولأولاده وورثته من بعده في المعاهدة خمسمائة ريال شهرياً يتلقاها من حكومة عدن. واشتد العداء بين السلطان وعمه.

ذكر الأمير أحمد فضل العبدلي في كتابه (هدية الزمن) قصة بيع الشيخ عثمان لحكومة عدن وأسباب عدم اعتراف السلطان بالمعاهدة في ذلك الحين قال: (ذكر الأمير أحمد فضل محسن قال: كنا يوما بدار الأمير (أو دار سعد) مع السلطان أحمد فضل محسن عندما حدث بينه وبين ناظر الشيخ عثمان الملازم ميك نزاع بخصوص الحدود بين الشيخ عثمان وبين داز الأمير، فدخل علينا السلطان أحمد وفي يده أوراق معاهدة الشيخ عثمان وعليها إمضاء السلطان فضل علي محسن، فرفعها بيده وهو يقول لابن عمه أحمد منصر محسن: انظر إلى هذا الإمضاء كالحلزون).

ثم تضجر وتحمس وقال: إنه إمضاء فضل بن علي وإن المعاهدة التي تسلمت بموجبها قرية الشيخ عثمان والملاح لحكومة عدن كانت ممضاة فقط بإمضاء

عمي محسن وإمضائي وإمضاء أحمد علي محسن والسيد عمر حسين، ولقد أبى فضل بن علي الاعتراف بها مدة ثم بدلها لا لفائدة استزادها ولا لمصلحة تمكن من الحصول عليها بل فعل ذلك لأجل الظهور ولكي يظهر هذا الحلزون - وأشار إلى الإمضاء - منفرداً في ذيل هذه المكاتبة بغير شك.

من هذا الكلام ندرك أن السلطان فضل بن علي محسن ما رفض الاعتراف بمعاهدة بيع الشيخ عثمان إلا لأن إمضاءه لم يظهر في المعاهدة.

وبعد أن توفي محمد محسن في ذي الحجة سنة 1298هـ بثلاثة أشهر وصل السلطان فضل بن علي محسن إلى عدن واجتمع بالوالي ووقع المعاهدة الجديدة المذكورة أعلاه التي أكد فيها بيعه الشيخ عثمان.

معاهدة بيع أرض العقارب ومعاهدة الحماية البريطانية

في سنة 1315هـ (1888م) وقعت المعاهدة التالية بين حكومة عدن وشيخ العقارب.

(حررت هذه الاتفاقية في اليوم الخامس عشر من يوليو سنة 1888م الموافقة لليوم الخامس من ذي القعدة سنة 1305هـ بين الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي شيخ قبيلة العقارب من الجهة الأولى والبريجادير جنرال أ. ج. هوج، سي بي، المقيم السياسي في عدن بالنيابة عن حكومة الهند من الجهة الأخرى.

بما أن بقعة الأرض يملكها الشيخ المذكور عبد الله بن حيدرة مهدي تقع بين قرية الحسوة وعدن الصغرى وبندر فقم تحتاجها حكومة الهند لغرض المحافظة على الاختصاصات البريطانية على طول سواحل ميناء عدن ولأسباب أخرى فإن المذكور الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي رضي أن يبيع لحكومة الهند البقعة المذكورة بمبلغ ألفي شلن المدفوعة من قبل حكومة الهند المذكورة للشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي التي أعلن أنه تسلمها، ولأجل ذلك فإنه يمنح ويسلم لحكومة الهند كل تلك البقعة من الأرض المشروحة فيما يلي وذلك قطعة من الأرض عرضها نصف ميل تمتد على طول الساحل من وادي تبن غربا من عدن الصغرى (البريقة) إلى بندر فقم وأن يحدد ذلك بواسطة حد يبتدئ من العمود الثاني من الساحل على خط الحد الذي يفصل المنطقة البريطانية عن منطقة أرض العقارب، وذلك العمود كائن على مسافة تبعد حوالي نصف ميل من الساحل ثم تمتد موازية لساحل البحر نحو الغرب وتلتقي بساحل بندر فقم

على مسافة نصف ميل من الحد البريطاني لعدن الصغرى. ويقعة الأرض التي ألحقت بحكومة الهند محددة كما يلي:

شمالاً: منطقة أرض العقارب.

جنوباً: البحر ومنطقة عدن الصغرى البريطانية.

شرقاً: المنطقة البريطانية.

غرباً: بحر بندر فقم.

وبقعة الأرض المذكورة التي عرضها نصف ميل يلزم قياسها من علامة صعود البحر وتشمل جميع الشواطئ والخلجان والبنادر التي على البحر في الأرض المذكورة بأن تكون وتبقى من ممتلكات حكومة الهند مؤبداً دون أي معارضة أو منازعة أو عائق من ناحية الشيخ عبدالله بن حيدرة مهدي أو ورثته وخلفائه أو أي فرد من قبيلته أو أي شخص أو أشخاص مهما كانوا.

وللشهادة على ذلك فإن الطرفين المذكورين في هذه الاتفاقية قد وضعوا أيديهم وأختامهم في هذا اليوم وهذا الشهر وهذه السنة المذكورة أعلاه.

إمضاء: عبد الله بن حيدرة مهدي

إمضاء: أ. جـ. هو ج

(بريجادير جنرال المقيم السياسي)

إمضاء الشاهد: أ. ف. ستاس

(مساعد المقيم السياسي الأول)

بحضور الشهود:

(علامة) الشيخ علي بن حيدرة

إمضاء: فضل بن حيدرة مهدي

إمضاء: محمد صالح جعفر (المقيم السياسي المحلي)

الحماية:

في عام 1888م (1305هـ) وقعت معاهدة الحماية التالية بين حكومة بريطانيا وشيخ العقارب.

(إن حكومة بريطانيا وعبد الله بن حيدرة مهدي شيخ بير أحمد العقربي وملحقاتها يرغبان في تأكيد وتوثيق علاقات الصداقة والسلام القائمة بينهما.

وإن حكومة بريطانيا تسمى وتعين البريجادير جنرال آدم جورج فوريس هوج. أ. س. بي، المقيم السياسي في عدن لأجل أن يوقع معاهدة لذلك الغرض. والمذكور آدم جورج فوريس هو ج، أ. س. بي، والشيخ عبدالله ابن حيدرة مهدي المذكوران أعلاه قد اتفقا على التوقيع على المواد التالية:

المادة الأولى:

إن حكومة بريطانيا بناء على رغبة الموقع أدناه الشيخ عبدالله بن حيدرة مهدي العقربي تتعهد بأن تقدم لبير أحمد مع ملحقاتها الكائنة تحت نفوذه واختصاصه الإنعام الكريم والحماية من قبل صاحبة الجلالة الملكة الإمبراطورة.

المادة الثانية:

إن المذكور الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي العقربي يقبل ويعد بالإصالة عن نفسه وبالنيابة عن ورثته وخلفائه بأن يمتنع عن القيام بأي مراسلة أو اتفاقية أو معاهدة مع أي وطني محلي أو قوة إلا بمعرفة وموافقة حكومة بريطانيا ويعد بأن يسرع بإفادة المقيم في عدن أو أي ضابط بريطاني عن أي محاولة من قبل أي قوة أجنبية للتدخل في بير أحمد وملحقاتها.

المادة الثالثة:

إن المعاهدة المذكورة أعلاه يبدأ تنفيذها من هذا التاريخ.

وللشهادة على ذلك فإن الموقعين أدناه قد أمضوا منفردين وختموا في بير أحمد في هذا اليوم الخامس عشر من شهر يوليو سنة 1888 ميلادية.

إمضاء: أ. ج. ف هو ج، بريجادير جنرال

(المقيم السياسي في عدن)

إمضاء: عبدالله بن حيدرة مهدي

الشاهد:

إمضاء: أ. ف. ستاس (مساعد المقيم السياسي الأول بالنيابة)

الشهود:

(علامة) الشيخ علي بن حيدرة

إمضاء: فضل بن حيدرة مهدي

إمضاء: محمد صالح جعفر، (المقيم السياسي المحلي)

النزاع العائلي في بير أحمد:

في سنة 1315هـ (1898م) توفي سلطان لحج حافظ بن علي وتولى السلطنة ابن عمه أحمد فضل محسن، وفي عهده عادت الصداقة وحسن الجوار بين العبادل والعقارب، وقد أحبه الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي ووثق به وأوصاه بابنه الصغير فضل عبد الله فقام السلطان بالوصية حين توفي الشيخ عبد الله وجمع قبيلة العقارب على اختيار الشيخ الصغير شيخاً عليهم. لكن الشيخ علي بن حيدرة مهدي شقيق الشيخ المتوفى ثار على ذلك الاختيار ليقينه بأنه أحق بالمشيخة من فضل الصغير.

وقدم علي حيدرة شكواه إلى حكومة عدن. وتوسط السلطان وتمكن من تقريب وجهات النظر وإزالة الخلاف العائلي فقبل علي حيدرة الأمر الواقع. ومنح السلطان مشيخة العقارب هدية شهرية مقدارها ستون روبية.

الحرب العظمى:

في سنة 1332هـ توفي السلطان أحمد فضل محسن وتولى السلطنة ابن عمه السلطان عبد الكريم فضل بن علي محسن الذي اضطر أمام الغزو التركي لبلاده إلى الالتجاء إلى عدن مع أربعة آلاف أو أكثر من أعيان العبادل وساداتها ورؤساء قبائلها وحاشية السلطان وأقاربه. ولجأ بعضهم إلى بير أحمد.

وخشي الشيخ فضل عبد الله حيدرة على بلاده ورعاياه من الدمار والخراب فاتصل بالقائد التركي وطلب منه الأمان له ولأهل بلاده، فقبل القائد أن يؤمنه بشرط أن يرفع العلم التركي على حصن بير أحمد. واستجاب الشيخ إلى هذا الشرط، ولكن الفرسان الإنكليز والهنود الذين كانوا يتجولون في دوريات في تلك النواحي شاهدوا العلم التركي يرفرف فأسرعوا إلى بير أحمد وأنزلوه ثم أخذوا الشيخ فضل أسيراً إلى عدن. وأطلق والي عدن سراح الشيخ بعد أن طلب منه ألا يرفع العلم التركي مرة ثانية.

ذكر الأمير أحمد فضل في كتابه هدية الزمن ما يلي:

(رأيت الشيخ فضل يومئذ وقد جاء لمقابلة السلطان عبد الكريم منفعلا مدهوشا محتارا في أمره وقال: (ما نعمل يا أحمد؟) قلت: (هذه أيام محنتنا والصبر حكمة، فللصبر عاقبة محمودة الأثر.. جاء هؤلاء الأتراك من أعالي اليمن متيقنين بعجزهم عن أن يمسوا عدن الحصينة بسوء فلا يقصدون غير أذيتنا في بلادنا (ليمحص الله الذين آمنوا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

فلما عاد الشيخ إلى بير أحمد أرسل إليه القائد التركي بلوكين من الجند الأتراك وأعوانهم وقادوه إلى سجن لحج وعاملوه بما لا يليق بمثله، ثم أبقوه أسيرا إلى ما بعد الصلح ولكنهم أحسنوا معاملته في النهاية.

بقيت بير أحمد مأوى لجواسيس الترك أثناء الحرب العظمى الأولى نظراً لقربها من المراكز البريطانية. ودعا والي عدن أهالي بير أحمد إلى دخول عدن والشيخ عثمان والمعلا والبقاء فيها حتى تنتهي حالة الحرب. ثم أمر بتهديم بير أحمد بالمدافع.

احتلال الشيخ عثمان:

تقدم العثمانيون نحو الشيخ عثمان، ورأى الإنكليز أن لا فائدة سوف تعود عليهم من البقاء فيها فأمروا بإخلائها وركزوا دفاعهم في المجراد لحماية محطة اللاسلكي الجديدة فيها.

وحال انسحاب الجنود الإنكليز والهنود من الشيخ عثمان وقع شغب، وقام الرعاع والعاطلون بنهب البيوت والمتاجر وقتلوا بعض التجار وأصحاب الدكاكين. واستمرت الفوضى حتى وصل الأتراك فاحتلوها ووضعوا حدا لأعمال الاضطرابات.

وفي 21 يوليو سنة 1918م وصلت إمدادات عسكرية من السويس بقيادة الجنرال ينج هزيند الذي أمر بالزحف على الشيخ عثمان فأخلى الأتراك المدينة وانسحبوا إلى لحج فاحتلها الإنكليز.

أرض العقارب:

بعد انسحاب الأتراك عاد الشيخ فضل إلى بير أحمد فوجدها قد تخربت بفعل الحرب فجدد بناءها، وقبلت حكومة عدن أن تساهم في ذلك العمل نظراً

إلى أنها هي التي قامت بتهديمها. وبعد وفاة الشيخ فضل تولى الحكم ابنه محمد فضل ابن عبد الله حيدرة بن مهدي بن علي العقربي. وفي عهده تأسس أول مجلس للنظر في الشئون الإدارية وتنظيم الزراعة والمالية في المشيخة.

والعقارب هم بنو عقارب بن ربيعة بن سعد بن خولان بن الحاف بن قضاعة ابن مالك بن حمير. وسكان أرض العقارب اليوم لا يتعدون 2000 نسمة ثلثهم أو أكثر محاربون اشتهروا بالشجاعة والثبات.

تمتد أرض العقارب من البقعة التي تقع فيها قرية بير أحمد حتى رأس عمران من ناحية البر ومن مقربة من قرية الحسوة إلى مقربة من قرية بير فقم من ناحية الساحل. وكانت أرض العقارب تتكون من بير أحمد العاصمة والحسوة وجبل إحسان والبريقة والغدير وفقم قبل أن يشتريها الإنكليز كما ذكرنا سابقاً.

ذكر الهمداني في تاريخه: أن قبيلة العقارب تسكن (لخبة) التي تبعد عن عدن مسافة فرسخين إلا ربعا، بناها الأمير عثمان الزنجبيلي بين سنة 569 وسنة 576هجرية، وهي مدة حكمه لعدن، وكان في (لخبة) مصنع للزجاج ومصنع للآجر، وكان الزجاج والآجر يرسلان إلى عدن لاستصلاحهما في أعمال البناء.

وكانت لخبة عامرة في أيام بني أيوب حتى انقرضت دولتهم واستمرت عامرة في أيام بني رسول. وحين قامت دولة بني طاهر صارت لخبة مأوى لقطاع الطرق واللصوص فهاجر عدد من أهلها إلى السيلة والوهط.

ولخبة - أو الأخبة - هي بير أحمد كما نعرفها اليوم.

وأهم قرى العقارب هي (الحسوة). والكلمة (الحسوة) معناها (مكان الشرب). والكلمة (تحسى) وأيضاً (احتسى) معناهما (شرب) كقول الشاعر العدني التكريتي في قصيدته التي أوردناها في هذا الكتاب:

خلفوني في الرسوم ضحى   أتحسى الدمع مصطحبا

كل سكران وعى وصحا   وأنا كالشارب الثمل

والحسوة: هي البقعة التي ينتهي عندها ممر مائي طويل يمتد من الجبال، وحينما تحفر آبار في هذا الممر المائي تنبثق منها كميات محدودة من الماء كان يرسل من الحسوة في زوراق إلى الجانب الجنوبي من الخليج، ويحمل أيضاً في قرب جلدية على ظهور الجمال إلى عدن. وجدير بالذكر أن عدد المرات التي

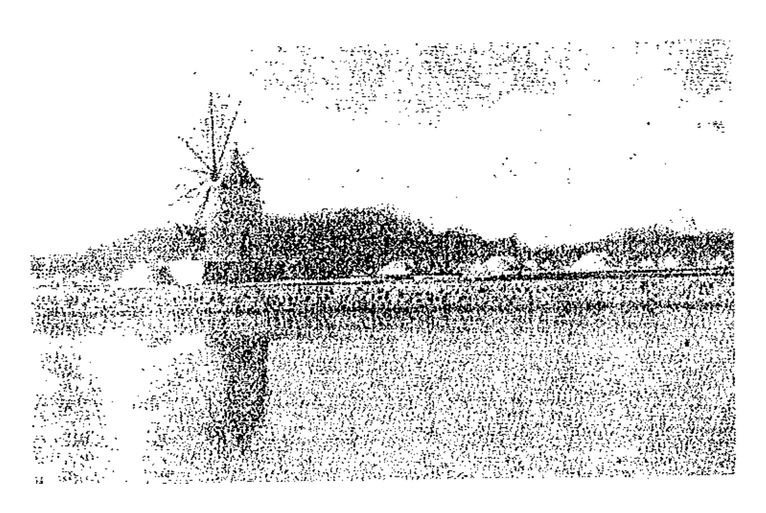
مرتها الجمال المحملة بالماء من باب السلب في طريقها من الحسوة والشيخ عثمان بلغت 71910 (واحداً وسبعين ألفا وتسعمائة وعشر مرات) في مدة اثنى عشر شهرا ابتداء من شهر أبريل سنة 1875م وبلغت كمية الماء هذه ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف جلون.

الشيخ عثمان:

في كتاب (ملوك العرب) ذكر الكرنل جيكب الشيخ عثمان بقوله (وقد نمت الشيخ عثمان، وكان تعداد سكانها في سنة 1921هـ ثلاثة عشر ألف نسمة (ارتفع العدد في سنة 1955م إلى حوالي 30 ألفا). والشيخ عثمان تبعد حوالي عشرة أميال عن مرسى التواهي، كان للحرب العظمى (الأولى) الفضل في توسعها وأن الشيخ الدويل، قرية الولي المشهور الشيخ عثمان، لتنظر بغيرة وحسد نحو المدينة الجديدة ذات النشاط التجاري).

وقال الكرنل جيكب أيضاً: (إن مدينة الشيخ عثمان هي بنت الكرنل إف. إم. هنتر ومسجل العقود الفارسي منشرجي الذي خطط المدينة وعمرها.

وبعد أن كانت القرية مأوى لغير المرغوب فيهم تحولت إلى حديقة غناء تمتلئ بالخضر والأشجار التي ترفرف على أغصانها مختلف أنواع الطيور. وهكذا تحولت الصحراء إلى زهرة يانعة).



الممـــلاح

وقد اشتهرت الشيخ عثمان بصناعات مختلفة منها صناعة الملح والمآزر وصباغة الملابس وحرق الآجر وصناعة الأواني من الطين المحروق وعصر السمسم وذرى القطن لاستخراج الدهن وأيضاً استخراج الخل من أشجار الحسوة والسمك المجفف في البريقة وأخيرا صناعة الزيت.

وتبلغ مساحة حقول الملح حوالي 3682 فدانا تنتج حوالي أربعمائة ألف طن من الملح في السنة، وتملك هذه الحقول ثلاث شركات هندية وشركة إيطالية. وكانت الهند حتى سنة 1950م أهم عميل يستورد الملح العدني، وبعد تلك السنة تمكنت الهند من إنتاج ملحها فاستغنت عن ملح عدن. وصارت اليابان وشرق أفريقيا العميلين الرئيسيين للملح العدني اليوم.

أما عن صناعة الزيت فقد تم في سنة 1954م بناء مصافي عدن الصغرى التي اشتركت في إنشائها شركة بكتل الأميريكية وشركة ويمبي الإنكليزية بمبلغ خمسة وأربعين مليون جنيه استرليني. وكان الغرض من إنشائها تكرير النفط لتموين السفن التي تدخل الميناء بواسطة أنابيب تمتد من المصافي حتى مراكز التموين في التواهي. ويمكن للمصافي أن تكرر حوالي خمسة ملايين طن من الزيت كل سنة.

وفي نهاية سنة 1954م تم بناء طريق تخترق البحر من باب السلب حتى منطقة السبخة في الشيخ عثمان ومن هناك عبدت طريق واسعة تمتد عبر الحسوة إلى البريقة وفقم.

وكان بناء المصافي السبب المباشر في تخفيض كمية السمك المجلوب من بحار عدن الصغرى، مما حدا بكثير من الصيادين إلى البحث عن أعمال أخرى وخصوصاً في المصافي نفسها.

ونظر إلى كثرة عدد مديرى الشركة الإنكليزية، فقد رؤى أن المنطقة التي تقع فوقها قرية البريقة هي أصلح مكان لإقامة منازل حديثة لهم فأزاحت الشركة القرية ونقلت الأهالي إلى قرية الخيسة.

سلاطين لحج وعدن قبل الاحتلال الإنكليزي

الشيخ فضل بن علي بن صلاح بن سلام بن علي	من سنة	1145	إلى	1155 هـ
السلطان عبد الكريم فضل بن علي	من سنة	1155	إلى	1180 هـ
السلطان عبد الهادي عبد الكريم فضل	من سنة	1180	إلى	1194 هـ

السلطان فضل عبد الكريم فضل	من سنة	1194	إلى	1207 هـ
السلطان أحمد عبد الكريم فضل	من سنة	1207	إلى	1243 هـ
السلطان محسن فضل بن محسن فضل	من سنة	1243	إلى	1253 هـ

سلاطين لحج بعد الاحتلال الإنكليزي

السلطان محسن فضل بن محسن فضل	من سنة	1235	إلى	1263 هـ
السلطان أحمد محسن فضل بن محسن فضل	من سنة	1263	إلى	1265 هـ
السلطان علي محسن فضل بن محسن فضل	من سنة	1265	إلى	1279 هـ
السلطان فضل بن علي محسن فضل	من سنة	1279	إلى	1281 هـ
السلطان فضل محسن فضل بن محسن فضل	من سنة	1281	إلى	1291 هـ
السلطان فضل بن علي محسن فضل (مرة ثانية)	من سنة	1291	إلى	1315 هـ
السلطان أحمد فضل بن محسن فضل	من سنة	1315	إلى	1332 هـ
السلطان علي بن أحمد بن علي محسن فضل	من سنة	1332	إلى	1333 هـ
السلطان عبد الكريم فضل بن علي محسن فضل	من سنة	1333	إلى	1367 هـ
السلطان فضل عبد الكريم فضل بن علي محسن فضل	من سنة	1367	إلى	1371 هـ
السلطان علي عبد الكريم فضل بن علي محسن فضل	من سنة	1371 هـ	إلى	

معالم عدن وجنوب الجزيرة العربية

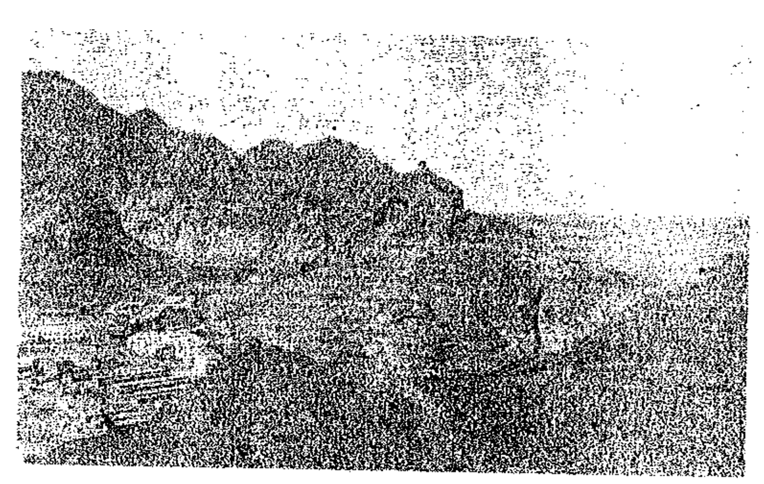
طبيعة عدن

تقع شبه جزيرة عدن في خط العرض 12 درجة و 47 بوصة شمالاً وخط الطول 45 درجة و 10 بوصات شرقاً، وتتألف من فوهة بركان خامد. أعلى قمة فيه هي قمة جبل شمسان التي ترتفع 1775 قدماً عن سطح البحر.

وأنواع الصخور في جبال عدن متعددة متنوعة، فإننا نلاقي كثيراً من مادة (اللافا) الصلبة المتورمة المخضبة بالأزرق والأغبر والأسود والأخضر.

واللافا، كما هو معروف، هي المادة السيالة التي تخرج من بطن جبل ناري، مما يقطع بأن عدن كانت في قديم الزمان بركانا يقذف الحمم. وبعض مادة اللافا هذه تحتوي على البلور المتجمد.

وفي جبال عدن صخور بها بثور متنوعة تشبه الإسفنج الخشن كأنها رغوة المعادن. والبثور في بعض أنواع الصخور مدورة الشكل وأخرى مسطحة وبعضها مذابة.



جزء من التواهي والمعلا في عدن في سفح الجبال

وفي بعض المواضع نصادف مادة اللافا بشكل صفائح مركبة شبيهة بالصخور الدالة على فاعلية النار في أحوال الطبقات الأرضية المعدنية.

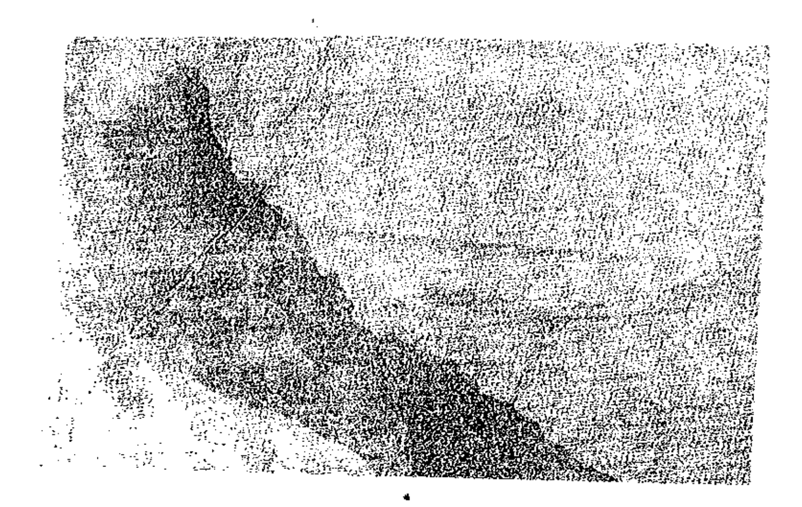
والصخور البركانية المعروفة باسم (بركياس) نصادفها بالقرب من باب عدن حيث نجد ما يشبه الأوعية المحمرة التي تحتوي على كسور من سائل اللافا الخضراء الضاربة إلى السواد، كما نجد في ذلك الموضع كميات محدودة من الحوارة المعروفة علمياً باسم (توفاس).

وفي بعض جبال عدن، خصوصاً جبل الطويلة وجبل شمسان نجد كميات لا بأس بها من حجارة الخفان المعروفة باسم (بوميس) المحتوية على الجبس والملح المعدني للنورة الممتزجة بالماء.

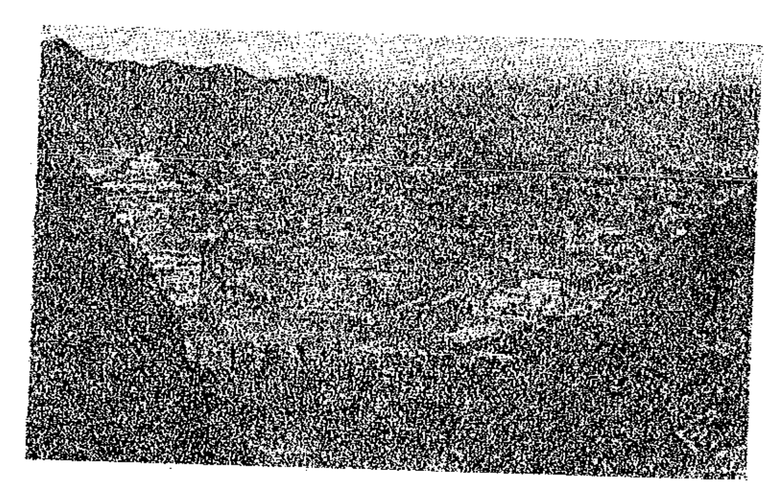
ونرى في بعض الطبقات الأرضية نوعاً من الحجارة المعدنية السوداء اللون كما نرى حجارة العقيق في فراغات الصخور. والجبس موجود في بعض المواضع من جبال عدن.

وجبال عدن هي:

- جبل الخضراء (المعروف الآن باسم جبل البنديرة).
- جبل صيرة القائم في البحر ويتصل بالساحل بواسطة ممر طويل في وسطه جسر يمر منه ماء البحر.
- جبل المنظر المواجه لجبل صيرة.
- جبل ضراس (المعروف حالياً باسم جبل أبو الوادي).
- جبل العز (المعروف حالياً باسم جبل شمسان ويمتد من حقات حتى الخساف).
- جبل التحكر (ثم سمي سلسلة المنصوري ويعرف الآن باسم جبل حديد).
- جبل حقات.
- جبل إحسان.
- جبل الفراشين (طارشين).
- جبل فقم.
- جبل النوبة.
- جبل جزيرة العبيد.
- الجبل الأحمر.
- جبل السوائح.
- جبل العين.
- جبل الطويلة.



جزء من مدينة عدن بعد الاحتلال الإنكليزي رسمت من جبل شمسان
(بإذن من المتحف العدني)



مدينة عدن محاطة بالجبال إلا من ناحية ساحل صيرة
أخذت هذه الصورة من صهاريج الطويلة

وجبال عدن هذه تتوجها قلاع منيعة وتمتد فيها أسوار حصينة يعود تاريخ
بعضها إلى أيام بني حمير.

وفي عهد بني أيوب قام نائبهم فيها الأمير أبو عمر عثمان بن علي الزنجبيلي ببناء أسوار حول عدن فبدأ سوراً من جبل المنظر إلى آخر جبل العز وركب عليه باب حقات وأدار سوراً على جبل الخضراء وابتدأ به من حصن الخضراء إلى حصن التعكر على رؤوس الجبال وأدار سوراً ثالثاً على الساحل من سفح جبل الخضراء إلى جبل حقات وركب فيه ستة أبواب.

وبعد أن استتب الأمر للإنكليز وجه الكابتن هينس جهوده نحو مهادنة القبائل حتى يتم تحصين جبال عدن وترميم القلاع المتهدمة، فكلف أحد ضباطه وهو المهندس جون وسترن بالقيام بالتحصينات اللازمة. ونجح وسترن في ترميم وتدعيم السور العربي المعروف باسم دزب الحوش أو درب الحريبي الكائن فوق باب عدن إلى يسار الداخل إلى الباب. ثم قام بتركيز طابية كبيرة فوق درب الحريبي موجهاً فوهاتها نحو البر. وبعد الانتهاء من هذا الدرب رمم السور التركي القديم حيث يقع الخندق وحصن القلاع في قمم الجبال. والخندق الطويل يفصله جزء من جبل حديد إلى قسمين يربطهما نفق (البغدة) وهذا النفق المحفور في بطن الجبل ينقسم إلى قسمين وطوله حوالي 1050 قدماً. وكان الخندق محصناً بأضخم المدافع المعروفة في تلك الأيام وفي بطنه سرداب طويل واسع وغرف عديدة يمكنها أن تضم آلاف الجنود وكميات وافرة من السلاح والذخيرة. وفوق جبل التعكر ركزت المدافع الكبيرة المطلقة على الخندق.

وفي سنة 1867م بنى الإنكليز الفنار (منارة السراج) في الجانب المشرف على خليج عدن من جبل الخضراء. وتسمى هذه الناحية من الجبل برأس معاشيق. وكانت العادة قد جرت حتى الحرب العظمى الثانية على رفع راية كلما رأى الفنار سفينة مقبلة إلى الميناء، ولهذا السبب سمي جبل الخضراء بجبل البنديرة.

وهذه الجبال تشرف على سواحل حقات وصيرة وأبين وحجيف وجولدمور وأبو الوادي وغيرها.

صهاريج عدن

وادي الطويلة من أشهر معالم عدن منذ زمن بعيد، فهو يضم صهاريج عدن الأثرية التي بنيت في الصخور الصلدة لتتلقف الماء الذي يهبط من جبل العز والتي تتسع لعشرة ملايين جالون أو أكثر.

وإذا تساءلنا لماذا بنيت الصهاريج وفي أي عهد بنيت فإننا نجد أن الإجابة على السؤال الأخير ليست سهلة.

والسهولة في الإجابة على السؤال الأول سببها معرفتنا بالأهمية الكبيرة التي كان العرب القدماء يعطونها للماء في المناطق التي يعز فيها وجود الآبار والأنهر والينابيع، ويكون فيها الاعتماد التام على مياه الأمطار التي تهطل في أشهر الشتاء، وذلك كان السبب في بناء سد مأرب الذائع الصيت الذي بناه السبأيون قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام بعدة قرون. والدليل على ذلك هو وجود الصهاريج والسدود والخزانات في مناطق أخرى كثيرة من جنوب الجزيرة العربية وأفريقيا حيث ينعدم وجود الآبار والعيون والأنهار.

وصف صهاريج عدن:

إن صهاريج الطويلة الاثنى عشرة مثال رائع نبيل لفن العمارة في العهد الذي بنيت فيه. والسد المبني في أعلى المضيق الجبلي والمرتفع من الجانبين والمنخفض في الوسط والمعروف باسم بركة عنبر هو في الحقيقة قريب عهد بني عند اكتشاف الصهاريج في سنة 1854م، وكان سبب بناء هذا السد منع الطين والحصى وغيرها من الانجراف مع مياه السيول إلى الصهريج الأول القابع في أسفل والمعروف محلياً باسم أبو سلسلة، ويمكن أن نعتبر السد المذكور جانباً من الصهريج، أما السد الثاني للصهريج فهو الذي نصعد إليه بدرجات صخرية حديثة العهد نسبياً، وهذا السد بدرجاته الصغيرة التي تؤدي بنا إلى داخل الصهريج وأيضاً عمده ومسانده عتيق أصيل. ويمكن أن نعرف علو هذا الصهريج من خط من الجبس يمتد من طرفي الصهريج، والذي يدهش الناظر أن تجصيص هذا الصهريج بالنورة من أسفله إلى أعلاه ما زال هو التجصيص الأثري الأصيل لم تذهبه الأيام ولم تؤثر فيه السيول التي كثيراً ما ملأت الصهريج بمياه الأمطار التي تتدفق بقوة من بركة عنبر.

وبعد أن يمتلئ (أبو سلسلة) ينساب الماء الفائض إلى الصهريج الثاني الذي يليه، وبعد امتلائه يمر في قناة تبدأ بعقد. وهناك رأي قائل إن بمكان هذه القناة كانت توجد برك منحوتة في الصخر ردمت لأجل أن تبنى هذه القناة الحديثة. وبعد أن يمتلئ الصهريج الثاني يمر الماء في القناة إلى الصهريج الثالث فالرابع فالثامن. وهذا الصهريج الثامن يعرف باسم (أبو عجلة) لأنه كانت في أحد

جوانبه عجلة تسحب الماء من الصهريج تشبه العجلة التي نراها عادة فوق الآبار التي يستخرج منها الماء.

وهذا الصهريج يتلقى الماء من أربعة منافذ هي:

القناة التي ذكرناها.

قناة صغيرة في الجانب الأيمن من المضيق حيث يوجد المخزن الصخري الذي كانت تخزن فيه الأسلحة أيام الحرب.

قناة صغيرة تمتد من الصهريج السابع.

ممرات منحدرة في الجانب الأيسر من المضيق.

ويمكن لهذا الصهريج أن يتسع لأربعة ملايين وستمائة وخمسة وأربعين ألفاً ومئتين وثلاثة وسبعين جالوناً من الماء. وبعد أن يمتلئ يفيض الماء إلى الصهريج التاسع الذي يليه ثم العاشر المواجه للمتحف.

وبعد امتلاء العاشر يفيض الماء فيمر في قناة أخرى تحت عقد وجسر، ويصب في الصهريج الثاني عشر الكائن خارج حائط بستان الطويلة والمعروف باسم (صهروج الفارسي).

وبقيت أمامنا الآن الصهاريج السادس والسابع والحادي عشر. أما السادس والسابع فيقعان في شق الجبل من الجانب الأيمن للمضيق وهما يتلقيان الماء من شقوق وممرات في الجبل. أما السابع فيعرف باسم "صهروج كوجلان"، وسبب هذه التسمية أنه يعتقد أنه حديث عهد لا ينتمي إلى العصر الذي بنيت فيه بقية الصهاريج وأن تشييده كان في عهد ثاني مقيم بريطاني في عدن هو البريجادير كوجلان وذلك بين سنتي 1859م و 1860م.

والصهريج الحادي عشر يعرف باسم "أبو قبة" وله طابع إسلامي يدل على أن بناءه تم في عهد إحدى الدول الإسلامية، وسنأتي على ذكر ذلك فيما بعد.

الصهاريج في التاريخ:

إن المؤرخين والرحالة العرب لم يذكروا لنا شيئاً وافياً عن صهاريج عدن، كما أن الذين كتبوا عنها لم يذكروا عددها ولم يصفوها الوصف الجدير بها حتى يمكننا أن نأخذ فكرة واضحة المعالم عما كانت عليه في الماضي.

إلا أن بعض المؤرخين والرحالة الأجانب ذكروا لنا صهاريج عدن ووصفوها كما شاهدوها حين زياراتهم لها في العهود المختلفة التي قدموا فيها. فقد ذكر

الكابتن بليفير الذي كان مساعداً للمقيم السياسي البريطاني والذي اكتشف الصهاريج في عام 1854م، أن عدد صهاريج عدن خمسون، وأن ما يمكن أن تخزنه من الماء يبلغ حوالي ثلاثين مليون جالون، وأن أكبر الصهاريج هي الموجودة في الطويلة التي تتسع لحوالي عشرين مليون جالون من الماء.

وبعد الزيارة التي قام بها المستر سولت الإنكليزي في سنة 1809م وصف الصهاريج بقوله: (وبين الخرائب نشاهد بقايا المجموعة من الصهاريج في الجزء الشمالي الغربي لمدينة عدن، ثلاثة منها عرضها ثمانون قدما ومثل ذلك عمقا، وكلها محفورة في الصخر الأصم ومبطنة بغطاء معجون المرمر الرقيق القريب الشبه بالبلور. وما زال بالإمكان مشاهدة خزان واسع كان يدفع الماء إلى الصهاريج من مضيق عميق في الجبل المطل على الصهاريج (في الطويلة). وفي بقعة أعلى من تلك التي نجد فيها الخزّان يوجد خزان آخر كان وقت زيارتنا له يحتوي على كمية من الماء).

وحينما كان الكابتن هينس يجوب سواحل البحر الأحمر وخليج عدن في عام 1835 م - قبل غزوه لعدن بأربع سنوات - كانت عدة من هذه الصهاريج في حالة صالحة للاستعمال.

وإلى جانب صهاريج الطويلة والصهاريج المعلقة في أعالي وبطون الجبال كان يمكن مشاهدة عدد من الصهاريج الكبيرة حول مدينة عدن، ولكن منذ الاحتلال البريطاني وجه الاهتمام نحو صهاريج الطويلة فقط، ولم تتخذ أي إجراءات لترميم أو للمحافظة على الصهاريج الأخرى من مزيد من التخريب؛ ولذلك فقد امتلأت بالحجارة والطين الذي يجرفه ماء المطر. ومما زاد في تدمير الصهاريج المعلقة سماح الحكومة للأهالي باستعمال أحجارها في بناء المنازل، فكانت النتيجة ضياع معالم تلك التحف الأثرية الرائعة فيما عدا بضعة صهاريج لم يكن من السهل تدميرها أو إخفاؤها.

كما أننا نجد بقايا كسور من الجبس هنا وهناك فوق الأرض وفي سفوح الجبال، فتدلنا هذه على البقعة التي كانت يوما مقرا لصهريج.

وفي عام 1856م بدأ العمل في ترميم صهاريج الطويلة. وليس من السهل تقديم وصف صحيح لتلك الآثار النادرة الممتازة لنعطي القارئ فكرة عما كانت عليه في عصر بنائها.

وجبل العز أو جبل شمسان هو الجبل الدائري الممتد من جبل حقات حتى الخساف. والجانب الغربي منه شديد الانحدار وحينما يهطل المطر ينساب الماء سريعاً من منحدراته.

وكان الخطر يهدد مدينة عدن وقت تدفق المياه في الشوارع لو لم تشيد السيلة الممتدة من الطويلة حتى شواطئ صيرا.

وقد ذكرنا أن اكتشاف الصهاريج كان في سنة 1854م. وفي 23 أكتوبر سنة 1857م هطلت أمطار غزيرة ملأت الصهاريج لأول مرة بعد تطهيرها، وبالرغم من أن نسبة صغيرة من الصهاريج كانت قد رممت حتى ذلك الحين، فإن الكمية من الماء التي ملأتها في ذلك اليوم كانت أكبر من الكمية التي يمكن الحصول عليها في سنة واحدة من جميع آبار عدن التي كانت موجودة في ذلك الوقت.

والمعروف أن كمية ماء المطر التي تهطل على عدن ضئيلة لا تتعدى إلا نادراً بين 6 و 7 أقدام في السنة، وهذه الكمية لا تكاد تكفي مدينة كثيرة السكان مثل عدن التي كانت تعتبر من أهم المدن وأكثرها سكاناً في العصور السالفة.

وكنا حتى وقت قريب نشاهد عدداً من الصهاريج في وسط جبل الطويلة خارج حائط بستان الطويلة، وفي التل المشرف على معبد الفرس، وفي جبل التعكر، وفي جبل العيدروس، ولكنها درست الآن أو هي في سبيل الضياع.

متى بنيت الصهاريج:

إن الذي يدعو إلى الغرابة والدهشة هو أننا لا نجد بين المؤرخين والرحالة العرب من يذكر لنا بناء الصهاريج وفي أي عهد بنيت. ومن المؤسف حقاً ألا نستطيع الحصول على أثر يشير ولو من بعيد إلى بناتها، كما أن طريقة بنائها لا توضح العهد أو العهود التي بنيت فيه أو أن ترميمها وتغيير معالم بعضها قد مسخت معالمها الأصلية. والظاهر في هذه الصهاريج أنها حينما بنيت لم يهتم من عمروها بقيمتها العملية، ولم يعيروا التفنن بالنقوش وغيرها أي اهتمام، ولهذا السبب بقي بناة الصهاريج مجهولين.

ويقول الكرنل بليفر: إن الفرس هم الذين بنوها حوالي سنة 600 ميلادية وذلك بعد احتلالهم اليمن وعدن وانتزاعهما من الأحباش.

إلا أن مؤرخين آخرين يقولون: إن (بني حمير) هم بناتها في المئة سنة الأولى بعد ظهور السيد المسيح عليه السلام. وهؤلاء المؤرخون يذكرون أن سدودا وصهاريج مشابهة وربما أكبر منها كانت توجد في جنوب الجزيرة العربية واليمن، وكان الغرض من بنائها تجميع مياه الأمطار ليشرب منها الناس.

وبناء الصهاريج والسدود تدلنا على مهارة واهتمام أهالي جنوب الجزيرة العربية في البناء.

ولكن عدداً من المؤرخين يخطئون حين يقرنون بناء الصهاريج إلى الفرس، وهو احتمال بعيد عن الصواب كما أعتقد لسببين: الأول أن بناء السدود والصهاريج عادة عربية قديمة أقدم من العهد الذي غزا فيه الفرس هذه البلاد، التي دعتهم إلى ذلك هي الحاجة الماسة إلى الماء كما ذكرنا سابقاً. والسبب الثاني هو أن الفرس لم يحكموا عدن واليمن حكما مباشراً، ففي الغزو الأول سلموا المقاليد لبقايا من أمراء (بني حمير)، وفي الغزو الثاني وزعوا الحكم بينهم وبين عدد من الحكام الوطنيين المحليين.

ونحن نعلم أن دولا عربية حكمت عدن وبقية أنحاء جنوب الجزيرة العربية، وهي الدول المعينية والسبئية والحميرية وبعدهم جاء الأحباش ثم الفرس. وما دامت الدول العربية قد اشتهرت ببناء السدود والصهاريج فمن الخطأ أن تنسب صهاريج عدن إلى غيرهم.

ويمكننا أن نستثني ثلاثة من صهاريج الطويلة وهي: (صهريج أبو قبة) وصهريج كوجلان وصهريج الفارسي.

(صهريج أبو قبة): لهذا الصهريج طابع إسلامي يدل على أن بناءه تم في عهد إحدى الدول الإسلامية، فجزء منه مغطى بقبة تشبه قباب المساجد والحمامات. وحينما اكتشف هذا الصهريج وجدت كتابات تحت الخرابة باللغة العربية، ويعتقد أن باني الصهريج مقبور تحت القبة. وربما أن هذا الصهريج كان في الأصل حماماً بنته في القرون الوسطى شخصية كبيرة. ويمتاز هذا الصهريج عن غيره بالجدران العالية التي تحيط به، مما يدلنا على أن سيدات الطبقة العالية كن يزرن الصهريج أو الحمام. وربما أن هذا الصهريج بني في عهد دولة بني رسول بين سنة 620 و 858 هجرية الموافقة سنة 1223 و 1454 ميلادية أو في عهد دولة بني طاهر بين سنة 858 و 945 هجرية الموافقة سنة 1454 و 1538 ميلادية.

(صهريج الفارسي): في أيام حكم بني طاهر بني الملك الظافر عامر بن عبدالوهاب بن طاهر سداً طوله 6320 ياردة وصهريجاً كبيراً يخزن مياه الأمطار والمياه المتدفقة من بير حميد (أو محيط). وقد وصف هذا الصهريج كعمل فني معماري رائع وأنه مثل فخم للصهاريج والخزانات التي بنيت في جبال اليمن. وقد بنيت دكة قوية في أسفل الصهريج ليقاوم ضغط الماء والحجارة المتساقطة مع السيول. ويمكن أن يحتوي على ثلاثة ملايين جالون من الماء. ويعتقد كثيرون أن سبب تسميته باسم (الفارسي) أنه يواجه معبد الفرس، ويرى آخرون أنه أعطي هذا الاسم في أيام الحرب العالمية الأولى، فإن عدداً من الأهالي كونوا هيئة برئاسة تاجر فارسي اسمه كاوسجى دنشو لأجل تطهير الصهريج من الأتربة والقمامات التي كانت تملأه. واستخدم الفارسي عدداً من العمال العرب الذين كانوا يذكرون أنهم موظفون عند الفارسي لتطهير البستان، فانطلق اسم الفارسي على الصهريج.

(صهريج كوجلان) هو السابع بين صهاريج الطويلة، ويعتقد أنه حديث البناء، بني في عهد المقيم السياسي البريطاني كوجلان بين سنتي 1859 و 1860م.

السبعة الدروب:

فوق بركة عنبر توجد ثلاثة خزانات مخربة الآن، وكانت توجه المياه نحو البركة ومنها إلى الصهاريج. وفي نفس البقعة يمكننا أن نرى السبعة الدروب التي بنيت لنفس الغرض، ويقال إن الذي بناها كان الأمير أبو عثمان عمر بن علي الزنجبيلي الذي حكم عدن بالنيابة عن بني أيوب.

ابن بطوطة والواسعي:

في القرن الثالث عشر زار عدن المؤرخ والرحالة العربي الشهير ابن بطوطة ووصف عدن وحالتها الاجتماعية في ذلك الحين، ولكنه لم يذكر الصهاريج إلا بقوله: (وتوجد في عدن صهاريج تتلقى مياه الأمطار وتخزنها).

وفي أثناء الغزو المصري في سنة 1538م كان يرافق الحملة ضابط فينيسي وصف تحصينات عدن ثم قال: (ليس لأهالي عدن من الماء غير مياه الأمطار التي تخزن في صهاريج وحفر عميقة).

وقال المؤرخ اليمني الواسعي: (وعند أسفل الجبال مصانع لجمع ماء المطر والاحتفاظ به وهي كالصهاريج محفورة في الحجر ومحكمة الصنع. ويزعم أهل البلاد أن أول من احتفرها سليمان الحكيم. ثم لما جاء الإنكليز وسعوا تلك المصانع وزادوا في عددها، وهم ينظفونها في كل سنة بعناية لا توصف. وقد شاهدناها فإذا هي من أحسن ما صنع في الأرض كلها)!

وذكر الأمير أحمد فضل العبدلي صهاريج عدن بقوله (وعجيبة عدن الصهاريج أسداد الماء، وهي من أجمل الأعمال الهندسية في العالم، تتسع لثمانين مليون جالون ماء. وتاريخ إنشاء هذه الأسداد مجهول، فمن المؤرخين من قال إنها بنيت في القرن الخامس بعد المسيح رجما بالغيب، وكانت هذه الأسداد مردومة عند احتلال الإنكليز لعدن ثم كشفت ورممت في سنة 1272هـ).

مساجد عدن

ليس غريباً أن تحتوي بلدة صغيرة المساحة مثل عدنٍ على مثل هذا العدد الكبير -نسبياً- من المساجد. فقد كانت عدن مركزاً دينياً وسياسياً وأدبياً وحربياً عظيم الأهمية.

واشتهرت عدن بعد الإسلام بعصور زاهرة زخرت بالعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والفلاسفة وطلاب العلم الذين كانوا يردون إليها من كثير من الأنحاء القريبة والبعيدة.

وكان الملوك والسلاطين والحكام يجيئون إلى عدن ويشيدون فيها الدور والقصور.

وكانت مدارس عدن هي مساجدها التي أخرجت للعام الإسلامي عددا وافراً من أقطاب العلماء وأعلام المفكرين.

ومن عدد المساجد في بلدة ما يمكننا أن ندرك ما كانت عليه تلك البلدة من نشاط علمي كبير، فلم تكن المساجد مجرد أماكن للعبادة والنوم بل كانت جوامع عامرة ينافس كل واحد الآخر في كثرة ما يضمه من علماء وما يستقبله من طلاب علم.

وكان الأغنياء يتبارون في تخليد ذكرهم ببناء الجوامع، وأوقف الكثيرون أموالا ضخمة حتى تتمكن تلك الجوامع من أن تفي بحاجات العلماء والطلاب الذين يؤمونها.

وأوصى بعض القادرين من الأتقياء أن يدفنوا في المساجد التي بنوها أو سكنوا فيها حتى يخلد ذكرهم بين الناس وتلحقهم دعوات المصلين.

وأشهر مساجد عدن القديمة التي كان لها صيت واسع بعيد والتي اندثرت وعفا على آثارها الزمن هي:

مسجد النبي:

كان من مساجد عدن الشهيرة، اشتغل بالتدريس فيه والإمامة الفقيه أبو الطيب طاهر بن علي، وكان والده تاجراً محباً للخير بنى جناحاً شرقياً للمسجد وأوقف عليه عدة مواضع في مدينة عدن وكان ذلك قبل سنة 686هجرية .. وجعل ذلك التاجر نظر المسجد والعناية به لأولاده من بعده ..

مسجد التوبة:

كان هذا اسمه، وبعد أن وصل إلى عدن الفقيه محمد بن يحيى أبو شعبة الحضرمي وسكن في المسجد عدة سنين سماه الناس باسم مسجد "أبو شعبة". وكان المسجد مرتفعاً له عدة درجات، وكان أبو شعبة يعلم فيه الفقه والحديث.

مسجد السماع:

كان هذا المسجد يزدحم بالطلبة الذين كانوا يتوافدون عليه ليدرسوا على الفقيه العالم الكبير أبي الحسن علي بن محمد بن حجر الشحري الحضرمي المولود سنة 598 هجرية.

وقد سمي باسم (السماع) لكثرة ما كان يسمع فيه من الحديث.

وأشهر العلماء الذين حضروا حلقات الدرس في هذا المسجد: الفقيه أبو الخير ابن منصور الشماخي والضياء بن العلج المغربي والإمام أحمد بن علي العدني الحرازي والفقيه أحمد القزويني والفقيه محمد بن حسين الحضرمي وغيرهم.

مسجد ابن عبلول:

كان يعمل بالتدريس فيه الفقيه العلامة علي بن عبد العزيز الطحنشائي الوفائي الشاذلي الحنفي، وكان أحد أساتذة الفقيه الكبير قاضي قضاة عدن جمال الدين محمد بن سعيد بن كبن سنة 806 هجرية.

ومن بين العلماء الذين درسوا في هذا المسجد: القاضي شهاب الدين أحمد أبن أبي بكر الناشري الذي كان من أئمة التعقيد في الفقه، وهو أستاذ السيد أبي بكر بن علي الأهدل صاحب المنظومة (الفرائد البهية في القواعد الفقهية).

مسجد البيلقاني:

بناه أحمد بن يحيى ابن الفقيه العالم الزكي ابن الحسن أبو طاهر شمس الدين البيلقاني العجمي وطنا ومولداً الأنصاري نسبا.

وكان الزكي مشهوراً ببراعته في علوم المنطق والبيان والحساب وعلم المواريث، فأمر الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول بتعيينه أستاذاً معيداً في المدرسة المنصورية بعدن، وبقي الزكي في عدن حتى سنة 676 هجرية ودفن في القطيع.

ولما بنى حفيده أحمد بن يحيى المسجد بقرب القطيع أوقف عليه ثمانية دكاكين متلاصقة في سوق القصب بمدينة عدن ورصد ثلث إيجارها لعمارتها وعمارة المسجد ورصد الثلثين لوظائف المسجد كأجرة الإمام والمؤذن وغيرهما.

مسجد الزيادي:

بناه الفقيه أبو محمد عبدالله أحمد بن محمد الزيادي العمدي الحضرمي المعروف باسم (أبو قفل). وكان رجلاً موسراً اشتغل إماما في مسجد أبان ثم بنى مسجده اللطيف هذا شرقي مسجد أبان حوالي سنة 590 هجرية.

مسجد الدوريّ:

بناه إقبال الدوري الهندي الذي كان من أغنياء أهل عدن وتوفي فيها سنة 722 هجرية.

مسجد السوق:

ويعرف باسم (صاحب المنارة) ولا يعرف من بناه، وكان يعمل بالتدريس فيه الفقيه سبأ بن عمر الدمتي، وكان من بين تلاميذه العلامة الكبير أبو العباس الحرازي. وتوفي سبأ سنة 694 هجرية.

مسجد الزنجبيلي:

بناه الأمير أبو عمر عثمان بن علي الزنجبيلي حاكم عدن ونائب الملك طوران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين الأيوبي. وبقي الزنجبيلي في عدن من سنة 571 إلى سنة 579 هجرية وأوقف على المسجد الخان (السوق) الذي كان في عدن.

وفي أيام الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول كان إمام المسجد الفقيه أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عدنان.

مسجد ابن البصري:

بناه حوالي سنة 550 هجرية الشيخ ياسر بن بلال بن جرير المحمدي الذي خلف والده في حكم عدن سنة 546 هجرية في أواخر أيام دولة بني زريع. وكان ياسر وزيراً للداعي المعظم عمران بن محمد بن سبأ بن زريع آخر ملوك بني زريع في عدن.

وكان ابن البصري أحد تجار عدن وكان يقوم بالعناية بالمسجد وإصلاحه فسمى الناس المسجد باسمه.

واشتغل بالتدريس في هذا المسجد العالم الكبير أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصنعاني وزميله الفقيه سليمان بن بطال الركبي.

مسجد ابن بندار:

لا يعرف من بناه. وكان يؤم فيه الفقيه الصالح محمد بن عشيق الذي توفي في عدن ودفن في مقابرها المعروفة بمقابر البزازين.

مسجد إسماعيل:

بناه أبو الفداء إسماعيل عبد الملك بن مسعود الدينوري البغدادي الذي قدم عدن واستوطنها، وكان ولياً من أصحاب الكرامات. وتاريخ بناء المسجد غير معروف.

مسجد العندي:

بناه الشاعر الأديب السياسي العدني أبو بكر بن أحمد العندي قبل وفاته سنة 580 هجرية الموافقة سنة 1148 ميلادية وذلك في أيام المعظم عمران بن محمد ابن سبأ بن زريع.

جامع المنارة

هذه المنارة الشامخة التي نراها كل يوم نمر فيه بالقرب من ميدان كرة القدم.

ما قصتها، وما هي، وكم عمرها، ومن بناها؟

أسئلة نمر بها كل يوم ولا نجد لها جوابا.

بعض المؤرخين يقول: إن المنارة من بقايا مسجد بناه ثامن الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز الأموي رضي الله عنه.

وبعضهم يذكر أنها أثر مسجد بناه القائد النوبي الحسين بن سلامة نائب بني زياد في حكم التهائم اليمنية.

وبعضهم يقول: إن الملك عامر بن عبد الوهاب بن طاهر هو الذي بنى المسجد والمنارة.

وآخرون يذكرون: أن سيدة من بني غسان قامت ببناء مسجد في عدن منارته هي القائمة أمامنا إلى يومنا هذا.

فما هي الحقيقة؟

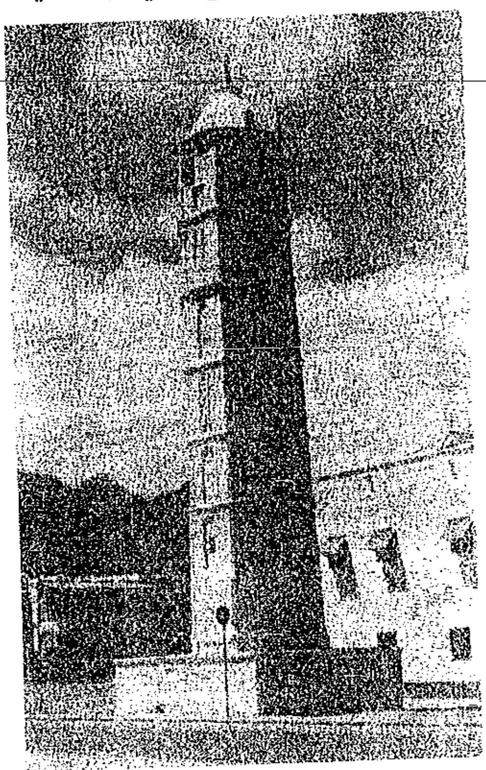
الحقيقة أن الحقيقة ما زال الكتمان يطويها.

ذكر المؤرخ اليمني عمارة بن محمد المكي في كتابة (المفيد في أخبار زبيد) أن جامع عدن بناه الخلفية عمر بن عبد العزيز وجدده الحسين بن سلامة في أواخر عهد بني زياد.

إلا أن المؤرخ ابن المجاور في كتابه (تاريخ المستبصر) ينفي هذا القول ويذكر لنا قصة هي في الواقع أسطورة، فهو يذكر أن الفرس هم الذين بنوا الجامع فيقول:

(وكان السبب في بنائه أنهم وجدوا في زمانهم قطعة عنبر كبيرة مليحة فأتوا بها إلى صاحب عدن فقال لهم وما أصنع بها؟ بيعوها وابنوا بثمنها جامعا فلست أرى درهماً أحل من هذا الدرهم ولا يخرج في وجهه أحق من هذا الوجه.

فباعوا العنبر وأخذوا ثمنه وبنوا به الجامع في طرف البلد. فإن قال قائل: لم بني وسط مدينة عدن؟ قلت: في وسط البلد عينٌ ماء من البحر إلى الملاح ولنا على قولنا دليل أن من بقايا العين موضع الملح الذي يجمد فيه الملح بالملاح).



منارة الجامع في مدينة عدن

وذكر عمارة في كتابه (تاريخ اليمن):

(ومن محاسن الحسين بن سلامة إنشاء الجوامع الكبار والمنارات الطوال من حضرموت إلى مكة حرسها الله تعالى. وطول المسافة التي بنى فيها ستون يوماً، وحفر الآبار الروية والقلب العادية في المقافر المنقطعة، وبنى الأميال والفراسخ والبرد على الطرقات، فمن ذلك ما رأيته عامراً أو مهدوماً ومنها مارواه الناس في رواية إجماع. فأول شبام وتريم مدينتا حضرموت اتصلت عمارة الجوامع منهما إلى عدن وأبين ولحج والمسافة عشرون مرحلة كل مرحلة جامع ومئذنة.

أما عدن ففيها جامع من عمارة عمر بن عبد العزيز وجدده الحسين بن سلامة).

وذكر الجندي والأهدل أن عمارة بن محمد الحكمي اقتصر على ذكر تجديد الحسين بن سلامة للجامع الذي بناه عمر بن عبد العزيز.. ويظن المؤرخان أن الحسين بن سلامة زاد في الجامع جناحين من جهة الغرب.

وذكر أبو الفداء أنه كان يوجد مسجد جامع كبير بناه قبل سنة 100 هجرية الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز على ساحل البحر في عدن.

وأضاف الجندي قائلاً: (ومن المآثر الباقية للداعي عمران بن محمد بن سبأ ابن زريع المنبر المنصوب في جامعها واسمه مكتوب عليه وهو منبر له حلاوة في النفس وطلاوة في العين).

ويقال إن الذي أمر بعمل المنبر هو الملك المجاهد علي بن داؤد الرسولي الغساني وإن الكتابة عليه كانت بالعاج.. ويحتمل أن يكون المنبر هو منبر الداعي عمران وإن الملك المجاهد إنما أمر بإصلاحه وتجديده.

ولم يتعرض المؤرخ الخزرجي لعمارة المجاهد لمنبر جامع عدن في كتابه (الفرائد اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية).

أما المؤرخ اليمني الكبسي فلم يذكر في كتابه (اللطائف السنية) إلا ما ذكره من سبقه من المؤرخين فقال: (وهو – أي الحسين بن سلامة – الذي جدد عمارة الجامع بعدن) ولم يضف شيئاً آخر إلى قوله هذا.

أما المؤرخ العدني القاضي بامخرمة المقبور في حوش مسجد جوهر فقد ذكر في كتابه (تاريخ ثغر عدن) أن المسجد الجامع بناه عمر بن عبد العزيز وجدده الحسين بن سلامة ثم جدده الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب.

وفي كتابه (تقرير عن مستعمرة عدن) ذكر الكابتن إف إم هنتر – الذي كان ضابطاً سياسياً في عدن حتى سنة 1877م، قال: إن المنارة القائمة بقرب دار المحكمة والخزينة هو الأثر الوحيد الباقي من مسجد كبير متهدم.. وقد وصف بأنه كان واسع الأرجاء وأن التي بنته أميرة من بني غسان بين سنة 800 هـ و 1000 هـ الموافقة سنة 1397 وسنة 1597م.

أما الكرنل هارولد جيكب الذي كان والياً في عدن فقد ذكر في كتابه (ملوك العرب) ما يلي:

(أكد لي أحد قدماء السكان في عدن أنه وقت احتلال الإنكليز لعدن كان يوجد مسجد ضخم في مواجهة البحر. وأظن أن هذا لابد وأن يكون المسجد الذي لم تبق من آثاره سوى المنارة ذات المظهر البارز الفخم قريباً من إدارة الخزينة. وتلك البقعة كانت في ذلك الحين على حافة البحر، ثم ردمت كل تلك المنطقة الساحلية وبنيت فوقها المعسكرات ـ البراقات ـ (ثم اشترى المرحوم سلطان لحج عبد الكريم فضل بن علي العبدلي تلك البقعة من حكومة عدن وبنى عليها قصر الشكر المواجه لميدان الهوكي).

ينهي الكرنل جيكب كلامه قائلاً: (إن هذا لا بد وأن يكون المسجد الذي عناه على بادر).

فإذا صح هذا فيمكن القول بأن ساحل البحر كان يمتد إلى قرب جامع المنارة، كما يمكن القول إن الجامع كان موجوداً فعلا وقت الاحتلال الإنكليزي سنة 1839م أو بعد ذلك بقليل.

ولكن الكابتن هينس، قائد الحملة البريطانية على عدن، لا يذكر في تقريره الذي رفعه إلى حكومته غير مسجدين هما: مسجد العيدروس ومسجد السوق.. فقد قال إنه في وقت الاحتلال الانكليزي كان يوجد عدد كبير من المساجد المهدمة المنتشرة في أرجاء عدن وأهم هذه المساجد: مسجد العيدروس الجامع ثم مسجد علوي ومسجد الجمال ومسجد السوق. وإن المسجدين الوحيدين الصالحين للاستعمال كانا مسجد العيدروس ومسجد السوق. ثم نأتي إلى المنارة نفسها:

ذكر لي أحد الأوربيين أن المنارة تختلف في شكل بنائها عن منارات المساجد فلا توجد في طابقها الأعلى شرفة يقف عليها المؤذن لينادي للصلاة، كما لا يوجد باب في ذلك الطابق يؤدي إلى الشرفة كما هو الحال في منارات المساجد، أضف إلى ذلك أن الواحد إذا صعد إلى أعلى طابق في المنارة فإنه لا يستطيع أن يقف إلا منحنياً.. ويؤكد ذلك الأوروبي أن المنارة إنما هي في الأصل فنار (منارة سراج) ترشد السفن الداخلة إلى ميناء صيرا!

ولكن الحقائق التالية تدحض رأي ذلك الأوروبي:

(أولا) قبل سنوات قليلة مضت كنا نشاهد كثيراً من الحجارة الضخمة المستطيلة مغروسة في الأرض مما يقطع بأن تلك الحجارة المنحوتة كانت مشاهد قبور تشبه القبور التي نراها في القبور القديمة في مجنة القطيع

الشهيرة. والمعروف أن العرب في الماضي - وما زالوا في بعض القرى والمدن - يدفنون موتاهم حول المساجد.. ووجود القبور حوالي المنارة يؤكد لنا أنها كانت فعلا منارة مسجد كبير إلا أنها إما بنيت بشكل يختلف عن بقية المنارات المستعملة للأذان أو أن يد التغيير قد حولتها إلى شكلها الحاضر.

(ثانياً) المعروف أن ساحل صيرا كان ميناء عدن القديمة وبما أن المنارة تقع خلف الميناء فليس من المعقول أن يشيد فنار خلف الميناء بل إن البقعة الصالحة لتشييده هي جبل صيرة أو جبل المنظر.

(ثالثاً) في الصورة التي رسمها ضابط برتغالي إبان الغزو البرتغالي في سنة 1315م نرى مدينة عدن بكاملها كما كانت في تلك الأيام. وفي نفس البقعة التي تقف فيها المنارة اليوم نرى في الصورة مسجداً ومنارة تشبه إلى حد بعيد المنارة التي نتحدث عنها.

مسجد أم الملوك

في البحث السابق ذكرنا أن بعض المصادر التاريخية قالت: إن جامع المنارة بني حوالي سنة 100 هجرية أيام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ثم جدده القائد النوبي الحسين بن سلامة ثم جدده وأضاف إليه جناحين الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب بن طاهر.

وذكرنا أن مصادر تاريخية أخرى تقول إن امرأة من بني غسان هي التي بنت الجامع حوالي سنة 800 هجرية الموافقة سنة 1397م أو سنة 1000 هجرية الموافقة سنة 1597م.

وأنا أميل إلى الرأي القائل:إن الخليفة عمر بن عبد العزيز هو باني الجامع.

والمرأة الغسانية المشار إليها هي السيدة الحرة أم الملوك والدة الملك الناصر أحمد والملك الظاهر يحيى ابني الملك الأشرف إسماعيل ابن الملك الأفضل العباس ابن الملك المجاهد علي ابن الملك المؤيد داؤد ابن الملك المظفر يوسف ابن الملك المنصور عمر بن علي بن رسول الغساني الجفني.

وعرفت أم الملوك هذه باسم (جهة الطواشي مرجان) نظراً إلى أن الطواشي مرجان كان خادمها ووصيفها. وقد بنت أم الملوك مسجداً في أيام ابنها الناصر أحمد الذي تولى الحكم سنة 804 هـ وتوفي سنة 827 هـ بعد أن حكم حوالي 23

سنة. وربما أنها بنت المسجد أيام ابنها الملك الظاهر يحيى الذي تولى الحكم سنة 831 وتوفي سنة 842 هـ بعد أن حكم حوالي إحدى عشرة سنة.

واشتهرت أم الملوك بأعمالها الخيرية الكثيرة. ومن مآثرها الأخرى المدرسة المرجانية في لحج كما أنشأت سبيلا في الأخبة (بير أحمد). وتوفيت أم الملوك في أيام ابنها الظاهر وذلك في سنة 836 هـ.

أما الظاهر فقد بنى مدرسة في عدن. وبنت زوجة الظاهر السيدة الحرة جهة الطواشي افتخار الدين ياقوت المدرسة الياقوتية بثغر عدن بحافة البصال ورتبت فيها إماما ومدرسا وطلبة علم وأيتام يتعلمون القرآن الكريم.

ولا شك عندي أن مثل جامع المنارة الموصوف بالضخامة لا يمكن أن يكون هو نفس المسجد - أو المدرسة - الذي بنته زوجة الظاهر في حافة البصال.

أما هذه الحافة المسماة (حافة البصال) فقد تكون المنطقة المجاورة لجامع المنارة التي كانت معروفة بـ (قسم ألف شارع رقم 11. Section A Street No والذي تحول فيما بعد إلى اسم (شارع الملك سليمان).

وكانت تقع في هذه المنطقة مقبرة اسمها (مجنة البزارين) دفن فيها ولي الله الصالح محمد بن عشيق إمام مسجد ابن بندار في عدن وقد تحولت المنطقة إلى (اسم البصال) بعد أن سكنها ولي الله أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الذهيبي المعروف بالبصال. والجدير بالذكر أن المسجد الموجود في شارع الملك سليمان والذي كان الهنود الميمن يشرفون عليه ثم تركوه لغيرهم كان معروفاً باسم مسجد الميمن. وفيه قبر لشخص يسمونه (المذيهب) وربما أن هذه اللفظة تحوير للفظة (الذهيبي) لقب الشيخ البصال. وفي هذا أدركت أن هذا المسجد هو مسجد البصال الذهيبي.

ويحتمل أن تكون السيدة الغسانية الرسولية هي التي شيدت المسجد ربما لتخليد ذكر البصال.

ونظراً لقربه من جامع المنارة فقد ظن بعضهم أن السيدة الغسانية هي بانية جامع المنارة.

أبـــان

هو أبان بن عفان بن الحكم بن عثمان بن عفان. كان عالماً فقيها من التابعين.

قال الذهبي يروى عن أبيه وعن جماعة من المحدثين (ما رأيت أعلم بحديث ولا فقيه من أبان).

وقال يحيى القطان (كان فقهاء المدينة المنورة عشرة من بينهم أبان).

وقد بنى أبان المسجد المعروف باسمه في عدن وتوفي بالمدينة المنورة سنة 105 هـ في خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان، وخلف ولدين هما الحكم وكثير.

ذكر المؤرخ البهاء الجندي أن الحكم بن أبان بن عفان بن الحكم بن عثمان ابن عفان كان فقيهاً مشهوراً من فقهاء التابعين، وأنه امتحن بقضاء عدن وكان مشهوراً بالكرم، ومسجده الذي يقف فيه هو مسجد أبيه الذي يعرف عند أهل عدن بمسجد أبان وهو أحد مساجد عدن المشهورة بالبركة واستجابة الدعاء ونجاح الحوائج.

ذكر أحمد العجلي: (الحكم ثقة صاحب سنة، كان إذا هدأت العيون وقف في البحر إلى ركبتيه يصلي ويذكر الله ويقول أنا وحيتان البحر ودوابه نعبدك).

وقال يوسف بن يعقوب: (الحكم بن أبان سيد أهل اليمن).

وقال المديني عن ابن عيينة: (أتيت عدن فلم أر مثل الحكم بن أبان).

وفي الرابعة والثمانين من عمره توفي الحكم بن أبان في سنة 154هـ الموافقة سنة 770م في أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور شقيق أبي العباس السفاح.

وخلف الحكم ابنه إبراهيم الذي اشتهر باسم العدني.

وفي حوالي سنة 170 هـ أقبل على عدن الإمام أحمد بن حنبل وأقام في مسجد أبان ليأخذ العلم عن إبراهيم بن الحكم فلم يجده، فقال الإمام بن حنبل لعمه كثير بن أبان (في سبيل الله الدريهمات التي أنفقناها في قصد ابن أخيك إبراهيم).

وزيارة الإمام أحمد بن حنبل لإبراهيم بن الحكم بن أبان تدل على ما كان يتمتع به إبراهيم من سمعة واسعة في علوم الفقه والحديث.. وما زال تاريخ وفاة إبراهيم مجهولا. إلا أنه مات في عدن وقبر مع عمه كثير في مسجد أبان.. وتقام زيارة لتخليد ذكراه في منتصف شعبان من كل سنة.. ويعتبر مسجد أبان من أغنى مساجد عدن بالأوقاف، وأكثرها في الهند.

جزيرة صيرة

صيرة، تلك الجزيرة الصغيرة بجبلها الأسود الأجرد الذي يقف فخوراً مزهواً تجاه مدينة عدن ككلب حراسة أمين يحميها من الدخلاء، صيرة هذه لها أكثر من قصة وأكثر من أسطورة. وبالنظر إلى أن عدن تتكون من أخدود هائل كان بركانا ثائرا يقذف الحمم فقد صدق الناس في العصور القديمة مختلف القصص والأساطير التي سمعوها عن عدن وعن جزيرتها العتيدة.

قابيل وهابيل:

إن أول القصص تذكر أن قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل فر إلى عدن مع أخته إقليمة ليحتميا فيها من أبيهما آدم عليه السلام. وبعد أن دفنا جثة هابيل فوق جبل يقال إنه جبل التعكر - أو جبل حديد - ظهر لهما إبليس وأغراهما بعبادة النار وبنى لهما معبداً للنار فوق جبل صيرة.

راما وسيتا:

وتقول أسطورة هندية: إن (هانومان) الإله القرد، حفر سردابا تحت البحر من الهند إلى عدن وأن البئر الموجودة فوق جبل صيرة ما هي غير فتحة ذلك السرداب. وقد ذكر هذه القصة المؤرخ ابن المجاور في تاريخ المستبصر وأضاف أن هانومان سكن جبل المنظر وكان يسير متأملا على شاطيء حقات وشاطيء صيرة.

وتقول أسطورة: إن هانومان حفر السرداب لأجل أن ينقذ الإلهة سيتا زوجة الإله راما التي كان قد اختطفها الجني راون.

حينما تقوم الساعة:

وفي القصص الإسلامية: أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قال عندما ذكر أشراط الساعة: (نار تخرج من قعر عدن تطرد الناس إلى المحشر. وقد روى ذلك الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه.

وذكر المؤرخ العدني عبد الله بامخرمة (ويقال:إن هذه النار تخرج من البئر التي في جبل صيرة وإنها موجودة الآن).

وذكر بامخرمة أيضاً: (ويقال إن البئر هي التي في سوق الصاغة والصيارف في عدن) وربما أن هذه السوق هي سوق الزعفران بعدن. وقال أيضاً: (إن القول بأن النار تخرج من عدن لا يدل على مذمة عدن وانحطاط مقدارها فإن رسول الله قد قال: (يخرج من عدن اثنا عشر ألفاً ينصرون الله ورسوله وهم خير من بيني وبينكم) وقد ذكر ذلك الحديث الطبراني.

وقال المؤرخ ابن المجاور: إن جبل صيرة جبل شامخ في البحر مقابل لعدن وجبل المنظر وإن بالجبل بئراً تسمى عنبر، ويسمى عند حكماء الهند "بيران" يخرج منه طول الدهر دخان ويسمى الآن بئر الهرامسة وليس يمكن لأحد النظر فيه من وهجه وتوجد حول البئر حجارة مكسرات وأفاع نائمات وحيات قائمات).

النار في البئر:

مما قاله بامخرمة: (في رأس جبل صيرة حصن قديم وفيه رتبة) وإنه سمع بأن القاضي العدني جمال الدين بن كبن طلع إلى رأس هذا الجبل ومعه جمع من أعيان البلد فأدلوا في البئر المذكورة حبلاً ثم رفعوه وقد احترق طرفه. قال شيخنا الوالد رحمه الله: فلما حكيت هذه القصة للملك المجاهد علي بن طاهر قرر أن يصعد إلى الجبل في يوم مقرر ولكن حينما حل ذلك اليوم وصلته أخبار بأن أخاه الملك الظافر عامر بن طاهر قتل عند أبواب صنعاء فألغى رحلته إلى الجبل وغادر عدن إلى صنعاء).

البئر المعطلة:

وفي القرآن الكريم الآية المجيدة: (وبئر معطلة وقصر مشيد) ويفسر بعض الناس أن البئر هي بئر الرئيس - أو الرأس - بعدن وكانت لأمة من بقايا ثمود).

شيطان البئر:

ذكر الكتاب المسيحيون: أن القديس المعروف (سان برثولوميو) زار عدن وهو في طريقه إلى الهند وأنه رأى العدنيين واقعين تحت سيطرة الأرواح الشريرة يعبدون الشيطان ويقدمون له القرابين. وكان الشيطان يسكن بئراً في عدن يقال: إنها تقع فوق جبل صيرة، ويقال أيضاً: إنها في شارع الزعفران. وكان

الناس يحصلون على مائهم من هذه البئر. وحين يجتمع الأهالي حول البئر كان الشيطان يصرخ من بطنها ويقذف اللهب فيخر الناس سجودا على الأرض يترنحون ويقدمون القرابين. فغضب القديس المسيحي وقرر أن يحضر إلى البئر ويشاهد أعمال الشيطان. ولما رأى الشيطان القديس صرخ وقذف بالماء والنار من بطن البئر فوضع القديس عباءته حول وجهه وتقدم وصرخ قائلا: (باسم المسيح المنقذ ابتعد أيها الشيطان وليتجمد ماء البئر) وفي الحال خمدت النار وفر الشيطان إلى غير عودة وتجمد ماء البئر.

اسم صيرة:

ما هو السبب في تسمية الجزيرة والساحل المواجه لها باسم (صيرة)؟

إن أمامنا ثلاثة حلول لذلك وكل واحد منها معقول:

(الأول) أن البرتغاليين الذين غزوا عدن في سنة 1513 ميلادية كانوا هم الذين أطلقوا عليه ذلك الاسم.. والكلمة (سيرا) برتغالية معناها (جبل). وقد جرت عادة البرتغاليين أن يطلقوا أسماء قوادهم على المدن التي يستعمرونها وتطل عليها الجبال مثل: (سيراليون) و (سيرا نيفادا) وربما أنهم كانوا سيطلقون اسم (سيرا ألفونسو) على عدن لولا أن قائدهم ألفونسوديلبوكيرك انهزم عن عدن.

(ثانياً) تقول أسطورة ذكرها مؤرخو العرب: إن الهنود كانوا يسمون عدن (سيراسيت) وأن هذه البقعة الممتدة من جبل الخضراء (جبل البنديرة) حتى جبل المنظر ومن هناك على طول ساحل صيرة إلى جبل التعكر (جبل حديد) أن الجنى راون كان يسكنها وكان له عشرة رؤوس ويسمونه (دس سير). والكلمة (سير) هندية معناها (رأس) وربما أن الهنود كانوا يسمون عدن (سيراسيت) إشارة إلى رأس الجني راون.

السردين - العيدة:

أما في اللغة العربية فإن الكلمة (صير) معناها (السمك الصغير) أو السردين.

و (صير) أيضاً معناها (الشق) أو (الكهف). والذي نعرفه أن جبل صيرة يمتلئ

بالشقوق والكهوف كما أن بحر صيرة يمتلئ بالحيتان الصغيرة المعروفة باسم (العيدة).

وهذا الحل في نظري هو الحل الصحيح لتسمية الجبل باسم (صيرة)..

(النشوح):

كان أهالي عدن في القرون الماضية يعتقدون بوجود الجن والعفاريت في جزيرة صيرة.

وحينما كان دخول السفن إلى ميناء صيرة صعبا بسبب الرياح الموسمية كان الأهالي يأخذون سبعة ثيران إلى الجبل وقت غروب الشمس. وبعد منتصف الليل يذهبون ويختارون واحدا يربطونه هناك ويعودون بستة ثيران. وقبيل انبثاق الفجر يذبحون الثور المربوط ويقذفون بلحمه.

وكان الأهالي يعتقدون أن السفن تستطيع بعد ذلك أن تدخل الميناء بسلام. واستمرت هذه العادة حتى أبطلها بنو زريع، ملوك عدن الإسماعيليون الذين اعتبروا ذلك العمل من أفعال الوثنيين التي لا يقرها الإسلام.

وعادة القرابين هذه - أو النشوح كما نسميها - ما زالت باقية إلى اليوم في البلاد الإسلامية، رغم أنها عادة تخالف تعاليم الدين التي تحتم علينا أن نتقرب إلى الله لا إلى الشيطان.

نبذة من تاريخ النشاط الأدبي في عدن في أيام بني زريع وبني أيوب وبني رسول

ولما كانت عدن ملتقى الناس من كل مكان وخاصة من البلاد العربية المجاورة نظرا إلى ازدهار حركتها التجارية والعمرانية وأزدحام ميناء صيرة بالسفن القادمة من شواطئ البحر الأحمر والخليج الفارسي والهند وشواطئ إفريقيا فقد كانت أيضا ملتقى الأدباء والشعراء والعلماء وطلاب العلم والباحثين عن الشهرة فكان لا يفرغ منهم مجلس ومجتمع من مجالس ومجتمعات الملوك والحكام والأمراء والأعيان في تلك العهود وخاصة في أيام دولة بني زريع وبني أيوب وبني رسول.

أبو بكر أحمد العندي:

في عصر بني زريع نبغ شاعر وأديب عدني هو أبو بكر أحمد العندي الذي كان يرسل النظم الرصين فيتهافت عليه الأدباء والشعراء والرواة، وكان له مكان مرموق لدى بني زريع الذين تميز عهدهم بتشجيعهم للأدب وتكريمهم للشعراء والأدباء.

وقد سمي بالعندي نسبة إلى قبائل الأعنود الذين سكنوا عدن وأبين ولحج، وكان والده من كبار أعيان البلاد. وكان أبو بكر ذكيا في صغره نابغة في شبابه حكيما في كهولته. وفي عدن درس الفقه والأدب والحساب فبرز على أقرانه، ونظم ونثر فمهر في الشعر والأدب..

كان الشيخ بلال بن جرير المحمدي نائباً في عدن للداعي المعظم محمد بن سبأ بن زريع وكان ذواقة للشعر والأدب فأعجب بالعندي وقربه إليه فكسب ثقة الشيخ بلال فعينه في وظيفة الأمين الخاص له وبلغ من ثقته به أنه كان يستشيره في كثير من أمور الدولة.

وكانت للعندي أخلاق عالية فلم يغتر بما بلغه من مكان عالية ومركز رفيع بل كان على العكس يحاول أن لا يظهر لأحد مكانته ومركزه حتى لا يجعل بينه وبين الناس حجاباً زائفاً، خاصة وأنه كان شغوفاً برجال العلم والأدب والفقه، فكان لا يدع فرصة تفلت منه في البحث والتزود بالمعرفة، وكان لا يسمع بأديب أو شاعر أو عالم قدم إلى عدن إلا وأسرع باستضافته وإكرامه.

كان للعندي قصائد كثيرة يتناقلها الناس. واشتهر بقصائد المديح التي جعلت حكام وملوك عهده يتقربون إليه ويقربونه إليهم. فعندما قدم الداعي المعظم محمد بن سبأ بن زريع إلى عدن في سنة 534 هـ (1140م) وسكن في دار المنظر المشرفة على ساحل حقات قال العندي:

دار تعظم بالمعظم شأنها   وازداد عـزا بالمكين مكانهـا

ووصف دار التعكر الكائنة فوق جبل التعكر فقال:

بالتعكر المحروس أو بالمنظر المأنوس يحمي فرقداً وسماكا

لما توفي محمد بن سبأ في سنة 548 هـ (1153م) تولى الحكم ابنه الداعي المعظم عمران الذي اشتهر بأخلاقه العالية وكرمه وجوده، وكان محبا للمديح فكان كريما مع الشعراء. وكان للعندي عنده مقام كبير.. ووصف العندي أحد مجالس عمران بقوله:

فلك مقامك والنجوم كؤوس   سعدا بها التثليث والتسديس

والبدر وجهك طالعا في دسته   لا البدر أحلى وجهه الحندبيس

يا والد العرب الذي يسمو به   قوم التفاخر مجده العندوس

يامن تطابق فعله ومقاله   فسما به التطبيق والتجنيس

حق الكواكب أن تكون مدائحا   لك والبروج صحائف وطروس

وسر الداعي عمران بهذا الوصف سرورا عظيما جعله يشير إلى ولده الصغير ويأمره بالجلوس إلى يمين العندي وخاطب العندي قائلا: (قد أجزتك هذا).

وكانت زوجة الداعي عمران تستمع إلى ما يدور في المجلس فأرسلت من يحضر ولدها إليها، فقام الولد إلى أمه. وقال عمران للعندي: (إذا أرغبوك في بيعه فاستنصف في الثمن).

وعاد الولد من عند أمه ومعه ألف وسبعمائة دينار قدمها للعندي. ولما علم عمران بالمبلغ أضاف إليه ألف دينار من عشور إحدى السفن الراسية في ميناء عدن.

وفي إحدى المناسبات مدح العندي عمران قائلا:

حياك يا عدن الحيا حياك | وجرت رضاب الماء فوق لماك

وافتر ثغر الروض منك مضاحكا | بالبشر رونق ثغرك الضحاك

وعلام أستسقي الحيا لك بعدما | ضمن (المكرم) بالندى سقياك

وهمت مكارمه عليك فصافحت | عن كفه معنى الغنى مغناك

ويظهرك من كثرة قصائد العندي في مدح عمران: أن العندي إما أنه كان شديد الإعجاب بعمران أو أن عمران كان يشجعه ويدعوه إلى الإكثار من مدحه. ومن قصائد العندي في مدح عمران قوله:

وافى الربيع يزف في ألوانه | ما بين وشي رياضه وجنانه

وسرى يجرر في مطارف زهره | أذيال مخضل الندى رمانه

متوشحا بالخضر من أوراقه | مترنحا بالهيف من أغصانه

مستوطنا بالعضب من جيرانه | عدنا وإن جلت عن استيطانه

أبدى الغرائب من بدائع حسنه | عرش تبسم عنه قبل أوانه

مدّى النعيم عليه فضل ردائه | متكفيا واليمن ظل أمانه

واختالت الدنيا به فكأنما | عاد الشباب به إلى ريعانه

بهرت محاسنه العقول فحيرت | أوصافها وفقا على استحسانه

فكأنما عدن به عدن جلا | رضوان فيها النور من رضوانه

ويستمر العندي قائلا في هذه القصيدة:

واهتزت الأعطاف منه كلما | هز النسيم بها معاطف بانه

من كل مشتاق الفؤاد طروبه | أو كل مرتاح الصبا نشوانه

دارت عليه مترعات سروره | من مترعات كؤوسه ودنانه
وهفا براجحة العقول تمايلا | ما يصطفى النغمات من ألحانه
وتجاوب الأصوات من باناته | في حجة النغمات من عيدانه
وسما بمفخرة الزمان تعاظما | لما استخص به عظيم زمانه

ويبرر العندي كثرة مديحه في عمران بقوله في نفس القصيدة:

تملى مآثره المديح فتنتظم الأذكار در فرنده وجمانه
فكأنما القلم الدقيق مثقف | في كفه والسيف عضب لسانه
إن كان روح روحه فلطالما | تعبت بيوم ضرابه وطعانه
وهمت على المستمطرين سحائب الأموال لا الأمواه من سهانه
والآن حين قضى لبانات الوغى | وثنى لطيف العيش فضل عنانه
نهج الطريق إلى المكارم والعلا | بشريف عرس شف عن كتمانه
متلطفا في أن يفيض هباته | في سره أبدا وفي إعلانه

وبقي العندي وفيا للداعي عمران في أواخر أيامه رغم الإحن والكوارث التي أحاطت بالداعي عمران في أواخر أيامه.. وعندما توفي عمران في سنة 560 هـ حزن عليه العندي ونقل جثمانه إلى مكة المكرمة تكريما له ووفاء منه.

ويظهر أن العندي، إلى جانب كونه فنانا شاعرا مرهف الحس ممتلئا بالعواطف، علمته السياسة التي اشتغل بها أن يكون واقعيا في تصرفاته. فإن حبه للداعي عمران وإشادته بذكره لم تمنعه من الإشادة بذكر طوران شاه بن أيوب الذي قضى على دولة بني زريع وقبض على أولاد صديقه الشيخ بلال.

فحينما دخل طوران شاه عدن في 18 ذي القعدة سنة 569 هـ (1173م) بعد احتلاله اليمن ألقى العندي بين يديه قصيدة في حوالي خمسين بيتا منها قوله:

أعساكرا سيرتها وجنودا | أم أنجما أطلعتهن سعودا
أم تلك ماضية العزائم أرهفت | بالرأي منك وجردت تجريدا

أم تلـك أقـدار الإلـه ونـصره رفعت عليك لواءها المعقودا

فسموت تطوى البيد معتسفا بها حتى لكادت أن تبيد البيدا

ونهضت لا الصعب المرام رأيته صعبا ولا المرمى البعيد بعيدا

ويستمر العندي قائلا في هذه القصيدة:

نصر سما الإسلام منه بناصر مستغرقا في نصرك المجهودا

فليملأن الأرض من أنبائه ما تقشعر الأرض منه جلودا

وسمت إلى عدن عزائمك التي صدقت وعيدا في الورى ووعودا

حتى دككت دروبها وجبالها وجعلت تربا صخرها المصخودا

وأعدت ريعان الشباب لعصرها فاليأس شاب له الزمان وليدا

فليأت أرض الشام عنك ومصرها إن قد أسرت لها الملوك عبيدا

وهنا يجدر لفت الأنظار إلى البيت الأخير من القصيدة حيث نجد العندي يقول لطوران شاه ما معناه: (فلتصل الأخبار إلى الشام ومصر بأنك قد أسرت الملوك وجعلتهم عبيداً أو أنهم أصبحوا كالعبيد بعد أن أسرتهم). وهؤلاء الذين عناهم العندي هم أولاد الداعي عمران وأولاد بلال بن جرير المحمدي فإن العندي لم يجد مانعا في أن يعطي هؤلاء وصف العبيد رغم أنهم كانوا أحبابه وأصدقاءه الذين رفعوه أو ساهموا في رفعه إلى إمارة الشعر وإلى الصفوف الأولى في دنيا السياسة. وهكذا يثبت لنا العندي أنه قد تعلم كيف يكون عمليا واقعيا في تصرفاته.

وكان من نتيجة هذه القصيدة أن أحب طوران شاه شاعر عدن وجعله من جلسائه المقربين. ويظهر أن طوران شاه، وقد طال بقاؤه في عدن، قد حن إلى الشام ومصر وأراد أن يستأذن أخاه السلطان صلاح الدين الأيوبي في السماح له بالعودة إلى بلاده.. وفكر طوران شاه في أن يبعث لأخيه بخطاب يملؤه بالتعابير العاطفية ويصف أشواقه المتزايدة إلى مصر والشام، فكلف العندي أن ينفث تلك

المشاعر في رسالة مؤثرة فكتب الشاعر رسالة جمع فيها النظم والنثر فأبدع في الحالتين:

لولا محلك في قلبي وأفكاري	ما رنح الشوق أعطافي وتذكاري
ولا التفت إلى مصر وساكنها	وقد تعوضت عن مصر بأمصار
ولا حننت إلى أرض الشآم وإن	كانت مطالع أوطاني وأقطاري
ولا شجتني كتب منك واردة	تجل أخطارها في عظم أخطاري
سحارة اللفظ والمعنى وما نشأت	بسحر بابل عن إنشاء أسحار
يا بارق الشام ما الأوطان من يمن	أوطان شجوي ولا الأوطار أوطاري
ما الدار إلا دمشق والمنى حلب	والسؤل مصر وفي الزوراء مزداري
تلك المنازل لا لحج ولا عدن	ولا زبيد ولا أكناف تعشاري

وأتبع العندي تلك القصيدة بنثر جميل الأسلوب كثير السجع كما كان متبعاً في تلك الأيام من ذلك قوله:

(ولما ترامت به مفارز الطرق، وفقد ما كان يستضيء به من أنوار ذلك الأفق، وحاول استدامة ما كان يتخلق به من ذلك الخلق، وجد الحال من قبله قد استحالت، وخطرات الحيرات بلبه قد استمالت، ولم يلبث أن باح سر فؤاده الملتاح، وهزته نشوة الشوق هزة نشوان الراح، وجعل الوجه يهفو بشباته ووقاره، والحنين يتغنى شجوه كما يتغنى الحمام في أشجاره، والشوق يصور له ما لم يكن مصورا لديه من سامي ذلك المقام، والغرام يمثل له باهر ذلك الفضل يضرب به أحكام المسير والمقام، وبواعث الحسن تعاطيه كاسات دراكا، ومترنم الوجد ينشد في صفات حاله خصوصاً لا اشتراكا).

ما بدا لي شخص ولا سمعت	أذني حسا إلا حسبتك ذاكا
وإذا ما مددت عيني إلى	غيرك مثلت دونه فأراكا

وسمح السلطان صلاح الدين الأيوبي لأخيه طوران شاه بالتوجه إلى مصر والشام وعين أبا عثمان عمر بن علي الزنجبيلي حاكما لعدن وتوابعها في سنة 571 هـ - وكان عهده في عدن عهد رخا وتعمير.

مما تقدم من حياة شاعر عدن العندي ندرك أنه كان فنانا شاعراً وسياسياً عمليا. وإلى جانب ذلك كان رجل دين وتقوى، فقد بنى العندي مسجداً عرف باسمه. واعتقد أن العندي وقد اجتمعت فيه تلك الخصال - الفن والسياسة والتدين - لم يبن المسجد لمجرد الصلاة والعبادة بل بناه لغرض آخر بجانب أداء الفروض الدينية الخمسة.. فحينما تعرف أن الناس في تلك العصور كانوا يتلقون العلم الديني والدنيوي في المساجد ندرك الغرض الثاني للعندي من بناء المسجد وهو أن يكون مدرسة لطلاب العلم ومسجدا لعبادة الله جل وعلا.

وعندما شاخ العندي كف بصره وعاش أعمى بقية حياته حتى توفاه الله عام 580 هـ (1184م).

وحينما أصابه العمى قال المؤرخ اليمني نجم الدين عمارة الحكمي: (حينما بلغني أن أبا بكر أحمد العندي قد كف بصره علمت أن الزمان قد سلبه بصيرته حين سلبه بصره، وأن الأيام طمست بذلك منها جمالها وأطفأت سراج كمالها).

وقال الأهدل، ولي الله المعروف في عدن ومؤلف كتاب تحفة الزمن في أعيان أهل اليمن: (إن العندي كان موفقاً في صغره مسدداً في كبره).

شاعر عدن التكريتي:

بعد مغادرة الزنجبيلي لعدن في عام 579 هـ (1183م) - أي قبل وفاة العندي بسنة - ظهر اسم التكريتي كأديب وشاعر أنجبته عدن. وقبل أن نذكر شعر التكريتي نحب أن نورد نبذة تاريخية لها علاقة بالشاعر التكريتي، فقد ذكر المؤرخ والعالم عبد الرحمن بن خلدون في تاريخه المعروف بالعبر: أن مدينة المرباط إحدى مدن الشحر في حضرموت الساحل وأن شخصاً كثير المال اسمه أحمد بن محمد بن محمود الحميري الملقب بالناخوذة حمودي دخل على أمير المرباط ونال ثقته ولم يلبث أمير المرباط حتى عينه وزيرا، وبعد وفاة الأمير استولى الوزير على عرش المرباط. وفي عام 619 هـ هدم مدينتي المرباط وظفار بحجة أنهما غير صالحتين لرسو السفن وبنى بدلا منهما مدينة سماها (الأحمدية) نسبة إليه.

وفي أثناء حكم الملك المعز طغتكين بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين الأيوبي وطوران شاه كان (المنجوي) هو أمير المرباط. ويظهر أن التكريتي كان معجباً بالمنجوي فقد أنشأ قصيدة في مدحه قال فيها:

عج برسم الدار فالطلل ... فالكثيب الفرد فالأثل
فبمأوى الشادن الغزل ... بين ظل الضال والجبل

ويقول التكريتي في هذه القصيدة:

آه لو أدركت بينهمو ... كنت يوم البين بينهمو
ليت شعري الآن أين همو ... رب سال ضل في السبل
كيف أثنى عنهمو طمعي ... وهمو في خاطري ومعي
كف عني اللوم لست أعي ... ففؤادي عنك في شغل
ها أنا في الربع بعدهمو ... أشتكي وجدي وبعدهمو
أسأل الأيام وعدهمو ... وأقضي الدهر بالأمل
فدموع العين تنجدني ... وحمام الأيك تسعدني
فهي تدنيني وتبعدني ... بالبكا طورا وبالجدل
خلّفوني في الرسوم ضحى ... أتحسى الدمع مصطبحا
كل سكران وعى وصحا ... وأنا كالشارب الثمل
رق رسم الدار لي ورثا ... وسقامي للضنى ورثا
ليس سقمى بعدهم عبثا ... كل من رام الحسان بلى
آه لو جاد الهوى وسخا ... أذهب الأكدار والوسخا
فالجوى والصب قد نسخا ... وقعتي صفين والجمل

أترى بالمشعرين نرى   عيشهم والركب قد نفرا

ونزور الحجر والحجرا   ونضم الركن للقبل

كم لنا بالمروتين أسى   ما له غير الخضوع أسى

ينجلي عن ربما وعسى   والورى في غاية الخجل

يا أصيحابي ويا لزمني   غير خاف عنكم ألمي

إن أمت لا تأخذوا بدمي   غير ذات الدل والكسل

غادة في خصرها هيف   دنف كل بها دنف

فهيام القلب والشغف   بين ذاك الخصر والكفل

فبياض الصبح غرتها   وسواد الليل طرتها

أترى عمرا بنظرتها   أو أمير المؤمنين علي

ريقها والمبسم الشنب   خندريس فوقها حبب

لؤلؤ رطب هنا العجب   بحره أحلى من العسل

أن يكن في الحب هان دمي   ها صباباتي وها ندمي

فدمي في ثابت القدم   ورشادي ضل في الأزل

بدرت من بدر جارية   ودموع العين جارية

ثم قالت وهي جارية   ارفقي يا هند بالرجل

فأجابت وهي معرضة   ومراض اللحظ ممرضة

أنت لي يا سعد مبغضة   قد سقيت النفس بالعلل

قالت البدرية انتدى   وعدي ذا المبتلى وعدي

ما الذي ينجي من القود   خلق الإنسان من عجل

الهزيـــــــر المنجـــــــوي إذا	ألقـــت الحـــرب إلعـــوان أذى
هـــو تـــاج والملـــوك حـــذا	بـــل حـــضيض وهـــو كالقلـــل
طالمـــا قـــد ضـــنت الـــسحب	واشـــرأب المحـــل والـــسغب
وغـــوادي كفـــه الـــسهب	بالـــضحى تهمـــي وبالأصـــل
مـــا لـــه مثـــل يماثلـــه	لا ولا شـــكل يـــشاكله
ولـــه فيمـــا يحاولـــه	همـــة تعلـــو علـــى الهمـــم

لما وصلت هذه القصيدة إلى المنجوي أمير المرباط أجاز التكريتي سفينة وحمولتها.

وكان لهذه القصيدة أثر عميق لدى الملك المعز طغتكين بن أيوب، فعندما اطلع على هذا الشطر (هو تاج والملوك حذا) ملأه الغيظ وأحس كما يظهر بالغيرة العارمة، فبعث إلى نائبه في عدن أن يرسل إليه بالتكريتي في الحال.

ولما وصل التكريتي إلى مقر الملك في تعز قال له: (كيف يا تكريتي تقول هو تاج والملوك حذا؟).

ويظهر أن التكريتي كان قد هيأ نفسه لهذا الاحتمال، وكان أديباً متمكناً من اللغة. ولذلك فقد أجاب طغتكين: (أنا يا مولاي لم أقل حذا - بكسر الحاء - بل قلت حذا - بفتح الحاء - أي أن الملوك يحذون حذوه ويتبعون سيرته).

فأعجب طغتكين بحسن تخلص التكريتي وأطلق سراحه.

ولا أدري إذا كان طغتكين قد اقتنع بتفسير التكريتي أو أنه فرض على نفسه أن يقتنع خوفا من لسان الشاعر أو ربما حلما منه، فقد كان طغتكين يستطيع أن يطلب من التكريتي تفسيراً للشطر الثاني (بل حضيض وهو كالقلل). ولكنه لم يفعل، بل آثر السكوت والاكتفاء بالتفسير الأول.

ولما وصل خبر القبض على التكريتي إلى المنجوي أرسل سفينة أخرى، وشحنتها هدية منه للشاعر العدني وأشار بأن تبقى أمانة عند بعض الناس يصرفون منها على التكريتي وأهله ما دام في الحجز ثم يقدمونها إليه عند عودته من تعز ... ونقل خبر السفينة الأخرى إلى طغتكين ولكنه أجاب المبلغين قائلاً: (يحق لمادح هذا أن يقول فيه ما شاء) فقد رأى الملك المعز طغتكين أن أمير

المرباط بلغ به الكرم حد إهداء سفينتين وشحنتهما لشاعر يمدحه وأنه لذلك يستحق مديح المادحين.

وقصة التكريتي والملك المعز طغتكين تذكرنا بقصة أخرى مشابهة. فإن الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول علم بأن الشاعر القاسم بن علي بن هتيمل كان يمدح أمراء حلى بني يعقوب ويشيد بذكرهم ومن بينها القصيدة التي قال فيها:

إن الملوك بني يعقوب قاطبة	طرا وكل ملوك غيرهم سوق

فأرسل المظفر من يأتي له بهذا الشاعر، فلما وقف أمامه، قرأ المظفر ذلك للبيت وقال الشاعر:

كيف تقول وكل ملوك غيرهم سوق

فأجاب الشاعر: (أطال الله عمر السلطان). إنما قلت: (وكل ملوك غيرهم سبق).

فاستحسن المظفر تخلص الشاعر وعفا عنه. وهنا قال ابن هتيمل قصيدته التي منها:

اسمع بقيت مصانا عن منافسة الـ	أغيار في الملك محروسا من الغير
إني امرؤ في فمي ماء وفي كبدي	جراحة من أمير غير مؤتمر
قد ذقت من غصص الدنيا وفجعتها	ما كان منه جميل الصبر كالصبر
إن جرجر العود فانظر ما بغاربه	فإنه إن رغا يرغو من الدبر
وانظر إلي بعين منك راحمة	لا تقصدن غير وجه الله في النظر

أخو كندة:

لما تم النصر للملك المظفر يوسف فاحتل ظفار وحضرموت وقضى على السلطان سالم بن إدريس الحبوضي كتب الشاعر الناثر (أخو كندة) رسالة يهنىء فيها المظفر بالنصر ويقول:

وعـــاين النـــاس هامـــات متوجـــة جاءت من البحـر تجري بين أمـواج

تأتمهـــا هامـــة كانـــت متوجـــة أودى بها الملـك الصنديد ذو التاج

ساق المظفر جيش النصر من عدن تـــأتم في البحـــر أفواجـــا بـــأفواج

وأفعـم البحـــر حتـــى غـص واسـعه بجحفـل لجـب الأصـوات عجــاج

عبد الله بن جعفر:

حين قدم الملك المؤيد داؤد بن المظفر يوسف إلى عدن ونزل في دار المنظر أقيم حفـل بهيج على ساحل حقات تباري فيه الأدباء والشعراء ومن بينهم الشاعر عبد الله بن جعفر الذي قال في قصيدة طويلة:

أعلمـــت مـــن قـــاد الخيـــول خيـــولا وأفـاض مـن لمع السيوف سيولا

وأمـــاج بحـــرا مـــن دلاص ســـابغ جـرت أسـود الغـاب منـه ذيـولا

وافـــى إلى عـــدن كمقـــدم جـــده سيف بن ذي يزن الكريم أصولا

بحـــر إلى بحـــر يـــسير بمثلـــه والملـح أحقـر أن يكـون مثـيلا

فاسـتقبلت عـدن جبينـك والتقـت في ملتقـــاه ســـعادة وقبـــولا

والشمس تحسد تاجك المعقود والـ إكليل يحسد ذلك الإكليلا

لـو يـستطيع الثغـر كـان مقـبلا بـالثغر منـه ركـابكم تقبـيلا

إن جـاوزت هـذي الـشمائل بحـره جعلـت مـذاق المـاء منـه قبـولا

ابن المقرئ:

في عام 818 هـ وقعت حوادث شغب في عدن فجاء الملك الناصر أحمد ابن الأشرف إسماعيل الرسولي وقضى على الاضطرابات، فاستقبله الشاعر ابن المقرىء بقصيدة قال فيها:

شممت نسيما من وصالك لو هبا علـــى ميـــت أحيـــاه أو هـــرم شـــبا

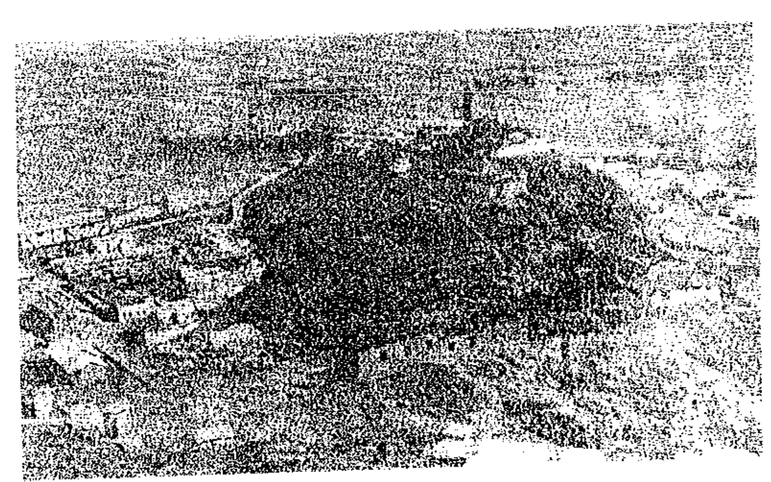
وقال أيضاً:

وفي عدن قامت عليهم قيامة	وقد ركبوا في قصده المركب الصعبا
وظنوا بجهل كل بيضاء شحمة	وقد أضمروا في أهلها القتل والنهبا

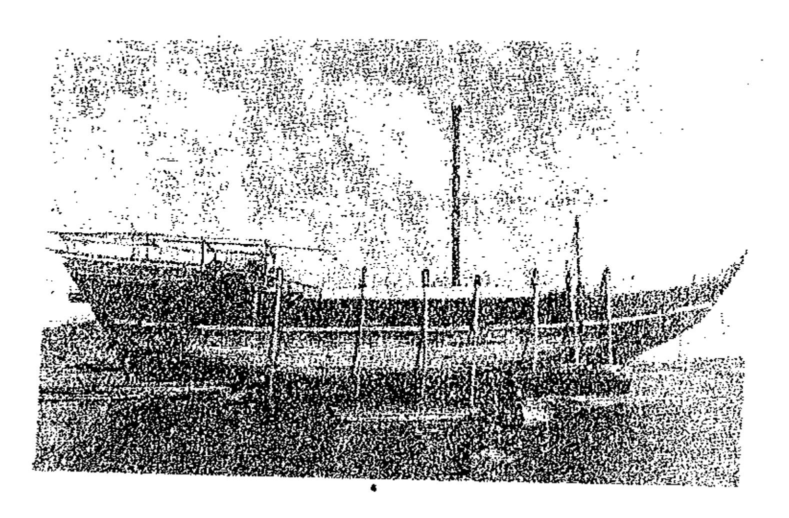
ميناء عدن القديم

كانت الحركة التجارية مركزة في جبل صيرة وساحل صيرة حيث كانت السفن تلقي مراسيها.

ومن الطرائف التي تذكر عن حياة عدن منذ حوالي ثمانمائة سنة أن حراسا كانوا يقفون في جبل المنظر وفي جبل الخضراء وعيونهم الحادة البصر تنتقل في أفق البحر البعيد بحثاً عن السفن المقبلة، وهؤلاء لم يكونوا يستطيعون رؤية السفن إلا وقت شروق الشمس وغروبها حينما تكون أشعة الشمس موجهة نحو سطح البحر.



ميناء عدن الحديث بالتواهي



سفينة شراعية في مرساها بالمعلا

وفي أغلب الأحيان كان الحراس يجلسون على الصخور البارزة في الجبلين في مواجهة البحر وأمام كل واحد عصا مركوزة، فإذا رأى شيئا في البحر دقق النظر على الطرف الأعلى للعصا فإذا تحرك الشيء يمينا ويسارا وإلى أعلى وإلى أسفل عرف أنه ليس إلا طائرا، إما إذا تحرك الشيء ببطء أدرك الحارس أنها سفينة مقبلة. وعندئذ يصرخ بأعلى صوته (هيريا). ويسمعه الحارس الذي يليه فيصرخ (هيريا)، وهكذا يتداول الحراس الصراخ حتى يصل الصوت إلى آخر حارس في الفرضة فيسرع هذا إلى دار الوالي لينهي إليه خبر قدوم سفينة ثم يذهب إلى موظفي الجمرك ليحيطهم علما حتى يكونوا على استعداد لاستقبالها.

وفي نفس الوقت تكون أصوات الحراس ما زالت تدوي حتى تصل إلى المنازل فيصعد النساء والأطفال إلى الأسطح، ويسرع الرجال إلى ميناء صيرة لمشاهدة السفينة. ويشعل الحراس النار على قمة جبل المنظر لإشعار أهالي القرى المجاورة بقدوم سفينة.

وإذا ثبت أن الشيء الذي رآه الحارس كان سفينة فإنه يحصل على دينار ملوكي من الوالي ودينار آخر من الجمرك. أما إذا خانه النظر ولم يكن الشيء سفينة فإنه يتلقى عشر جلدات على ظهره.

وعندما تبدأ السفينة بالاقتراب من صيرة يستقبلها زورق يحمل المبشرين بالأخبار، فيصعدون إلى ظهرها ويحيون ربانها ثم يسألونه عن البلد التي قدم منها وأنواع البضاعة التي يحملها وأسماء الركاب. وبعد أن يرد الربان على تحيتهم واستفساراتهم يسألهم عن اسم والي المدينة وحالة السوق التجارية. ثم يهبط المبشرون ليطوفوا على أهالي الركاب القادمين، ثم يزورون التجار ويخبرونهم بأنواع البضاعة التي تحملها السفينة فينالون أجرهم من الأهالي ومن التجار.

ويصعد كاتب الجمرك ويسجل في ورقة حمولة السفينة وأسماء الركاب ثم يختم عليها ويطلب من الربان أن يوقع عليها. وبعدئذ يذهب الكاتب إلى الوالي ليقدم له البيان. وبعد أن تلقي السفينة مراسيها يصعد إليها نائب الوالي والكشاف الذي يفحص المسافرين ويفتشهم ويبحث بين طيات ملابسهم وعمائمهم وحتى أجسامهم. وترافقه كشافة لتفعل مع النساء ما يفعله مع الرجال. وفي اليوم التالي ينزل الركاب إلى الفرضة.

وبعد ثلاثة أيام ينزل التجار عفشهم وبضائعهم إلى الجمرك حيث يجري العد والوزن، ويقدر رئيس الجمرك قيمة كل شيء ويفرض ما يراه مناسباً من الضرائب.

نظام الضرائب في أيام بني زريع وبني أيوب وبني رسول

خلج المهوندي:

ذكر ابن المجاور في تاريخ المستبصر أن أول من نظم الضرائب في أيام بني زريع يهودي اسمه خلج المهوندي.

فإن الداعي المعظم المكرم أحمد بن علي بن محمد الصليحي لما دخل عدن في سنة 476 هـ (1084م) وانتزعها من حكامها بني معن عين الأخوين العباس والمسعود ابني المكرم الجشمي اليامي الهمداني نائبين له في عدن. فكان العباس مسئولا عن جبل التعكر وباب عدن وما يدخل منه، وكان المسعود مسئولا عن جبل الخضراء وباب البحر وما يدخل منه وأيضاً عن إدارة المدينة.. وأمرهما الداعي أن يرسل كل منهما مدخول خزانته كل سنة إلى زوجته السيدة الحرة الملكة أروى بنت أحمد الصليحي..

ولما كان الأخوان مسئولين أمام الملكة أروى فقد فكرا في إنشاء الدواوين وتنظيم الضرائب على الصادرات والواردات.. وربما أنهما استشارا أهل الفكر في مثل هذه الأمور فوجدوا في خلج المهوندي اليهودي الشخص الذي استطاع أن ينظم لهم الضرائب.

طغتكين والمسعود يوسف:

لم تكن لبني زريع معرفة بالسفن الحربية إلى أن احتل طوران شاه بن أيوب اليمن وعدن في سنة 569 هـ (1173 م) وجاء معه بسفن حربية كانوا يسمونها (شوانى). وحينما مات خلفه في الحكم أخوه طغتكين بن أيوب في سنة 579 هـ (1183م).

وفي أحد الأيام قال أحد الأهالي الأذكياء لطغتكين: (بم تستحل أخذ العشور من التجار؟)

فأجابه طغتكين: (إنني أجري على ما تجري عليه ملوك بني أيوب).

فقال له الرجل: (إنهم كانوا يأخذون الناس بالقوة ولكن خذ أنت ذلك على طريقة يشكرك بها الخلق).

فقال طغتكين: (وكيف ذلك؟)

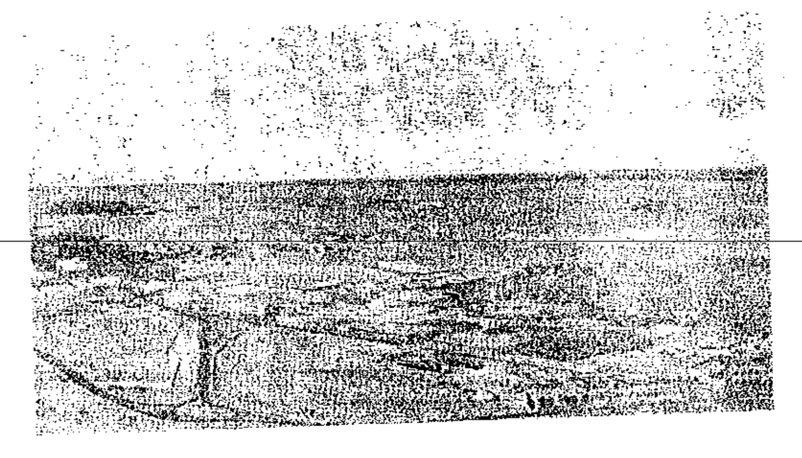
فأجاب الرجل: (أرسل بهذه الشواني إلى البحر لتحمي التجار وتجارتهم من لصوص البحار فيدفع التجار العشور مقابل حراسة الشواني لأموالهم بدل أن تبقى في المرسى تقرع الشمس أخشابها).

واستحسن طغتكين الرأي وأمر بإخراج الشواني إلى بحار الهند لتدافع عن التجار من سطو اللصوص.

واستمر الحال هكذا حتى عام 613هـ (1216م)حينما تولى المُلك الملك المسعود يوسف بن أقصيس بن محمد بن أبي بكر بن أيوب.. فقد دخل عليه أحد أكابر الأهالي وقال له: (خلد الله مولانا السلطان، إنه يصرف كل عام بين خمسين ألف وستين ألف دينار لأجل الشوانى، فإن أخذ المولى هذا القدر من التجار لم يضرهم ذلك).

فقال له المسعود: (وكيف ذلك؟)

فأجابه الرجل: أرى أن تفرض مائة دينار على كل ما تبلغ قيمته ألف دينار - أي عشرة في المائة - من قيمة البضاعة.



ميناء السفن الشراعية والجمرك بالمعلا

فأقر المسعود ذلك الرأي ونفذه وصار ساري المفعول حتى سنة 615 هـ حينما انقرضت دولة بني أيوب.

كانت الأموال التي تتجمع من الضرائب أربعة أقسام في أيام بني أيوب:

1- الضرائب على السفن القادمة من الهند.
2- الضرائب على القبائل الداخلة إلى عدن.
3- الضرائب على الخيول المصدرة إلى الهند.
4- الضرائب على السفن المتوجهة إلى الهند.

وفي أواخر أيام بني أيوب أسس نائبهم عمر بن علي بن رسول دار الزكاة لفرض فرض ضرائب على المواد المعفية من الضرائب وبذلك صارت الضرائب خمسة أنواع.

1- العوائد (العشور).
2- ضريبة الخروج من الفرضة.
3- ضريبة دار الوكالة.
4- ضريبة الزكاة.
5- ضريبة السمسرة أو الدلالة.

ومن بين الضرائب التي كانت مفروضة أنه حينما تباع سفينة يدفع البائع 10٪ من قيمتها كرسوم بيع.

وحينما يباع بيت يدفع المالك ربع قيمته، وبعضهم يقول ثلث قيمته. يضاف إلى ذلك ديناران للإعلان الرسمي.

والمواد المعفية من الضرائب المواد الواردة من مصر: كالبر والسكر والدقيق والرز والصابون والعطور وزيت الزيتون والسليط ولوز الحلويات والعسل إذا كانت كمياته صغيرة.

وكانت كل المواد الواردة من الهند معفية من الضرائب إذا كان سيعاد شحنها من عدن بحرا.

ومن بين المواد المعفية من الضرائب: الفرش والوسائد وأغطية الموائد الجلدية والرز والكشري والسمسم والصابون والسموم والقرنفل والصندل الهندي ومنتوجات الشحر من التمر والسمك المملوح إذا كانت رؤوسه مقطوعة.

وكانت الضرائب لا تفرض على الجواري الجميلات والعبيد الغلمان إذا كانت عيونهم واسعة..

وفي أحد الأيام وصلت سفينة قدرت الضرائب التي على حمولتها بثمانين ألف دينار - أو ما يوازي 56 ألف شلن.

وفي عهد طغتكين فرضت ضريبة على الحديد مقدارها 50٪ ويقال إن أول شخص أخذت منه ضريبة الحديد اسمه أبو الحسين البغدادي.

وفي عهد إسماعيل بن طغتكين فرضت ضريبة مقدارها 12 ديناراً على البهار الواحد بينما كانت سابقاً لا تزيد على دينارين.. وفي عهد أخيه أيوب بن طغتكين كانت الضريبة على كل حصان يورد إلى عدن 50 ديناراً وعند تصديره إلى الخارج تؤخذ عليه ضريبة مقدارها سبعون ديناراً.

حدث أن وصل من مصر الناخوذة عمر الآمدي ومعه حوالي فراسلتين من العود.. ولما جاء وقت المحاسبة قدر ثمن العود بستة دنانير، وفرضوا ديناراً ونصفاً عشوراً، ونصف دينار ضريبة الخروج من الفرضة، وفي دار الزكاة قدرت قيمة العود بخمسة وعشرين ديناراً وفرضوا عليه ثمانية دنانير ضريبة دار الوكالة وديناراً وربعاً ضريبة الزكاة، ونصف دينار سمسرة. وبذلك يصبح الآمدي مديناً بمبلغ ستة دنانير فوق فقدانه لعوده. وصادف أن مر الوالي متفقداً فاستنجد به الآمدي وشرح له أمره، فأمر الوالي بتخفيض المبلغ إلى الربع.

وحدث أن دخل إلى عدن في يوم الأربعاء 26 رجب سنة 624 (1227م) عمر بن علي بن رسول نائباً عن بني رسول متفقداً، وأمر عسكره بنهبها ثم فرض على سعر البهار مائتي دينار وثمانين ملكياً.

وكان النقد المتداول كما يلي:

كانت العملة المتداولة هي: العباسية والمصرية والدينار الملكي الصليحي والدرهم السيفي الذي ضربه طغتكين بن أيوب. وكان أول من أمر بصك الدينار الملكي هو المكرم أحمد بن علي بن محمد بن علي الصليحي. وتفصيل العملة كما يأتي:

- **الدينار الملكي:** يساوي أربعة دنانير ونصف مصري فاطمي.
- **الدرهم :** وقيمة كل أربعة دراهم دينار.
- **الجائز:** وقيمة كل جائز ثلاثة دراهم.
- **الفلس:** وقيمة كل ثمانية فلوس جائز واحد.
- **الدراس:** وقيمة كل أربعة دوارس بفلس.

وكانت المقاييس الكيلية والمعايير الوزنية كالآتي:

1- المد: وهو الوحدة الكيلية الأولى.
2- الثمن.
3- الزبدي.

والمدّ يساوي رطلين، والرطل يساوي ما وزنه 120 درهما، والدرهم يساوي عشرة قراريط.

أما البهار: فقد اختلفو في تقديره؛ فمن قائل إنه يساوي حمولة جمل وإنه يتراوح بين 300 و 400 و 600 رطل.

قصور عدن القديمة

ذكر ابن المجاور في تاريخ المستبصر أن بني زريع أول من بنوا الدور بالحجر والجص. وكان الحجر يجلب إلى عدن من أبين لأجل العمارة، ولم يبدأ استعمال المقلاع إلا حينما قدم إلى عدن أبو الحسن علي بن الضحاك الكوفي.

فلما سكن عدن اشترى عبيدا زنوجا ليقطعوا الحجارة من جبال عدن. وكانت الجواري يحملنها على أعناقهن إلى محل البناء. ومنذ ذلك الحين بدأ أهل عدن يستعملون المقلاع.

دار السعادة:

بناها الملك المعز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب. وهي دار مثلثة الشكل فريدة في نوعها، حتى إن طغتكين خشي أن يبني المهندس مثلها لآخرين فأمر بسمل عينيه، وقطع يده. ويقال إن الدار كانت لتجار من أهل مصر اسمهم بنو الخطباء استوطنوا عدن ثم صارت لسيف الإسلام طغتكين بملك أو بغيره فبناها. ثم صارت الدار للملك المجاهد علي بن داؤد الرسولي. فزاد فيها المفرش البحري فما فوقه.

وفي أثناء حكم بني طاهر أعجبت هذه الدار الملك الظافر عامر بن طاهر فزاد فيها زيادة ممتدة إلى جهة حقات في الطول ومشرفة في العرض إلى جهة الساحل.

وفي أوائل أيام الملك عامر بن عبد الوهاب بن طاهر بني فيها زيادة تشرف على البحر ممتدة إلى الفرضة.

دار البندر:

بناها الملك عبد الوهاب بن داؤد بن طاهر. ويقال إن السبب في بنائها إن الناس كانوا يجلسون في فضاء على الساحل يتفرجون على السفن الداخلة إلى ميناء صيرة والخارجة منها، ومر عبد الوهاب في الساحل ورأى البقعة ثم أمر ببناء الدار التي عرفت بدار البندر.

ويذكر بامخرمة في تاريخ ثغر عدن: أنه كان يوجد حاجز من الحجارة بأعلى البندر خلف مرسى المراكب بناها الأولون بناء محكما لحماية البندر من الأمواج القوية في أيام الأزيب، فإذا جاءت الموجة العظيمة انكسرت حدتها على هذا الحاجز فلا تصل إلى البندر ومرسى المراكب إلا وقد فاشت. وكان البندر بسبب الحاجز آمنا فلما أرادوا بناء دار البندر ظنوا أن وجود الحاجز كان عبثا لا حاجة إليه، واستقربوا تناول الحجارة من الحاجز فقلعوه وبنوا بحجارته الدار فحصل الخلل بالبندر فكانت الموجة تأتي فلا يردها شيء. فلما أدركوا خطأهم ردموا مكان الحجارة وتراب الفوة وغيرها حتى تجبل وصار البندر آمنا.

وبقيت الدار قائمة إلى أن وصل الإفرنج البرتغاليون في سنة 919هـ فاستولوا عليها ونصبوا عليها المدافع وكانوا يرمون منها على البلد فهدمت الدار ثم بنى بدلاً منها الحصن الذي في جبل صيرة وكان بناؤه محكماً.

دار الطويلة:

بناها ابن الحابى على محاذاة باب الفرضة من جهة المغرب يفصل بينها وبين الفرضة فضاء وعلى بابها دكتان مسقوفتان يجلس عليهما كتاب الفرضة، ولم تكن الدار تستعمل للسكن بل كانت متجراً للملوك والأمراء.

دار المنظر:

بناها بنو زريع فوق جبل المنظر وكانت مقراً لملوكهم. وحينما دخل الداعي المعظم محمد بن سبأ بن زريع إلى عدن استقبله حاكم عدن الشيخ بلال بن جرير المحمدي وأسكنه دار المنظر. وذكر هذه الدار الشاعر العدني أبوبكر بن أحمد العندي بقوله:

بالتعكر المحروس أو بالمنظر المأنوس يحمي فرقدا وسماكا

ثم جدد بناءها طغتكين بن أيوب.

دار صلاح:

بناها صلاح بن علي الطائي الذي كان من تجار عدن في أيام بني رسول. وحينما حصل الجور على تجار عدن في أيام الملك الناصر الرسولي، هرب التجار من عدن إلى الهند وغيرها ومن بينهم صلاح فصادر الناصر الدار.

وفي أيام الملك المجاهد علي بن طاهر تحولت الدار إلى متجر كبير وزاد فيها زيادة كبيرة وأضاف إليها مخازن واسعة من جهات حقات. وفي أيام الملك عامر ابن عبد الوهاب زاد فيها من الشرق.

دار الخضراء:

بناها بنو زريع فوق جبل الخضراء وكانت تسكنها الحرة بهجة أم الملك علي بن أبي الغارات.

ولما احتل عدن سبأ بن زريع صعد نائبه الشيخ بلال بن جرير المحمدي إلى الدار وأنزل الحرة بهجة واستولى على الدار وما فيها من أموال كثيرة.

باب عدن

تقول الأسطورة: إن شداد بن عاد لما وجد أنه لا يمكنه الدخول إلى (وادي عدن) أمر بأن ينقر له باب في صدر الوادي، فأقام على حفر نهر ونقر باب رجلان قال حكماء الهند إنهما عفريتان من الجن.

واستمر الحفر والنقر سبعين عاما، وفي النهاية قال ناقر الباب: إنه بمشيئة الله سوف يتم عمله في الغد، أما حافر النهر فقال: إنه سوف يتم حفر النهر في الغد شاء الله أم لم يشأ، وفي الحال ارتدم ما حفر وما بني وانسد معين الماء من الأصل.

أما ناقر الباب فقد أتم عمله وفتح الباب وصار شداد بن عاد يدخل إلى (وادي عدن) ثم حول شداد هذا الوادي إلى سجن يحبس فيه خصومه.

ذكر المؤرخ اليمني الهمداني: أن عدن أقدم أسواق العرب وهو ساحل محاط بسلسلة من الجبال لا يمكن لأحد أن يدخل إلى المدينة إلا إذا تسلق جبل التعكر الذي يفصل المدينة عن البر، فدعت الضرورة إلى القيام بقطع الصخر الأصم في أوطأ جزء من الجبل وأحدثوا به ثقبا بالمطارق الحديدية والأزاميل وجعلوا فيه بابا أطلقت عليه عدة أسماء في عهود مختلفة منها: (باب البر) و (باب اليمن) و(باب عدن) بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

وحينما احتل العثمانيون اليمن وعدن وسعوا الثقب وأقاموا فيه ثلاثة أبواب ضخمة متتالية أولها مصنوع من الحديد وينزلق من أعلى إلى أسفل. وكان الحراس يحرسونها ليل نهار خوفا من الهجوم المفاجئ من البر.

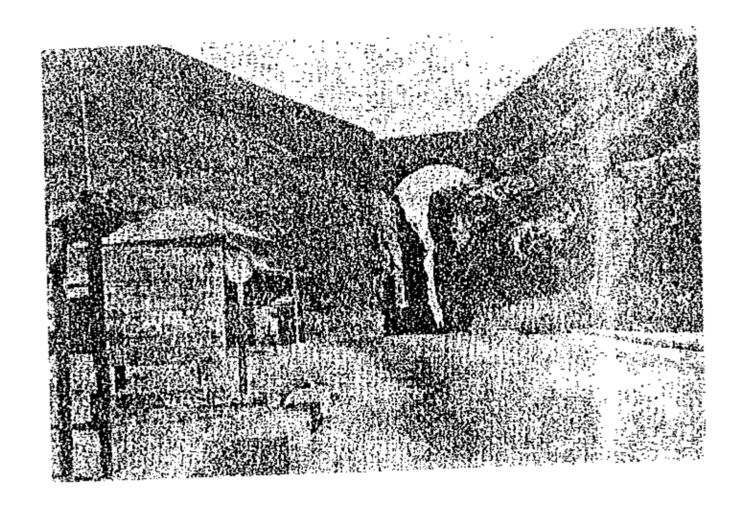
وكان المدخل ضيقا وطريقه غير معبدة، وبعد الاحتلال الإنكليزي بست سنوات وسعه الإنكليز فاستطاعت جواري الجمال والخيل أن تمر فيه.

وبعد اختراع السيارات زادوا في توسيعه وعبدوا طريقه بالأسفلت. وفي سنة 1957م زادوا في توسيع الباب حتى صار يتسع لمرور سيارتين ضخمتين متقابلتين.



باب عدن كما هو اليوم

والأهالي يسمون الباب (باب عدن) ويسمون الطريق الممتدة إليه (العقبة) أما رسمياً فإنه يسمى (الممر الرئيسي - مين باس).



باب عدن كما هو اليوم

حياة عدن الماضية

قدم إلى عدن في أيام بني رسول الرحالة العربي المشهور ابن بطوطة، وقد وصفها بأنها مرسى بلاد اليمن وتقع على ساحل البحر الأعظم، والجبال تحيط بها ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد. وأنها مدينة كبيرة لا زرع بها ولا شجر، ولا ماء، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر، والماء على بعد منها، فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب. وهي شديدة الحر. وعدن مرسى أهل الهند تأتي إليها المراكب العظيمة، وتجار الهند ومصر ساكنون بها. وأهل عدن ما بين حمالين وصيادين للسمك، وللتجار منهم أموال عريضة. وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة.

وقال ابن بطوطة: إن أحد تجار عدن بعث غلاما له ليشتري له كبشا.

وفي نفس الوقت بعث تاجر آخر غلامه ليشتري له كبشا. والتقى الغلامان في السوق ولم يكن فيه في ذلك اليوم غير كبش واحد. وتنافس الاثنان في شرائه ووقعت فيه المزايدة فارتفع ثمنه إلى أربعمائة دينار فأخذه أحدهم وقال: (إن رأس مالي 400 دينار فإن أعطاني مولاي ثمنه فحسن وإلا رفعت رأس مالي ونصرت نفسي على صاحبي). وذهب الفائز بالكبش إلى سيده، فلما عرف بالقصة أعتقه وأعطاه ألف دينار. أما الغلام الآخر فعندما ذهب إلى سيده وعلم بما وقع ضربه وأخذ ماله ونفاه عنه.

وذكر ابن بطوطة: أنه نزل ضيفاً على تاجر اسمه ناصر الدين الفأري فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار وله غلمان وخدم أكثر من ذلك. وقال: (ولقيت بمدينة عدن قاضيها الصالح سالم بن عبدالله الهندي وكان والده من العبيد الحمالين واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد وهو من خيار القضاة وفضلائهم، أقمت في ضيافته أياما وسافرت).

وقال أيضاً: إن أهل عدن رغم غناهم فهم أهل دين وتواضع ومكارم أخلاق، يحسنون إلى الغريب ويؤثرون الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب.

ووصف صلاح الدين بن الحكيم عدن كميناء تجارية نشيطة. وقال: (ولا ينقضي أسبوع إلا ويدخل إلى الميناء عدد من السفن فيزورها التجار حاملين بضائعهم المتنوعة. ويكسب أهلها أرباحاً كبيرة. وحين يتهيأ ربان للسفر فإنه

يرفع راية ليجتذب أنظار التجار الذين يسرعون إلى الساحل ووراءهم عبيدهم يحملون الملابس الثمينة والأسلحة النافعة. وتقام أسواق على الساحل ويأتي الأهالي ليتفرجوا.

دول جنوب الجزيرة العربية

تتكون جنوب الجزيرة العربية الواقعة تحت النفوذ البريطاني من مساحة تقدر بحوالي مائة وأثنى عشر ألف ميل مربع ويمتد شاطئها حوالي ستمائة ميل من حدود سلطنة مسقط وعمان شرقاً حتى حصن مراد عند باب المندب في مواجهة جزيرة ميون (بريم).

والتقسيم السياسي لمناطق جنوب الجزيرة العربية هو كما يلي:

1- **مستعمرة عدن**: وتضم الشيخ عثمان والتواهي والمعلا وعدن الصغرى ومدينة عدن وعدداً من القرى.

2- **محمية عدن الغربية وتشتمل على**: سلطنات وإمارات ومشيخات يافع والعوالق والعبادل والصبيحة والعقارب والضالع والشعيب والحواشب والفضلي والعواذل وبيحان ودثينة.. وتقدر مساحة هذه المناطق بحوالي أربعين ألف ميل مربع.

3- **محمية عدن الشرقية**: وتتكون من سلطنة حضرموت الساحل (القعيطي) وسلطنة حضرموت الداخل (الكثيري) وسلطنة بير علي وبالحاف (الواحدي) وسلطنة قشن وسقطرة (المهرا) ومشيخة عرقة وحورة. وتقدر مساحة هذه المنطقة بحوالي اثنين وسبعين ألف ميل مربع.

وفيما يلي وصف للقبائل التي تعيش في هذه المناطق:

يافع:

تقع في الشمال الشرقي لمدينة عدن وتمتد بين الضالع في الغرب والعواذل في الشرق والفضلي في الجنوب. ويقدر عدد السكان بحوالي مائة وأربعين ألف نفس. وتنقسم يافع إلى ناحيتين هما:

(يافع العليا): وتشتمل على قبائل الموسطة والظبي والمفلحي وفخائذهم ويدينون بالطاعة لآل هرهرة الذين يقيمون في المحجبة في الموسطة.. وأرض يافع العليا زراعية تنتج الفواكه والحبوب والورس والتوابل والسمن والزيت والبن.

(يافع السفلى): وتشتمل على قبائل آل سعد وآل كلد والناخبي واليزيدي وغيرهم، وهي أرض جبلية ذات تربة خصبة تنمو فيها أشجار البن والفواكه

والحبوب. والأهالي يدينون بالطاعة لآل عفيف وعاصمتهم (القارة) التي تقع في قمة هضبة مرتفعة.

العوالق:

تقع في شرق الفضلي والعواذل ويحدها جنوباً بحر العرب وشمالاً بيحان وسلطنة الواحدي شرقاً. وتنقسم أرض العوالق إلى ناحيتين:

(العوالق العليا): وهي منطقة جبلية وسهول فسيحة ذات تربة خصيبة. أهم قراها: نصاب العاصمة ويشبم والصعيد والمصينعة وخدرة، وأهم أوديتها: وادي يشبم الذي يمر بمدينة حبان في سلطنة الواحدي.

(العوالق السفلى): وتقع على مقربة من الساحل وعاصمتها أحور التي ترسو السفن الشراعية على مرساها الصغير. ومن قراها الهامة المحفد التي تعتبر السوق الرئيسية لقبائل آل باكازم. وأهم أوديتها: وادي ضيقة الطويل ووادي المحفد ووادي المنقعة.

العبادل:

تقع أرض العبادل، أو سلطنة لحج، في الشمال الغربي لمدينة الشيخ عثمان، ويحدها غرباً منطقة الصبيحة وشرقاً منطقة الفضلي. وعاصمتها الحوطة - وتسمى لحج أيضاً - وهي تشمل حياة المدنية الحديثة وحياة البداوة التقليدية. وأرض العبادل خصبة التربة تنتج أنواعاً كثيرة من الفواكة والحبوب والقطن بفضل واديها المعروف (تبن) الذي ينحدر ماؤه من جبال اليمن في أواخر فصل الأمطار. ويتفرع هذا الوادي إلى فرعين: الوادي الكبير الذي يسير بمحاذاة بساتين الحسيني الخضراء ويتجه جنوباً. والوادي الصغير الذي يتجه شرقاً ماراً بقرية الثعلب. وأهم قرى العبادل: المجحفة والحمراء والمقيبرة والخداد وصبر وجلاجل ودار صعد والفيوش والشقعة والرعارع. أما قرية الوهط فتعتبر الثانية في الأهمية بعد الحوطة ويسكنها كثير من السادة واشتهرت بالعلماء والقضاة وأولياء الله الصالحين. وفي الوهط قبور عمر بن علي والشيخ صلاح وعبدالله بن حسن. وأهم قبائل لحج: العزيبة والأسلوم والبان والمناصرة والأصابح وغيرهم.

الصبيحة:

تقع بجوار أرض العبادل وتمتد على الساحل من باب المندب حتى رأس عمران. ويبلغ سكانها حوالي عشرين ألف نسمة. وأهم قراها: طور الباحة والرجاع ودار القديمي. واشتهرت بالنخل والتربة الخصبة وغيول الماء.. وقد انضمت إلى سلطنة لحج. والصبيحة ينتمون إلى الحميريين.

العقارب:

هم بنو عقارب بن ربيعة بن سعد بن خولان بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير. عدد السكان لا يتعدى ثلاثة آلاف نفس. وتمتد أرض العقارب على بعد ستة أميال من الشيخ عثمان من البقعة التي تقع فيها قرية بير أحمد حتى رأس عمران من ناحية البر، ومن مقربة من قرية الحسوة إلى مقربة من قرية فقم من ناحية الساحل. وكانت أرض العقارب تشمل: بير أحمد العاصمة والحسوة وجبل إحسان والبريقة والغدير وفقم، قبل أن يشتريها الإنكليز كما ذكرنا في فصل آخر. وفي عام 1959م تم الاتفاق بين شيخ أرض العقارب ورؤساء الاتحاد الفيدرالي على بناء عاصمة الاتحاد في أرض العقارب بالقرب من الطريق المؤدية إلى عدن الصغرى. وستسمى المدينة (الاتحاد).

الضالع:

إمارة الضالع أو المنطقة الأميرية تقع شمال عدن. والعاصمة هي مدينة الضالع، وعلى مقربة منها يربض جبل جحاف الذي يبلغ ارتفاعه ثمانية آلاف قدم عن سطح البحر. وبه نحو أربعين قرية صغيرة.

وأرض الأميري خصبة تنتج الذرة والقات وبعض الفاكهة.

الحواشب:

تقع شمال سلطنة لحج وعاصمتها المسيمير ويبلغ عدد سكان أرض الحواشب حوالي عشرة آلاف نفس. وتشرف العاصمة على الجانب الأيسر لوادي تبن وتزرع على حوافيه الذرة وبعض أنواع الحبوب الأخرى.

الفضلي:

تنقسم بلاد الفضلي إلى ناحيتين: منطقة الساحل التي تمتد حوالي مئة ميل من حدود العبادل حتى حدود العوالق السفلى، والمنطقة الداخلية الجبلية.. وعرفت بلاد الفضلي بساحل أبين الشهير في تاريخ جنوب الجزيرة العربية. وعاصمة الفضلي هي شقرة مقر سلاطين البلاد وهي تقع على الساحل. ومن أهم قرى الفضلي: زنجبار التي تطورت مع الزمن فصارت مركزاً للحكومة فأقيمت فيها العمارات الحديثة وشقت الطرق المعبدة وأنيرت بالكهرباء. والأرض حول زنجبار حتى مسافات بعيدة خصبة تنتج كميات وافرة من الفواكه والخضراوات والقطن والحبوب بفضل وادي بنا الذي يلتقي ماؤه من الجبال الواقعة إلى الشمال.

العواذل:

تقع بين سلطنة الفضلي جنوباً وسلطنة العوالق شرقاً وسلطنة يافع غرباً وعاصمتها لودر.

واشتهرت أرض العواذل بجبل الظاهر الذي يبلغ ارتفاعه 8000 قدم عن سطح البحر وتربض فوقه القرية الصيفية الجميلة مكيراس التي تقع على بعد يسير منها قرية العادية التي بنيت فوق أطلال مدينة قديمة ما زالت آثارها باقية إلى اليوم. ومن قراها: عريب ذات الجو المعتدل في فصل الصيف.

وأرض العواذل تنتج الفواكه والبطاطس والبصل والحبوب والخضراوات وتعتمد كثيراً على مياه وادي العجمة.

بيحان:

تقع شمال العوالق وغرب حضرموت وشرق اليمن وعاصمتها بيحان. وفي الشمال الشرقي يمتد الربع الخالي برماله الكثيفة. وفي الشمال الغربي تقع مدينة مأرب التي اشتهرت في التاريخ بسد مأرب الذي بناه السبئيون.

وقد كانت منطقة بيحان مهداً لحضارة زاهرة قامت جنباً إلى جنب مع مدنيات سبأ وحمير وحضرموت، واشتهرت باسم الدولة القتبانية، وعاصمتها القديمة (تمنا)، وما زالت تستخرج من جبل نقوب كثير من الآثار الدالة على ما كانت تتمتع به من حياة راقية. ويدين أهل بيحان بالطاعة للأشراف آل الهبيلي.

وقبائل بيحان هي: بلحارث والمصعبين والأخيرة تتكون من ثلاثة فروع هي: آل حميد وآل العريف. وأهم قرى ومناطق بيحان هي: القصاب وعين والحجب وخر وموقس والنحر والحرجة وعسيلان.

دثينة:

تقع بين العواذل والعوالق، وتختلف عن بقية السلطنات والإمارات والمشيخات في أن نظام الحكم فيها شبه جمهوري يتكون من مجموعة من الرجال ذوي الرأي الصائب. وهي أرض زراعية ذات تربة خصبة، وقبائلها هي: السعيدي والميسري والحسني، وأهم قراها: الخديرة ومودية والجبلة والقليتة.

الواحدي:

تقع على بعد مائتي ميل شرق عدن وغرب حضرموت وعاصمتها حبان التي تعتبر من المراكز التجارية الهامة. وتقع (بئر علي) على الساحل وهي مرسى للسفن الشراعية. وإلى غربها تقع بالحاف وإلى شرقها المجدحة.

وأهم قبائل الواحدي: آل السود وآل باعوضه وآل العظم وآل باخرخور وآل سليمان وآل حبتور وآل عمر بن علي وآل باديان.

وأهم قراها: الروضة والحوطة ولهية وجول الشيخ ورضوم ويبعث وجردان.

والأرض زراعية تسقيها مياه الأمطار والعيون في أودية حبان وجردان ورضوم والجوري وعين بامعبد. وتنتج التمر والحبوب والعسل.

وإلى جانب اهتمامهم بالزراعة فإن أهل الواحدي يعملون بالتجارة، وصناعة النسيج.

المهرا:

تقع على الساحل الشرقي ويحدها غربا حضرموت وشرقاً سلطنة مسقط وعمان وجنوب بحر العرب وشمالاً المناهل التابعة لحضرموت. وعاصمتها (قشن) الواقعة على الساحل، ومن أهم مدنها سيحوت والغيضة. أما السلطان فيقيم في جزيرة سقطرة وينوب عنه في قشن أحد أقاربه.

وقبائل المهرا يتفاهمون بلغة خاصة بهم يعتقد بأن لها علاقة باللغة الحميرية القديمة. وهم يعتمدون على تربية الماشية وعلى صيد الأسماك.

حضرموت

تقع على ساحل البحر العربي شرقي عدن واليمن ودول الجنوب، على بعد 15 درجة عرضاً شمال خط الاستواء و 50 درجة طولا شرقي جرينتش. ويحدها شرقاً: سيحوت وسلطنة قشن وغرباً بئر علي وبالحاف وشمالا الربع الخالي وجنوباً بحر العرب.

وتنقسم حضرموت إلى سلطنتين رئيسيتين هما: حضرموت الساحل وحضرموت الداخل:

(حضرموت الساحل): وتدين بالطاعة لسلاطين آل القعيطي وتتفرع إلى ستة ألوية هي لواء عرمة ولواء المكلا ولواء الشحر ولواء حجر ولواء دوعن ولواء شبام. والعاصمة هي المكلا الواقعة على الساحل.

(حضرموت الداخل): وتدين بالطاعة لسلاطين آل الكثيري وتقع بين تريم شرقاً إلى الحزم شرقي شبام غرباً وتمتد من تريم شمالاً إلى حصن الضبيعة. وأهم مدنها وقراها: سيئون العاصمة وتريم ومريمة وتريس والغرفة والحوطة وغيل عمر وغيل بن يمين.

والحضارمة أهل فكر وتدبير ومغامرة اشتهروا بالتجارة والهجرة إلى خارج البلاد، وكان لهم الفضل في نشر الإسلام في كثير من بلدان الشرق الأقصى حيث أسسوا جاليات كبيرة محترمة. والحضرمي فخور ببلاده وبقومه ومهما غاب عن وطنه فإنه يحن إلى بلاد الأجداد ويتمسك باللهجة الحضرمية في حديثه.

وليست الحضارة جديدة على الحضارمة فإن حضرموت كانت مهدا لحضارة مجيدة ما زالت آثارها تستكشف، وتكشف عن مدينة عظيمة وفن معماري راق.

ويتكون معظم القسم الداخلي لحضرموت من أودية فسيحة أهمها حضرموت حيث تقع المزارع الواسعة التي تنتج القمح في الشتاء، الذرة في الصيف. ومن أودية حضرموت: وادي دوعن ووادي هينن ووادي عمد ووادي دهر ووادي عرمة ووادي ابن علي ووادي العين ووادي حجر.

وأهم ما يزرع في الساحل: الحبوب على اختلاف أنواعها والخضروات والفواكه، وتحتل النخيل مساحات واسعة من هذه الأراضي كما يزرع التمباك في بعض المناطق وبالأخص في غيل باوزير.

نهاية الكابتن هينس

في يناير سنة 1839م احتل الكابتن هينس عدن وصار أول معتمد بريطاني ووكيل لحكومة الهند البريطانية، وكان يحصل على راتب شهري مقداره ألف وستمئة روبية ثم ارتفع الراتب إلى ألفين.

وعاش هينس في وادي الخساف في منزل صار فيما بعد دار ضيافة للزائرين من رؤساء القبائل ثم تحول إلى مقر لدائرة العمل والشؤون الاجتماعية.

وقد عرف هينس ببعد نظره وصواب حكمه على الشخصيات التي تعامل معها، كما عرفت عنه سياسة (فرق تسد) التي استعملها مع رؤساء القبائل ليشغلهم ويضرب بعضهم ببعض حتى يشعروا بأن لا غنى لهم عن بريطانيا ونصحها ومالها وسلاحها.

وقد أسس هينس إدارة الجمرك تحت إشراف موظف عربي يعاونه موظف يهودي. وحين توسع العمل عين عدداً من الهنود المعروفين بالأنجلو - إنديين. وقد ظهر فيما بعد أن هؤلاء الموظفين قد تلاعبوا بمالية الجمرك فطردهم هينس من العمل بحجة الاختلاس.

وكان الدور الذي قام به أولئك الموظفون السبب في التعجيل بنهاية هينس، فقد جرت عادة هينس أن يقدم قروضاً لربابنة السفن ويكتب تقارير يرفعها إلى حكومة الهند. ويظهر أنه كان يحس بما يجري من تلاعب في المالية فطلب من حكومة الهند أن ترسل إليه بخبراء لإدارة حسابات الجمرك ولكن دون جدوى.

وفي نهاية سنة 1853م أرسلت حكومة الهند بعثة من المحاسبين لتفتيش دفاتر المالية فوجدت عجزاً كبيراً فيها. وبما أن هينس ومساعده الأول الملازم كرو تندن كانا من ضباط الأسطول الهندي فقد استدعتهما حكومة الهند للتحقيق معهما.

ووجهت إليهما تهمة الاختلاس في قضيتين جنائيتين وحوكما في بمبي فبرأهما المحلفون من تهمة الاختلاس، ولكن المحكمة رأت أن هينس كان

المتسبب في العجز في المالية وأن عليه أن يسدده . ولما لم يستطع هينس أن يفعل ذلك فقد أمرت المحكمة بسجنه في (حبس الدين).

ويقي في الحبس ست سنوات ولم يطلق سراحه إلا لأن صحته كانت قد تدهورت، وقضى في خارج السجن ستة أشهر مات بعدها في 16 يونية سنة 1860م وهو في الثامنة والخمسين من عمره. وبعد وفاته أقامت له حكومة الهند مشهداً في مقبرة كولابا في بمبى.

القــــات

قال الدكتور جيمس فوجان الذي كان طبيبا في المستشفى الأهلي ومستشفى الميناء في سنة 1859م: إن القات مادة مخدرة تجلب إلى عدن من ناحية البر وتستعمل بكثرة وخصوصاً بين العرب كمنبه سار. وهو يصل على ظهور الجمال في ربط كل رابطة تحتوي على عدد من الطرود في كل طرد حوالي أربعين غصنا أوراقها مضمومة بعناية حتى لا تتعرض للجو بقدر الإمكان. والأوراق هي التي تؤكل، وعندما تمضغ فإنها كما يقال تسبب مرحا وحالة تيقظ وانتباه مرغوبة.

ومن كمية القات المستهلكة في عدن وحدها يمكننا أن ندرك مدى ما تتمتع به هذه المادة من تقدير وإقبال عند الأهالي وخصوصاً بين العرب. فإن عدد الأحمال التي تصل على ظهور الجمال تبلغ 280 حملا في السنة. ويبلغ سعر كل ربطة روبية وربعا. وكانت الضريبة التي تحصل عليها الحكومة 1500 روبية في السنة. (كان هذا منذ مئة سنة حينما كان عدد السكان حوالي عشرين ألف نسمة. ثم في سنة 1867م بلغت الأحمال 1200 وكانت الضريبة 8000 روبية).

ويعتقد أن اليمنيين عرفوا القات بعد احتلال الأتراك العثمانيين لليمن في سنة 945هـ (1538م).

وفي سنة 1762م وصلت إلى اليمن بعثة أوروبية برئاسة العالم الدنمركي (نيبور) وكان من أفرادها عالم سويدي مختص بالنباتات اسمه بيتر فورسكال الذي اكتشف القات، وقد وصفه كفصيلة تنتمي إلى جنس (بنتاندريا) ولاحظ نوعين منها سمى أحدهما (كاثا إيدوليس سكال) والثاني (كاثا سبينورا)، ولم يذكر فورسكال فيما إذا كانت شجرة القات يمنية الموطن، بل قال

إنها تنمو في نفس التربة التي تنمو فيها شجرة البن وإن القات يزرع بغرس أعواد تقطع من شجرته.

وإلى جانب التأثير الذي يسببه القات فإن العرب كما ذكر فورسكال يعتقدون بأن الأرض الذي تنمو فيها شجرة القات تكون محصنة ضد الطاعون وأنه إذا حمل شخص غصن القات على صدره حماه من العدوى.

والقات: كالقهوة في التأثير والنشوة، كان موضوعاً لعلماء المسلمين الذين اختلفوا في الحكم فيما إذا كان لا يتعارض مع أوامر القرآن فيما يخص الخمر.

ويقول دي هربيلوت بأن المشروب المعروف باسم الكفتة حرم في اليمن بسبب تأثيره على المخ، ومن ناحية أخرى قرر جماعة من كبار العلماء بأن مشروب الكفتة والقات لا يؤثران على صحة الإنسان ولا يعرقلان تأدية المسلمين للفروض الدينية، بل يزيدان من النشوة والمرح، فإن استعمالهما لا يتعارض مع الشرع، وكذلك بالنسبة للمشروب المصنوع من حبوب البن.

وترى بعض المصادر أن شجرة القات حبشية الأصل وأن الذي أدخلها إلى اليمن متصوف حضرمي اسمه إبراهيم أبو زربين. وتقول مصادر أخرى: إنها جاءت إلى اليمن مع الفتح الحبشي في سنة 525م أي قبل الإسلام بحوالي تسعين سنة.

والقات والبن نبتتان تنموان في أجواء خاصة فإن نقلتا من جوهما إلى جو آخر تغير طعمهما ولونهما وحجمهما، وهما في ذلك لا تختلفان عن النباتات التي تستقطر منها المنبهات.

وليست برودة الجو أو حرارته أو اعتداله من لوازم نمو القات بل إن الارتفاع المناسب للقات يتراوح بين ثلاثة آلاف وستة آلاف قدم عن سطح البحر.

والقات من فصيلة (أرابتوس سيلا ستراشيا) ودليل انحطاطه في سلم التطور الحيوي أنه لا بذر له ولا زهر بل يزرع بواسطة قطف أغصانه وغرسها. وطريقة زراعته: أنه يغرس في أخاديد تسقى بماء غزير وتصفى من الرمل والمواد الطفيلية الضارة وتغذى بكميات وافرة من السماد. ويلزم أن يكون بين كل عود وعود مسافة لا تقل عن 4 أو 6 أقدام. وحين تنمو يبلغ طولها من 15 إلى 25 قدماً وتترك أربع سنوات ثم تقطف أوراقها. وبعض أنواع القات يعيش شجرها 16 سنة ثم يقطع رأسها وتعيد سيرتها الأولى.

وقد ذكر العالم الطبيعي ألبرت بيتر، من جامعة ستراسبورغ: أن القات يحتوي على بلورات قلوية حادة الطعم عديمة الرائحة وتحتوي على أسيتات القاتين وسلفات القاتين وبروميد القاتين وساليسلات القاتين وحامض الثنيك وسكر المن والزيت.

والكلمة قاتين مأخوذة من اللفظة (قات) وهو من فصيلة بيورين القلوية وتتألف من الكربون والهيدروجين والنتروجين ومن أمثالها الاستراكنين والكافايين (القهوة) والنيكوتين (التمباك) والكوكايين.

وهذه المواد تسبب اختلالا في الدورة الدموية وسوء الهضم وجفاف البول وازدياد خفقان القلب والتأثير على الأعصاب.

وقال الكرنل نيسن في عدن في عام 1933م في تقرير له: إن الملاريا والقات هما أسباب تحجر الكبد، والقات الوارد إلى عدن نوعان:

الحبشي، وأنواعه: البستاني والهرري والجراجي و الهولشي و وليسو و موجو وباليلبتي.

اليمني، وأنواعه: العصري والحدي والروضي والعفشي والتعزي والصناحفي والمشرعي والمقراضي والمقطري والصبري، وهذا الأخير ينقسم إلى ثلاثة أنواع: الشرو والمبرح والمثاني.

وفي خلال الحملة التي شنتها دار صحف فتاة الجزيرة في سنة 1956م على القات والمطالبة بإصدار تشريع بمنعه: قمت بدراسات حول القات ثم كتبت عدداً من التقارير الصحفية في مارس من تلك السنة وضحت فيها الأضرار التي نقاسيها من جراء شراء القات ومضغه. وذكرت أن عدن صرفت على القات حوالي سبعين مليون شلن في السنوات 1950/ 1951/ 1952/ 1953/ 1954م، أما في سنة 1955م وحدها فقد صرفت أربعين مليون شلن. وذكرت أن المولعي أو المدمن يصرف أربع ساعات يومياً في مضغ القات، ومعنى هذا أنه صرف في الست السنوات المذكورة ما يعادل 337 يوما من عمره ذهبت سدى دون أن يستغلها في عمل مهم يفيده ويفيد بلاده.

سكان عدن قديماً وحديثاً

عدن قبل الإسلام وبعد الإسلام:

إن المؤرخين والرحالة العرب الذين سجلوا الحوادث التي وقعت في عدن في مختلف الحقب الماضية لم يذكروا لنا شيئاً عن عدد سكان هذه البلاد في تلك الأيام الخوالي. وربما أن ذلك يعود إلى أن نظام إحصاء السكان لم يكن معروفاً ومعمولاً به حينذاك. إلا أن ما نعلمه من مدينة عدن الزاهرة وما نراه من الصهاريج العديدة المختلفة الأشكال التي بنيت قبل بزوغ الدعوة الإسلامية يجعلنا نخمن عدد السكان بخمسين ألفا وربما أكثر.

وإنني أعتقد أن سكان عدن ازدادوا بعد الإسلام للأسباب التالية:

(أولاً) بناء مزيد من الصهاريج لحفظ كميات أكبر من الماء.

(ثانياً) العدد الضخم من المساجد والمدارس التي كانت في عدن والتي مازال بعضها قائماً إلى يومنا هذا.

(ثالثاً) المبالغ العظيمة التي كانت تجمع من الضرائب والعوائد والتي بلغت في وقت من الأوقات أكثر من ثلاثمائة ألف دينار ذهبي.

(رابعاً) عدد الآبار التي كان يستخرج منها الماء العذب بلغ 180.

العيدروس والقطيع:

لقد كانت الميناء القديمة تقع في ساحل صيرة (الخليج الأمامي) وكانت المناطق المتاخمة للميناء وهي حافة القطيع وحافة العيدروس أكثر ازدحاما بالسكان من غيرها من مناطق مدينة عدن. وكانت تعرف في تلك الأيام باسم (حرم الشوك) بسبب كثرة أشجار الشوك التي كانت تنمو في القطيع.

وفي الصورة التي رسمها الضابط الفنان الفينيسي أثناء الحملة البرتغالية على عدن تظهر لنا مدينة عدن محاطة بسور عال يمتد من جبل الخضراء حتى جبل المنظر، ومن هناك على طول الساحل حتى جبل التحكر، ووراء السور تقع مدينة عدن وقد امتلأت بالمنازل والمساجد والمنائر العالية من جبل حقات إلى وادي الخساف ومن ساحل صيرة إلى وادي الطويلة. وأمام السور على الشاطئ نرى سفن الغزو البرتغالية وقوارب الصيادين وقد انتشرت على طول الشاطئ.

وذكر لنا المؤرخ ابن المجاور أنه في سنة 1228م كان السكان يملأون الفضاء من سفح جبل الخضراء طولاً وعرضاً.

وكان سكان عدن خليطاً من العرب ويهود اليمن وقليلاً من التجار الهنود والمصريين، وفي أيام حكم بني أيوب وصل مئات من الجنود المصريين والغز والأكراد واستوطن بعضهم عدن.

وازدهرت عدن كمركز تجاري عظيم الأهمية في عهد نائب الأيوبيين أبي عمر عثمان بن علي الزنجبيلي الذي دعا تجار مصر والهند إلى القدوم إلى عدن واستيطانها.

وحين غزا الأتراك العثمانيون عدن وصل إليها عدد من الأكراد والترك والشراكسة والمصريين وجعل بعضهم عدن وطناً لهم.

عهد الأئمة والعبادل:

بدأ سكان عدن يتناقصون بعد أفول الدولة العثمانية والحرب الضروس بينهم وبين أئمة اليمن، وانتشرت الفوضى في اليمن وعم الاضطراب وتكررت محاولات الحكام والرؤساء لغزو عدن، مما جعل العيش فيها غير محتمل فاضطر تجارها إلى الهجرة منها خصوصاً بعد قيام الدولة العبدلية برئاسة الشيخ فضل ابن علي السلامي. وانكمش عدد سكان عدن انكماشاً كبيراً حتى وقع الغزو البريطاني في سنة 1839م وكانت عدن حينذاك قد تخربت وتحولت إلى قرية صغيرة ضئيلة الشأن.

تقرير الكابتن هينس:

ذكر الكابتن هينس في تقرير له رفعه إلى حكومة الهند في يناير سنة 1839م أن عدد سكان عدن كان 600 نفس منهم 180 يهودياً وبين 30 و 40 من الهندوس البلنيان والبقية بين عرب وصومال.

وأعتقد أن العرب كان عددهم أكبر مما قدره هينس، وذلك لسببين:

(أولا) أن العرب الذين يفخرون بالذكور من أولادهم لم يقدموا العدد الصحيح للإناث أو أنهم لم يقدموا العدد الصحيح من الذكور والإناث خوفا من أن يؤخذوا رهائن.

(ثانياً) قبل الاحتلال بأيام وفي يوم الاحتلال غادر عدن عدد كبير من السكان إلى لحج وإلى القرى المجاورة.

وبعد ستة أشهر من الاحتلال الإنكليزي وقع سلطان لحج معاهدة صداقة وسلام مع الإنكليز، ومن ثم بدأ الناس يتدفقون على عدن وعاد إليها أهلها الفارون من الحرب، ولم يحل شهر سبتمبر من نفس السنة حتى كان العدد قد ارتفع إلى ألفين وثمانمائة وخمسة وثمانين. وفي شهر مارس من السنة التالية (1840م) بلغ العدد أربعة آلاف وستمائة نسمة.

الاضطرابات في اليمن:

في بداية سنة 1840م تم جلاء الجيش المصري عن اليمن، وبانسحابهم منها اختلت الأحوال وانتشرت الفوضى والقلاقل، وشعر الناس في اليمن بعدم الاستقرار. وكان الإمام الهادي في حالة ضعف شديد حينما تمكن أمير (أبو عريش) الشريف الحسين بن علي حيدر من احتلال جزءٍ من التهائم اليمنية بما في ذلك المخا والحديدة وزبيد. وكان الشريف شديداً قاسياً، فرض الضرائب الباهظة على التجار والأهالي بحجة أنه يقوم بإعداد جيش كبير ليهجم به على عدن وينتزعها من أيدي الإنكليز، فضاق الحال بالناس وبدأوا يفرون من المخا والحديدة إلى عدن. وانتشرت الأمراض في اليمن وانعدم الدواء فخشي الشريف على رجاله وأمر جميع السفن الراسية في المخا والحديدة بإفراغ شحناتها ونقل المرضى فقط إلى عدن. وكان معدل الداخلين إلى عدن يبلغ 1200 نسمة كل شهر.

أجناس مختلفة:

ارتفع عدد السكان وبدأت مدينة عدن تتوسع وبلغ عدد البيوت ألفين بنيت من الحجارة والنورة والطين فوق بقايا عدن القديمة. وفي سنة 1842م بلغ عدد السكان خمسة عشر ألف نسمة وانتعشت عدن واستعادت بعض مجدها الغابر بعد إعلانها ميناء حرا مفتوحا في سنة 1850م، وجرى إحصاءٌ رسمي لسكان عدن في سنة 1856م فكان العدد عشرين ألفاً وستمائة وأربعاً وخمسين نسمة. وفي سنة 1872 جرى إحصاء آخر فكان السكان 19289 وعدد الجنود 3433

ويتكونـون مـن 8241 عربيـاً - صـومالياً - 2614 هنـدياً مـسلماً - 1435 يهوديا - 851 هندياً بانيان - 182 بريطانياً مدنياً - 121 هندياً فارسياً.

أمـا البـاقون فكانوا مـن الأتـراك والإيـرانيين والمصريين والكـرد والـصينيين وبعض الأوربيين وأمريكي واحد.

وكان ذلك الأمريكي هو المستر وليم لوكرمان وكان يشتغل بالتجارة. وفي عـام 1879م عينتـه حكومـة الولايـات المتحـدة قنـصلا فخريـاً في عـدن، غـير أن القنصلية الأمريكية الرسمية أنشئت في سنة 1895م وكان القنصل الرسمي هـو المستر ماسترسن. ويبلغ عدد الأمريكيين المقيمين في عدن اليوم ثمانيـة وعشرين بـين رجـال ونـساء وأطفـال وهـم يعملـون في القنـصلية الأمريكيـة وفي شـركة كالتكس وفي الإرسالية التبشيرية المسيحية المعروفة باسم إرسالية بـر السودان (سودان إنتيرير ميشن).

عدن المستعمرة:

في سنة 1937م تحولت عدن من سلطات حكومة الهند وصارت مستعمرة من مسئوليات وزارة المستعمرات البريطانية بلندن. وكان الإحصاء الرسمي للسكان الذي جرى في سنة 1946م هو ثاني إحصاء منذ أن تحولت إلى مستعمرة وفي تلك السنة ظهر أن سكان عدن كانوا 516 و 80، وفي سنة 1955م جرى إحصاء آخر فكانت النتيجة كما يلي:

كريتر (مدينة عدن)	54.995
الشيخ عثمان	28.879
المعلا	20.868
التواهي	20.353
عدن الصغرى	9.277
خورمكسر	3.059
	138.441

فكان المجموع مائة وثمانية وثلاثين ألفاً وأربعمائة وواحد وأربعين نسمة، وهذه الأرقام موزعة على السكان المفصلة جنسياتهم بعد:

اليمنيون	48.088	البريطانيون	3.765
العدنيون العرب	26.910	عرب الشرق الأوسط	2.608

عرب المحميات	18.881	اليهود	831
الصومال	10.611	الأوربيون	721
الهنود المسلمون	10.611	الهنود الفرس	596
الهنود البانيان	4.785		

ومن هذه الأرقام نلاحظ عدد الذكور والإناث عند كل جنس من الأجناس المذكورة:

اليمنيون	الذكور	40.517	الإناث	6.819
العدنيون العرب	الذكور	19.318	الإناث	17.238
عرب المحميات	الذكور	14.391	الإناث	4.249
الصومال	الذكور	5.969	الإناث	4.435
الهنود	الذكور	8.815	الإناث	6.913
البريطانيون	الذكور	2.423	الإناث	1.332
عرب الشرق الأوسط	الذكور	1.693	الإناث	878
اليهود	الذكور	474	الإناث	351

اليهود والطليان:

من بين الأوربيين نجد أن عدد الطليان في سنة 1955م كان 364 أما عددهم اليوم فيبلغ 586، ومنذ سنة 1949م بلغ عدد الطليان الذين دخلوا عدن 808 غادرها منهم 222.

أما اليهود فقد هبط عددهم في عدن من 7290 كما كانوا في سنة 1946م إلى 831 في سنة 1955م وسبب هذا الانخفاض الحرب الفلسطينية التي وقعت في سنة 1948م وقيام حكومة يهودية في تلك الأرض العربية.

السكان واليمنيون:

من الإحصاء المتقدم نلاحظ أن السكان اليمنيين في عدن هم الغالبية العظمى بين السكان فهم 35٪ بينما نجد أن عرب عدن 27٪ وعرب المحميات 14٪ وبينما نجد نسبة الإناث إلى الذكور في عرب عدن وبقية الأجناس متساوية أو عادية نجد الفرق الكبير واضحاً بين اليمنيين وعرب المحميات.

واليمنيون في عدن ينقسمون إلى فريقين: (الأول) طبقة المشتغلين بالأعمال التجارية، وهؤلاء قد اندمجوا مع عرب عدن أو أنهم في طريق الاندماج ولو أنهم لم يقطعوا علاقاتهم باليمن. (الثاني) طبقة العمال وهؤلاء لم يندمجوا إلا قليلا مع عرب عدن.

وأغلب العمال اليمنيين وعرب المحميات يأتون إلى عدن للبحث عن أعمال فيها ويتركون عائلاتهم في بلادهم، وأغلبهم وخصوصاً اليمنيين، يعيشون حياة بسيطة بالنسبة لعرب عدن وبقية الأجناس، وكثيرون لا يسكنون في بيوت بل يستغلون جو عدن المناسب الذي لا تهبط حرارته إلى أقل من 70 درجة فارنهيت في الليل فيفرشون سررهم على الأرصفة وفي الميادين وحتى في سفوح الجبال.

الأمية في عدن:

تعتبر اللغتان العربية والإنكليزية اللغتين الرسميتين في عدن. ونسبة القارئين الكاتبين بين عرب عدن والصومال والهنود نسبة كبيرة نسبيا وذلك لأن الأهالي هنا يعتبرون اللغة العربية لغة القرآن الذي يجب أن يقرأوه. وفي عام 1946م كان عدد السكان 80.516 نسبة المتعلمين فيهم 29٪ وفي عام 1955م ارتفعت النسبة إلى 48٪ ولا شك عندي أنه منذ تلك السنة حتى اليوم زادت نسبة المتعلمين كثيراً، خصوصاً بعد أن زاد عدد المدارس الخاصة بالبنين والبنات وبعد أن اهتم الآباء في عدن بتعليم بناتهم إلى جانب أبنائهم. أما اليمنيون وعرب المحميات والصومال فإن نسبة الأميين فيهم كبيرة بسبب افتقار بلادهم إلى المدارس وإلى أنظمة التعليم الحديثة.

المساكن المؤقتة:

لقد كانت نسبة السكان الذين لا منازل لهم في سنة 1955م تبلغ 9٪ ولا شك أن هذه النسبة قد زادت كثيرا. وفي تلك السنة كان عدد هؤلاء 15.287 ونظرا إلى ازدياد هجرة اليمنيين قد ارتفع عدد المساكن إلى الأرقام التالية:

في وادي العيدروس
وادي الطويلة
الشيخ إسحق
وادي المحراق بالمعلا
وادي المحراق بالتواهي

} 2155

بستان مهدي والسيسبان	600
المدارة	300
المحوا	200
الشيخ الدويل	100
المسبح	762
عشش الحكومة	92
مجموع أربعة آلاف ومئتان واثنا عشرة	4212

وإذا نحن قدرنا عدد السكان بخمسة أنفس في كل مسكن فإننا نجد أن مجموع العدد 165، 21 وبعض المساكن يعيش فيها أكثر من خمسة. وهذه المساكن مبنية من خشب الصناديق وسعف النخل وأتناك (صفائح) البترول والبراميل والورق المقوى وبعضها بالحجارة والطين والنورة والأسمنت.

الروضة والقاهرة:

بالإضافة إلى هذه المساكن المؤقتة فقد بنت الحكومة مساكن شعبية في حجيف تعرف باسم (الروضة) في سنة 55 – 1956م لإسكان العمال وعائلاتهم. ويسميها الصومال (القلوعة) وهي كلمة صومالية معناها (العوجة).

وعدد المساكن أو البلوكات 250، كل بلوك يضم ست شقق، وإذا قدرنا سكان كل شقة بستة أنفس فإن سكان الروضة يبلغون تسعة آلاف نسمة، يقال إن أغلبهم من الصومال. وكل شقة مؤجرة بخمسة وعشرين شلنا ومعنى هذا أن الحكومة تحصل على إيجار شهري مقداره سبعة وثلاثون ألف شلن في الشهر.

وفي منطقة صحراوية في الشيخ عثمان ظهرت قرية جديدة باسم (القاهرة) وبالرغم من أن بيوتها قد أقيمت تحت إشراف إدارة الأشغال العمومية فإن بيوتها ضيقة للغاية وعدها 1130 بيتا.

وإذا قدرنا سكان كل بيت بستة أنفس فإن مجموع سكان القاهرة يبلغ ستة آلاف وسبعمائة وثمانين نفسا. وفي الشيخ عثمان أيضاً نجد 876 بيتا عماليا وستين بيتا لعمال النظافة، وإذا قدرنا سكان كل بيت بستة أنفس فإن المجموع يكون 5616 نفساً.

وبهذا نجد أن عدد سكان البيوت المؤقتة في عدن والشيخ عثمان والمعلا والتواهي وعدد سكان الروضة والقاهرة والطين يبلغ اثنين وأربعين ألفا

وخمسمائة وواحداً وستين نفساً، ونظراً إلى ازدياد عدد المهاجرين فلا شك أن عدد الساكنين قد زاد كثيراً في السنة الماضية وفي هذه السنة، وربما أن العدد قد بلغ خمسين ألف نفس أو أكثر. أما مجموع سكان عدن كلها فقد زاد عما كان عليه في سنة 1955م، ولا ريب في أن السكان قد بلغوا مائتي ألف نسمة.

الأديان في عدن:

إن عدد الذين يعتنقون الديانات هم كالآتي:

- المسلمون 126.183
- المسيحيون 5.580
- البانيان 4.786
- اليهود 816
- الفرس 596

وسبب ارتفاع عدد المسيحيين هو وجود 4484 بريطانيا و 721 أوروبيا فيكون مجموع هؤلاء 5205، أما البقية فهم من الهنود الجوانيز وغيرهم.

المعاهدات التي عقدت بين الإنكليز وحكام الجنوب

التاريخ	الدولة	المعاهدة
1803/9/6م	السلطان أحمد عبد الكريم فضل العبدلي سلطان لحج	صداقة وتجارة
1839/1/31م	شيخ قبيلة العزيبي العبدلية	صداقة وسلام
1839/2/2م	السلطان محسن فضل بن محسن فضل العبدلي	صداقة وسلام
1839/2/2م	عاقل الوهط السيد محمد جعفر بن عيدروس	صداقة وسلام
1839/2/4م	السلطان محسن فضل بن محسن فضل العبدلي	صداقة وسلام
1839/2/4م	شيخ العقارب حيدرة بن مهدي بن علي	التزام
1839/2/18م	رؤساء قبائل الصبيحة	التزام صداقة وسلام
1839/2/19م	رؤساء قبائل الصبيحة	التزام
1839/2/20م	رؤساء قبائل الصبيحة	التزام صداقة وسلام
1839/2/21م	سلطان يافع السفلى علي بن غالب	التزام صداقة وسلام
1839/6/8م	سلطان يافع السفلى علي بن غالب	معاهدة صداقة وسلام
1839/6/14م	سلطان الحواشب مانع بن سلام	التزام
1839/6/18م	السلطان محسن فضل بن محسن فضل العبدلي	تعهد
[illegible]839/7/8	السلطان أحمد بن عبدالله الفضلي	تعهد
1843/2/11م	السلطان [illegible] بن فضل بن محسن فضل العبدلي	معاهدة صداقة وسلام
1844/2/20م	السلطان محسن فضل بن محسن فضل العبدلي	تعهد
1849/3/7م	[illegible] علي محسن فضل العبدلي	معاهدة تجارة وصداقة
1855/10/14م	[illegible] العوالق	ميثاق للقضاء على الرقيق
1857/4/12م	شيخ ورؤساء قبيلة العقارب	ميثاق
1863/1/23م	شيخ العقارب عبدالله بن حيدرة مهدي	ميثاق بخصوص جبل إحسان
1863/5/14م	نقيب المكلا صلاح بن محمد	التزام للقضاء على الرقيق
1867/3/7م	السلطان فضل بن محسن عبدالله العبدلي	اتفاقية لتموين عدن بالماء
1867/5/27م	السلطان أحمد بن عبدالله الفضلي	ميثاق
1869/4/2م	شيخ العقارب عبدالله بن حيدرة مهدي	التزام بخصوص عدن الصغرى
1871/5/13م	رؤساء قبائل المنصوري	تعهد
1871/5/13م	رؤساء قبائل العاطفي	التزام بحماية ركاب السفن المحطمة من رعايا بريطانيا
1872/5/6م	السلطان حيدرة بن أحمد بن عبدالله الفضلي	ميثاق

1873/11/17م	حاكم الشحر عبدالله بن عمر القعيطي	التزام بمنع تصدير الرقيق
1880/10/2م	أمير الضالع علي بن مقبل	معاهدة صداقة وسلام
1881/5/3م	السلطان فضل بن علي محسن العبدلي	ميثاق بخصوص حدود الفضلي مع العبادل
1881/5/5م	السلطان فضل بن علي محسن العبدلي وسلطان الحواشب علي بن مانع	ميثاق بخصوص أراضي زايدة
1881/5/5م	السلطان فضل بن علي محسن العبدلي	ميثاق بخصوص وضع أراضي الصبيحة تحت العبادل
1882/5/29م	حاكم الشحر عبدالله بن عمر القعيطي	ميثاق
1882/2/6م	السلطان فضل بن علي محسن العبدلي	معاهدة بيع الشيخ عثمان
1888/4/7م	شيخ عرقة	معاهدة حماية
1888/4/13م	سلاطين بير علي (الواحدي)	معاهدة حماية
1888/4/13م	سلاطين بالحاف (الواحدي)	معاهدة حماية
1888/4/28م	شيخ حورة السفلى عبدالله بن محمد باشديد	معاهدة حماية
1888/5/1م	حاكم الشحر عبدالله بن عمر القعيطي	معاهدة حماية
1888/6/2م	سلاطين العوالق	معاهدة حماية
1888/7/15م	شيخ العقارب عبدالله بن حيدرة مهدي	معاهدة حماية
1888/7/15م	شيخ العقارب عبدالله بن حيدرة مهدي	ميثاق بخصوص بيع بقعة من بلاد العقارب
1888/8/4م	السلطان أحمد بن حسين الفضلي	معاهدة حماية
1889/9/17م	قبائل العاطفي الصبيحية	معاهدة حماية

المراجع:

1- القرآن الكريم.
2- صفة جزيرة العرب للهمداني.
3- تاريخ اليمن لنجم الدين عمارة الحكمي.
4- تاريخ اليمن لعبد الواسع الواسعي.
5- تاريخ اليمن أو العربية السعيدة للكابتن بليفير.
6- تاريخ ثغر عدن لعبدالله بامخرمة.
7- تاريخ المستبصر لابن المجاور.
8- تاريخ المخلاف السليماني لمحمد أحمد عيسى العقيلي.
9- معالم جنوب الجزيرة العربية لسعيد عوض باوزير.
10- هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن للأمير أحمد فضل.
11- معجم البلدان لياقوت الحموي.
12- كنز الأخيار في التاريخ والأخبار لجمال الدين علي بن الحسن بن حمزة.
13- قرة العيون في أخبار اليمن الميمون لعبد الرحمن بن علي الديبع.
14- تاج العروس
15- ملوك العرب للكرنل جيكب.
16- معاهدات للمستر أتشيسن.
17- السلوك في طبقات العلماء والملوك ليوسف البهاء الجندي.
18- تحفة الزمن في أعيان أهل اليمن لحسين الأهدل.
19- العبر لعبد الرحمن بن خلدون.
20- شرح القصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد.
21- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.
22- رحلات ابن بطوطة.
23- مروج الذهب للمسعودي.
24- العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية للخزرجي.
25- البراهين المضية لشرف الدين حسين الأهنومي.
26- تاريخ ابن الأثير.
27- بغية المريد وأنس الفريد.

28- اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية لإسماعيل الكبسي.
29- روح الروح لعيسى بن لطف الله بن المطهر شرف الدين.
30- دائرة المعارف البريطانية.
31- دائرة المعارف للبستاني.
32- دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي.
33- مسيرات يافع.
34- إيدن ستلمنت للكابتن هنتر.
35- تقارير شركة الهند الشرقية وتقارير الكابتن هينس.

محتويـــات

تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية

مشروع مائة كتاب

تنوي جامعة عدن أن تصدر مائة كتاب على امتداد الخمس السنوات القادمة بمعدل عشرين كتابا في العام الواحد.

مائة كتاب حول عدن أو صدرت في عدن أو كتبها أبناء هذه العاصمة اليمنية التجارية والثقافية.

مائة كتاب تعيد لنا ذاكرة المدينة وأبناءها الطيبين، ذاكرة الحضارة والتنوير التي شعت على جميع أبناء الوطن اليمني الجميل، ذاكرة أولئك الذين نصبوا الصوى وركزوا الأعلام وأناروا الدروب نحو هدف التنوير والإشعاع الحضاري المتعدد الجوانب.

عدن اليمنية، عدن الوحدة، عدن التاريخ موطن كل اليمنيين الذين جاءوا إليها من كل حدب وصوب، تستعيد اليوم عافيتها وبناها.

هذه المائة كتاب هي جزء يسير، لكنه عظيم في هذه العافية وفي هذه الصحوة وفي هذا السلام الاجتماعي الشامل.

مائة كتاب تنبش في ذاكرة الأيام، في مخيلة التاريخ، في لحظة الإبداع الذي يستظل الجميع بحماسته التي لاتبلى مع احلام الماضي، وآمال الحاضر، وتطلعات المستقبل.

هذا المشروع الحضاري-التنويري يعم الجميع، ويشمل الأهل، القريب والبعيد منهم، ويستحوذ على أجمل ماخلفته الاقلام اليمنية هنا وهناك.

إنها أعمال تجمع ولاتفرق، توحد ولاتشتت!

أ.د. أحمد علي الهمداني
نائب رئيس الجامعة لشؤون
الدراسات العليا والبحث العلمي

أ.د. عبد الوهاب راوح
رئيس جامعة عدن





تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية

حمزه علي إبراهيم لقمان